مـــن وحـــي المهجـــر

إبحـــــار في عـــالـــــم الأفكـــــار

بقلم

محمود عباس مسعود

Impressions and Expressions from Abroad

Sailing the Realms of Ideas

by

Mahmoud A. Masoud

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

هذا الكتاب هو نسخة معدّلة عن مخطوطة سابقة تحمل نفس العنوان تم إرسالها مع مخطوطات أخرى، سنة ٢٠٠٦، إلى جهة معينة قصد الطبع. إنما لا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو طبع أي من مخطوطات وكتب المؤلف، سواء الموضوعة أو المترجمة، أو إعادة طبع المطبوع منها، بدون إذن خطي من المؤلف نفسه ومن وكيله القانوني المعتمد في الوطن العربي.

إهـــــداء

إلى روح والديَّ المرحومين

أهــدي كـتــابـــي هـــذا

تقدمة حب وعرفان بالجميل

محمود

كلمـة حول هذا الكتاب

بســـم الله وبـــه العون

لقد قمت بتأليف وترجمة موضوعات هذا الكتاب على مراحل مختلفة. بعض هذه المواضيع نُشر في الصحف والمجلات في أمريكا والشرق الأوسط، وقد ضاع قسم لا بأس به من المواد القديمة.

منذ قرابة السنتين شرعت بالكتابة في موقع للأستاذ رشاد أبو سعدة (السويداء نت) وقد حصلت على تجاوب طيب من القراء الذين تكرموا بإبداء الرأي في جمع تلك المواد وغيرها في كتاب يتم تعميمه في المنطقة نظراً لعدم توفر الإنترنت على نطاق واسع في الوقت الراهن.

وفي الآونة الأخيرة تزايد الطلب من الأقرباء والأصدقاء الذين لغاية الآن لم يتسنَ لهم الإطلاع على ما يسمعون بنشره على الإنترنت.

بعض مواضيع هذا الكتاب منشور في عدة مواقع إلكترونية، حيث قامت تلك المواقع بنقل تلك المواضيع عن السويداء نت وتناقلتها عن بعضها. وقد قام أحدهم بنشر موضوع (ملحمة الصداقة) الموجود في هذا الكتاب في موقع الأستاذ عمر خالد تحت عنوان (أصدقاء كالخفافيش).

جميع مواد الكتاب هي إما من تأليفي أو من ترجمتي من الإنكليزي إلى العربي. وبخصوص المواد المترجمة لا بد أن أذكر أنني استعنت على مدى سنين، سواء في كندا أو الولايات المتحدة، بالعديد من المصادر والمراجع النادرة من موسوعات وقواميس ودواوين شعر وكتب ومجلات موجودة في مكتبتي الخاصة. لم أتقيد دوماً بالترجمة الحرفية بل كنت أتصرف بها أحياناً بحسب المواضيع ومدى ملاءمتها للذوق والمفهوم الشرقيين. كما كنت أطعّم الأفكار أحياناً بنكهة مشرقية من حيث إضافة تعبير مألوف هنا أو كلمة مستملحة في موضع آخر لتسهيل استساغة قرائنا للأفكار المترجمة والتفاعل معها بحيث تبدو وكأنها وضعت أصلاً باللغة العربية.

لقد تجولتُ في بساتين الفكر العالمي وتسلقت أشجاراً سامقة طمعاً بثمار وجدتها شهية ونافعة فرغبت في مقاسمتها الآخرين. لم تكن أغصان بعض تلك الأشجار سهلة التناول

نظراً لتعقيد تشابكها ولربما لاحتوائها، إضافة إلى الثمر، على بعض أشواك أو أماليد شائكة. لكنني لم أقنع من الغنيمة بالإياب بل قطفت ما تيسر لي قطفه ووضعته في هذه السلة المتواضعة. ((وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)) صدق الله العظيم.

ولذلك أعترف بفضل كل الذين استفدت من أفكارهم وأعمالهم لإنجاز هذا الكتاب، فالفضل للمبتدي وإن أحسن المقتدي. وقد أدرجتُ في نهاية الكتاب قائمة بمعظم المراجع العربية والإنكليزية التي استعنت بها.

هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية بل يحوي بتعبير أستاذنا العقاد (أشتاتاً مجتمعات) على أمل أن تجد حسن القبول لدى القراء.

عندما قمت بإعداد الكتاب منذ قرابة السنة والنصف عرف صديقي الوفي المؤرخ والأستاذ الجامعي الدكتور فندي أبو فخر برغبتي في طبع ونشر الكتاب فانتخى وعرض خدماته بهذا الخصوص، لكنني لم أشأ أن أرهقه نظراً لأعماله الكثيرة والكثيفة. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يتطوع بها هذا الرجل الكبير بقلبه وعقله للمساعدة، إذ سبق ولعب دوراً محورياً في تحقيق مشروع ثقافي اضطلعتُ به في نهاية العقد الماضي يتعلق بمكتبة المركز الثقافي العربي في السويداء – سوريا، حيث ساعدني بكل إخلاص وأريحية وتفانٍ. فشكراً يا أخي أبا ربيع وسيبقى مكانك ومكانتك محفوظين في القلب.

كما لا يسعني إلا أن أشكر الأخت السيدة شهرزاد أحمد المهدي من مملكة البحرين الشقيق على إبداء الرأي والتواصل المنتظم والتنسيق الدقيق مع الدوائر الرسمية والمطابع ودور النشر والتوزيع لإخراج هذا العمل إلى النور.. والذي سيتبعه غيره من أعمال بعونه تعالى.

وشكر خاص لكل من شجع فكرة الإصدار وتطوع مشكوراً بمعلومات مفيدة.

وليس آخراً، فهذا جهد متواضع أردته أن يكون تعبيراً صادقاً للتواصل مع من يهمني أمرهم من الناطقين بالضاد. كما أنني أدرك أن الكتاب سيطلع عليه أساتذة متخصصون في شتى المجالات والموضوعات من لغة وعلم وفن وأدب وتاريخ وقد يكون لهم تحفظات أو آراء متباينة حول بعض محتويات الكتاب، إذ لكل رأيه ونظرته وأسلوبه الخاص. وبدوري فإنني أحترم آراء هؤلاء الأساتذة وأشكرهم سلفاً على قراءة الكتاب وعلى إبداء الرأي إن تكرموا به.

كما أتوجه ببطاقة صداقة ومودة للقارئ الكريم الذي من أجله وُضع هذا الكتاب. ومع أنني لا أستعمل لغتنا العربية الجميلة نُطقاً على أساس يومي، وقد مضى على غربتي

أربعون عاماً لم أعد خلالها إلى الوطن، لكنني أتحدث من خلال هذه السطور التي برغم صمتها تحسن الإفصاح عما يجول في الخاطر ويختلج في الوجدان.
وأرحب بكل من يرغب في الكتابة إليّ على بريدي الإلكتروني mm@swaidayoga.com

مع تحياتي القلبية.

محمود عباس مسعود
ميشيغن – الولايات المتحدة
٣٠ مايو ٢٠٠٨

المهاجر

هجرَ الديارَ في ربيعِ شبابهِ
ونأى بعيداً عن أثيرِ ترابهِ
وقضى سنيَّ الإغترابِ وقلبُهُ
في الموطنِ الأصليّ مع أصحابهِ
يحيا وتحيا الذكرياتُ بباله
وتمرُ أنسامُ الربوعِ ببابهِ
فتهزُّهُ وجداً إلى عهدِ الصبا
ويحنُ مشغوفاً إلى أحبابهِ
ما زالَ يشتاقُ مرابعَ أُنسهِ
ويساءلُ الأيامَ عن أترابهِ
ويظلُ يسكنُ في الوطنْ رغمَ النوى
ويشدّه التحنانُ منذ غيابهِ
وإذا أتتهُ رسالةٌ من صاحبٍ
هشَّ وبشَّ مرحباً بجوابهِ.

إلى صديق راحل

ستشرق روحُك الغالية في أفق جديد، ما وراء حدود هذا العالم..
وستتألق للأبد في سماء المحبة والتضحية والوفاء.
وستقتات قلوب محبيك على مقومات حبكَ الأخوي المجيد الذي غرسته فيها، وتستقي من عصارة نفسك الزكية التي سكبتها من مسامات شخصك الفذ وشمائلك الرائعة.
قد تتساقط أوراق الخريف وتذوي أزاهير الحقول، لكنها تهجع إلى حين منتظرة شمس الربيع الدافئة ونسائم الصيف المحيية لتعود بحلة جديدة وبهاء نضير.
لا لن تعيشَ بعيدا لأنك سكنتَ قلوبنا منذ زمن بعيد.. وستبقى بيننا.. في أمانينا وذكرياتنا وأحلامنا الندية. ولن يقوى الموت على ملاشاة حضورك الأنيس من حنايا عواطفنا التي احتضنتك ومشاعرنا الوالهة التي اتقدت بنار إخلاصك الذي عز نظيره.
الوحشة قد تتسرب إلى قلوبنا لأن يد المجهول اقتطفت زهرتنا الناضرة، لكن حري بنا أن نتعزى حيث زهرتنا الغالية ستتفتح من جديد في رياض الأبدية حيث الروح والريحان، ولن تذبل بتلاتها الغضة بعد الآن، بل ستزداد إشراقاً ونضرة لأن الأشعة الخفية ستغلفها بالسناء مثلما ستتناثر عليها أنداء الخلود وتفعمها بديمومة البقاء.
سنراكَ في ابتسامات الأطفال وعيونهم الصافية.. وفي الليالي القمراء سنعاين طيفك الحبيب.. أما النجوم الصامتة فستروي لنا حكايات مشوقة عنك.. والطيور ستشدو ألحاناً رخيمة لروحك الطيبة.. وهكذا سنشعر بقربكَ وسنعرف أنك ما زلتَ معنا كما كنت قبل الرحيل!

سترافقنا وإن لم تبصرك أعيننا، وسنحس بكيانك الخالد في مهجنا وخلجات قلوبنا التي تنبض بحبك الدافىء.
تموت؟ كيف تموت وروحُك تخفق بين ضلوعنا وترف في أجفاننا؟!
لقد ذهبتَ متنزهاً في حدائق الأبدية وتركتنا نحلم بعودتك في ليالي الشتاء وأمسيات الصيف وأعراف الورود المتضوعة بالعطر الهامس.
وها أنتَ ما زلتَ كريما وحميماً مثلما كنتَ شجاعاً ومتمرساً بمناقب الأريحية ونقاء الوجدان.

لقد غلبتْ عليك إغفاءة الفجر فرحتَ في سبات ذهبي عميق تحلم بمجالس السمر مع ربعك ومحبيك، متنقلاً بين حقول السلام وواحات السكون، حيث الهديل والترتيل وأريج الخزامى والصنوبر.

أجل، ارتحلتَ كتنهدة عميقة في خمائل الورود.. وبقيتْ

ذكراك العاطرة تعزينا وتعيد إلى أذهاننا ليالي الأنس التي زرعنا في هدأتها أغانينا وأحاديثنا العذبة التي ما زالت متماوجة في أرجاء الذاكرة وماثلة للمخيلة بكل جلاء.

لقد اندمجتْ نفسك الحبيبة في أعماقك القصية، وودعتَ عالم المحسوسات لتتذوق رحيق الانعتاق من قيود المادة وتتنفس عبير الفضاء اللامتناهي الذي يزخر بعبق المسرات الفائتة التي تتعطش إليها نفوس المتعبين من كوابيس العيش وهموم الحياة.

لعلكَ تمشي بيننا دون أن نراك، وتحدثنا همساً عن آيات الصداقة وروائع المحبة وجمال الحقيقة.

ما زلتَ حياً تسري مع أمواج الأثير، وتطلع مع إطلالة الفجر وتتفتح مع رياحين البراري، وترنو من عيون الزنابق وأهداب الأقحوان.

لقد أطبقتَ جفنيك عن مرائي هذه الدنيا، بيد أنك تبصر الجانب الرقيق من الوجود وتعاين الرؤى التي احتجبت عن أبصار الناس..

لا لن تنتصر أيها الموت.. فحبيبنا سيظل سابحاً في بحار اليقظة الروحية متحدياً الفناء.

لقد تحررت شعلة الحياة من الهيكل المتهدّم، وها هي تومض وترتعش بالأمل المشع بمنأى عن رماد السنين وحطام الزمن.

ها هي أجنحة الروح تشتد وتمعن تحليقاً في أجواز الإنعتاق. لقد أفلت الطائر الثمين من أقفاص الحس وعاد إلى الحرية التي طالما تاق لامتلاكها بعد طول عناء.

عبثا نحاول ارتياد ما وراء القمم الأرجوانية البعيدة ونحن في هذه الأجساد.. ننادي وليس سوى الصدى من مجيب.. يلهبنا الأمل فنتشوق لاستقصاء السر الأعظم من الشفاه التي أطبقها الصمت الأبدي، لكن عيوننا لا تبصر اللا منظور وآذاننا لا تلتقط موسيقى الأفلاك ولا تسمع أنغام الكائنات الطوباوية المترنمة بأمجاد النور.

سلاماً أيتها الحياة التي تبعثين التجدد في كل شيء وتلهمين الخواطر السامية في الأفكار

المتناغمة مع إيقاعك العظيم. وتحية إلى تلك الروح التي تعانق المجد وتصافح يد الخلود.. وهنيئاً لأبناء النور الذين تضيء قلوبهم أقباس المحبة ومشاعل الأمل اليافع.

أما نحن الذين نشرب كؤوس العيش المترعة بالحسرات وتعتمل التنهدات السخينة في صدورنا المكدودة فلنا أملٌ أن نرتشف يوماً من ينابيع النعيم المشعشعة وتجفف عبراتِنا أنسامُ اليقين.

لقد ارتحل صديقنا إلى الجزيرة البيضاء حيث الشمس لا تغيب والانطباعات العليا تبقى دائمة التجدد..

ارتحل إلى حيث أنهار اللجين وتلال الأرجوان والربيع الدائم المرصع بالأزاهير التي لا يعتريها ذبول.. إلى حيث سيمفونية الألوان التي لم تشهدها بعد هذه الأرض.

ألا فلتزح ستارة الشكوك، ولتتبدد المخاوف ولنبصر الحقيقة بعيون صافية لا تحجبها غيوم الارتياب ولا يعميها تناقض الثنائيات.

إلى أين تنطلقين أيتها الروح ذات الجوهر اللطيف ؟

هل إلى المروج الزمردية التي ما خطرت عليها أقدام بشر ؟

أم ترتادين الأفلاك الزرقاء ما وراء إدراك الحواس ؟

أو لعلك تغوصين في محيط اللهب البرتقالي وبحيرات الأوبال !

أتراكِ تسدلين حجاباً على الماضي البعيد وتنفضين عنك سبات الغيبوبة الأرضية، مسترجعة قواكِ الكاملة الكامنة في ذاتك السرمدية ؟!

لن يقوى الردى على محو صورتك من سجل الوجود لأن شرارة الحياة هي نواتك الجبارة.. ولن يمسّك العدم لأن بقاءك هو حقيقة لا تقبل الجدال، وما عداها أوهام أوهى من الفقاقيع وثنائيات أقل ثباتاً من سراب البوادي.

وها أنتِ لا تزالين حية ندية، تبزغين مع الأصباح البنفسجية حيث لا ظلام ولا ظلال.. بل يقظة أعذب من الكرى في الجفون، وأحلى من الأحلام الذهبية.

وسنشهد ولادتك الجديدة في روعة السكينة وجمال الطل المعتلق بنبت الحقول.. وها هي مدركاتك الجديدة تودّع قيود هذا العالم لتستقبل زخم التيارات القدسية التي ستغسلك من طبيعتك الترابية وتشحنك بقوى وأحاسيس ما ورائية تليق بأبناء الخلود.

كم.. وكم

كم أدهشت الطبيعة بحللها المزركشة من شاعر
وأذهلت ظواهر الوجود من عقل أريب.
وهل كان الإنسان سوى مقلّد
لبراعة القوى العليا وإبداع العقل الكلي المهيمن؟
لكن ما السبيل لإتقان المحاكاة أو لمحاكاة الإتقان؟
أنجعل القلبَ واسعاً كالمحيط؟
والصدرَ رحباً كلانهائية الفضاء؟
أنتشبه بالأرض التي تسند من يقف عليها؟
أم بشجرة الفل التي تنثر زهورها
على من يعبث بأوراقها ويهز غصونها؟
أم بالشمس التي تشرق على الجميع؟
أم بفصل الربيع
الذي يبذل رياحينه وزهوره بكل سخاء
مجسداً معاني العطاء؟!
سؤال يحيّر الألباب
يبحث عن جواب!

إلى أن نلتقي

تـذكـرت المنـزلَ الأول
وهزني الشوق لأهل الجبل ورفاق الماضي.
لقـد ودّعـتُ خـــلاني
وأودعتُ روحي ذكراهم.
ومـــن لـــه القدرة على سلوان ما ارتســـم في الخاطر؟
مـــا نسيتُ الواحات الظليلة في نفوسكم يا أصـــدقاء
وكم أيقظتْ شمسُ محبتكم في نفسي صبابة الحنين!
وسمعتُ الحياة تشدو وتنشد روائعَ ألحانها من قلوبكم الطيبة
وكأننـــي ما فـــارقتكـــم إلا بـــالأمـــس..
فها هي ذكراكم دائمة التجدد في خاطري
تتحدى النسيان.
وها أنا أتحدث إليكم من هذه الصفحات.
فإلـــى أن نلتقي، إن كـــان مـــن لقـــاء
تحيـــة مـــن القلـــب يا أصـــدقـــاء
ومودة دائمة النبض.

البشاشـــة

قيل أنها تقصّر المسافات الطويلة وتخفف الأعباء الثقيلة، وتزيل الظلال الكثيفة من قلوب وأفكار المصممين على امتلاك التفاؤل وبهجة الروح.

عندما تتلبد الغيوم في أفق النفس ينبغي ألا نمعن تحديقاً في أكداسها الربداء، بل لنستمتع بمرأى خيوط الضياء المحيطة بها كهالات فضية بديعة.

التقطيب داء والبشاشة دواء.. والمسرّة الذاتية تعين على تحمل أعباء العيش وإنجاز واجبات الحياة.

النفس التي تعثر على سعادتها الآن لن تؤثر فيها مفاجآت الأيام، وستتمكن من مواجهة الصعاب والتجارب المريرة بابتسامة عذبة مطمئنة لا تعرف الخذلان.

الصديق البشوش كشمس الضحى التي تغمر الأرجاء بفيض أشعتها البهية البهيجة، وتبدد ظلال الهموم وغيوم الكآبة من أفق النفس.

البشاشة فضيلة.. وهي كرذاذ الفجر لبراعم الأزهار الغضة.

البشوش مبعث انتعاش، وهو مرغوب ومطلوب على الدوام.

فتباركت القلوب السعيدة المتجهة دوماً شطر منابع الغبطة العليا لتشرب وتسقي الآخرين حتى الارتواء من سلسبيل الحياة المباركة.

طلَبَتْ مني السنون

حلَّ الشتاء بردائه الأبيض الزنبقي البارد

وتناومت رغائبي لمباهج الصيف.

وقيل لي كي ألتمس دفءَ قلبك الحنون..

وإذ أطلَّ الربيعُ راقصاً، مزداناً بشتى الزهور..

مضمخاً بعطر الحقول والروابي.. قيل لي كي أحبك يا إلهي.

وأتى الصيفُ منشداً ألحانه الخضراء في الأوراق الغضة وحفيف الحور وهفيف الصنوبر،

فألحَّ عليّ كي أنشد لك..

وحتى التربة الطرية القلب داعبت قدميّ المتعجلتين

والتمستْ منهما الاقتراب من محرابك الكلي الوجود.

وقالَ لي الشذى الناعم كي أتتبع مساره..

إلى هيكلك القدسي في قلب الورود والرياحين المتمايلة.

والطيور قالت لي كي أغني لك مثلها..

والنسيم المتماوج فوق الغدران والسواقي

أوقظ فقاعات محبتي لك فراحت تمرح فوق صدرك الكبير.

ومع ألياف العشب المنحنية بهاماتها تعلمت كيف أنحني

وأسجد لك يا رب.

والبخور أيضاً حدثني عن روائع أريجك البديع

وكيف ينبغي أن أحتفظ بقلبي مليئا بعطرك القدسي أمام عرشك اللانهائي.

والأحجار الصغيرة الخرساء الصابرة قالت لي كي أبصرك حتى في الذين يحاولون سلبي سعادتي..

وطلبتْ مني السنون المنسية كي أرسل لأخوتي البشر رسالة محبة ووداد مغلفة في كل دقيقة وثانية..

وكل فكرة قالت لي كي أبحث عنك في قلبها..

وأوحى لي حبي كي أحب كل الموجودات بكَ..

وهمس حبي لي كي أحبك بما أوتيت من قوة يا إلهي.

الشِعر

قيل أن الشعرَ هو تثبيتٌ للظلال
وإقامةُ الدليل على حقيقة اللاشيء.
ويقال أيضاً أنه نفحةٌ علوية
أهداها الإيقاع الكوني إلى أنفس شفافة
تبدو لطافة الأثير إزاءها كثافة.
فالتأثر بتناغم الطبيعة وجرْسها المنسجم
هو اقترابٌ واعٍ أو لا شعوري من إيقاع الوعي الكلي
ومحاكاته حساً وتفكيرا.
الشعر هو موسيقى الخواطر التواقة والمشتاقة
إلى ما هو أرقّ وأرقى..
وأنغام الأمل الأخضر في مروج الحنين.
وهو الحلل المشرقة التي ترتديها ملائكة الوحي والإلهام
والباعث السامي لمعاينة كل ما هو صالح وجميل.
الشعر هو الشعور في أسمى حالاته.
وأعمق نظراته
وأدق خطراته
وأصفى قطراته
وأسطع أقباسه.

الثلـج

يا من هيّجتَ أشجان رشيد أيوب
وذكّـــرته بأهــله وخـــلانـــه..
هكذا أحسّ كلما رأتك عيناي ولامستك يداي.
لقد نثرتكَ أناملُ السحب..
فتهاديتَ بصَمتك المعهـــود..
وعانقتَ الثرى.
في رقعك التقت بسمات النور
وهمســـات الليلك الأبيـــض.
ما جئتَ إلا موحيا بالنقاء وصفو الخواطر
ولا تتلوث إلا بعد أن تخطر فوقك الأقدام
ويمازجك هباب المداخن.
لكنك تنبثق من الأعالي
وتـــلازمك روح النصـــوع
حتى عندما تستحيل ذوباً
وتحملك أجنحة الشـمـس
إلى المنفســـح الـــرحـيب.
ألا ليت الضمائر تتشبه بنظافتك
فتتنقـــى مـــن الغـــث و'الغـــلث'
وتستيقـظ من سكـــرة الـخـــداع.

الرقــي

على دعائم الخلق النبيل يبني الرقي صروحه
وبرياحين المعرفة الأكيدة يزيّن حدائق فهمه
وبــروح الجمــال يسقــي بســاتين ذوقــه.
هو انفتاحٌ وجداني
وتهـذيــب ذاتــي
ونضــج عـاطفــي.
هــو الاستقــرار في المجتمعــات
واحترام الآراء وتقديس الحريات.
المجتمع الراقي هو الذي يسن ويستقي قوانينه من منابع العدالة
ولا يفسح مجــالا للمحسوبيــات التي يعتبرهــا من المحظــورات.
فيــه ضمانــة العيــش الكــريــم
وفي آفاقه ترفّ رايات العدل والمساواة
وتشع أنوار الحرية واستقلالية التعبير.
يعــرف التضامــن، لا التطــاحــن.
التعاون، لا التشاحن.
ويسود بنيه المحبة والخدمة والتضحية.
وكل نفــس راقيــة تحــن لذلك المجتمع
وتفتدي ترابه المقــدس بالــروح والدم.

الفــن

مـــا حُـرم الإنسانُ من الـدافع الخـلاق
فـروح الإبـداع عميقة الجـذور في كيانه.
الحياة تعبيرٌ
ورغبةٌ ملحة للإفصاحِ عن شيء دفـين
وثيق الصلة بترقية الذوق وصقل المواهب.
الفن إبداعٌ، وقيمته تكمن بمدى اقترابه من الحقيقة
التي تتـــــراءى أطيـافهـــا في دنيـــا المنظـــور.
فإن ماثل العبقرية الكونيـة
ولـــو بالمحاكـــاة والتقليد
اتسم بطابع الوحي والإلهام.
وإن باينها كان أقرب إلى التشويش والاضطراب
حتى ولو عُدَّ تفرّدا وأصـــالة.
الفن الجميـل والأصيـل هو الذي يستوحـي روعـته
من الجمال المطلق الذي تعشقه العقول ذات التركيز
والأذواق التـي تحسن التمييز.
إن من يستلهم روح الحياة تتوارد إليه الإلهامات لطيفة نظيفة
أما المتحرر من القيم الجمالية الحقة
فـــلا 'يبـــدع' غيـــر النـشـاز
ولا 'يخلق' إلا التنافر وعدم الانسجام.

بساط الأثير

تهللنا لمقدمك يا ربيع
وقلنا استضافنا النوار والشعاع
وأمّـــت النســائـــمُ ربــوعَنـــا
تنفح أنفاسها العطـرَ والأريــج.
أي درس لنا بك يا فصل الزمرد والعقيق؟
يا من تتهادى بين سندسك ملائكة الأمل
ويسري مع خيوط قرصك الذهبي الدفءُ والنـماء!
الأحاسيس تنشط وترقص حبورا كلــما جئت باسما
فتفـــــــرح بمـجيئـــك القلـوب
ويرتسم افترار براعمك في العيون.
كأنك قطعة حية من حقول الأثير.. إلينا تطير
لتذكرنا بربيع دائم
حيث لا يــذوى وردٌ
ولا يخبـــــو ألــق.
ترتحـل فتصبــو إليك النفـوس
وتشتـــاق عــودتــك العـيـــــون
لأنـــك لوحـة من لوحات السمـاء
موشاة بالنضرة النابضة بالحيـاة.
فيا ليتَ زيارتك تطول
يــا أجمـل الفصـــول!

إلى الطفولة

لقد باعدت ما بيننا الأيام
لكن أثراً منكِ ما زال حياً في عمق الشعور
رسمته ريشة الطهر على صفحة الوجدان يا طفولة!
أي حسٍ لم تحركه الألوان الزاهية المتألقة؟
وأي مسامع لم تهزها طرباً أغاريد وزغاريد الطيور؟
أم أي عين لم تلحظ محاسن الطبيعة في بواكير العمر؟
أيام كان النقاء ملء الصدور
والبراءة تحاكي صفاء النجوم في ليالي الصيف الدافئة.
حقبة رشفنا إبانها رحيق العمر
والعمر بأيام البهجة يقاس.
ولكم ذهلنا لمرأى الشفق الباكي
وعشنا لحظات خالدة مع الطبيعة بتنوعها
وهي تجلو آيات حسنها وفرائد عبقريتها.
مزيداً من الأحاسيس الغابرة يا طفولة
فرب لحظات سعيدة نعيشها من جديد
تقربنا خطوة من مشارف الأثير
وتعيدنا ثانية إلى قلب الحياة.

شكسبير

قيل أن الإنسانية أجهدت ذاتها واستقطبت كل طاقاتها عندما أبرزت إلى الوجود أعظم شعراء العالم على مر الأجيال والعصور. فكيف تمكنت من تجسيد ذروة الإبداع في هذا الشخص الذي بدا إنساناً عاديا إبان حياته التي لم يظهر تألقها ومجدها إلا بعد رحيله عن هذا العالم؟

وما سر عبقرية شكسبير وكيف تمكن من الغوص السهل الممتنع إلى أعمق أغوار النفس البشرية وتصوير كل ما يعتمل فيها من عواطف وخواطر وأحاسيس وانطباعات؟

إن مثل هذا النبوغ ليس عشوائياً ولا بد من وجود تفسير لهذه الظاهرة النادرة التي لم يتوصل العلم بعد إلى تعليلها وإعطاء جواب مقنع عنها. ولم يكن شكسبير نفسه يجهل ما كان يتمتع به من قدرات غير عادية وهو القائل في إحدى مسرحياته: 'قد يكون كياني محصوراً داخل حبة جوز ومع ذلك أبقى مَلِكاً على فضاء لا متناه.'

لقد كان كيان شكسبير المعنوي مستكملا وكان عقله مرآة صافية وصقيلة تعكس بوضوح وجلاء كل ما يدخل ضمن مجالها، مثلما كانت ذاكرته مستودعاً لا حد لاستيعابه، ومحتوياته منظمة ومرتبة في غاية الدقة والإحكام. كما كان يمتلك قدرة فائقة على التنقل ببراعة والوصول بيسر وسهولة إلى كل ما كان يختزنه عقله الجبار من معطيات ومعلومات.

لم يترك شكسبير موضوعاً واحداً لم يطرقه أو يلخصه تلخيصاً بليغاً، ولو ببعض عبارات مقتضبة. لقد دخل الأدب العالمي من أوسع أبوابه وصال وجال بثقة وتثبت كأنه الفارس الأوحد في ميدان بل في دنيا الثقافة على اختلاف فروعها وتباين صنوفها.

مستحيل أن تكون المدرسة هي التي فجّرت منابع عبقريته لأن المدارس النظامية في زمنه كانت مقتصرة على تدريس بعض مواد تقليدية لا تستحث تفكيراً عميقاً ولا توسع آفاق العقل. لقد كان شكسبير مدرسة بذاته ولذاته، ويا لها من مدرسة تقوم مناهجها غير التقليدية على التنقيب في أعماق النفس ومناجم العقل التي تزخر بشتى كنوز التفرد والإبداع.

ولعل بلاغته ومعرفته الدقيقة بأسرار اللغة هو ما أسعفه في تجسيد أفكاره وإبرازها بحلل متعددة التصاميم والألوان تناسب كل الميول وترضي كل الأذواق.
لقد كان هذا الرجل الفذ بحق متميزاً فيما يتعدى المعروف والمألوف وأفلح في ترك بصمات خالدة لا تمحى على الثقافة العالمية التي اقترن اسمه بها وسيظل مقترناً ما دام للأدب والأدباء مكان ومكانة بين البشر.

إلى جبران الخالد

لئن كان شكسبير فخر الأمة الإنكليزية فأنت بالتأكيد يا جبران فخر الأمة العربية ومحبوب الناطقين بالضاد الذين يعرفون منزلتك ويقدرونك حق قدرك.
ترى ما الذي ميّزك عن سواك وجعل مرتبتك في الرفوف العالية، وصنفك واحداً من أبناء النور الخالدين؟
ألعله عمقك الشبيه بمنابع الفكر التي لا قرار لها، أو سمو تطلعاتك التي صافحت القبة الزرقاء؟
أم تواضعك الجم الذي وصفه لنا الشاهد العيان المرحوم أبو نديم محمود عندما التقى بك وبأعضاء الرابطة القلمية في مونتريال، كندا؟
لقد كنتَ رقيقاً وعميقاً في نظراتك..
عميقاً في أحزانك..
عميقاً في محبتك..
وعميقاً في أوصافك التي تسحر الفكر وتثمل الشعور.
أجل، ما من شك أنك كنت على تواصل دائم مع البعد الرابع حيث الصور الأثيرية حقيقة ماثلة أمام بصيرتك وأصداء الهمس الرخيم مسموعة بجلاء لأذنك الباطنية.
لم تكن مقلداً بقدر ما كنتَ بارعاً في تصوير أدق أحاسيسك ونقلها للمتلقي بيسر وسلاسة.
لقد تحدثت إلى القارئ لا من خلال كلماتك المعبّرة وحسب، بل من ألحان قلبك النابض بملايين المشاعر والعواطف التي لم تتفجر خزاناتها بهذا الفيض الزاخر إلا في القليل من بني البشر.
أي جبران، لقد جمعت في شخصك عمق الفضاء والزمان، وتحدثت عن ماورائيات كأنك رأيتها رأي العين ووصفتها وصف من يعرفها حق المعرفة. أما مواهبك الكبيرة والغزيرة

فقد كانت تحاكي سماء الليل المرصعة بالنجوم التي لا تعد ولا تحصى. وما أروعه من منظر للمتأمل في سحره الأخاذ وامتداداته الشاسعة.

عندما أقرأ كلماتك يا جبران أحس أنك وضعت فيها شيئا من روحك المتأملة المتألمة فيحدث تواصل عفوي ما بيننا وكأنني أسمع انعطافات نبراتك وتنهدات أحزانك.

لقد عشتَ أيها البلبل الغريد وحيدا بالرغم من كثرة معارفك. ولعل تلك الوحدة القاتلة هي التي عجلت برحيلك قبل الأوان.

وبالرغم من تباين الفلسفة والنظرات ما بيننا لبعض جوانب الحياة، لكنني عوّدت نفسي على تقديرك بعدما تمكنت من مواكبة بعض رحلاتك الأثيرية وسياحاتك الجريئة في عوالم الخيال.

لك فضلٌ يذكر ويشكر يا جبران على لسان الضاد، ولك فتوحٌ ريادية طبعت اللغة العربية المعاصرة بطابعها المميز. ولا إخال أحداً من قرّاء هذه اللغة الجميلة إلا وهو مدان لك بتعبير هنا وكلمة هناك. فما أروعك من مجدد وما أمجدك من شاعر رقيق!

إلى شيخ الأدباء أمين الريحاني

أيها الأمين، يا من قلتَ كلمتك ومشيت..

ويا من كان صدقك مع ذاتك ومع الناس شعارك الدائم في الحياة..

تحية لك من أعماق القلب.

لا أدري إلى أي مدى يعرفك قراء العربية، وكم منهم تعمّق في دراستك ومجاراتك في انطلاقاتك نحو عوالم بالكاد بلغها غيرك من الأدباء والكتّاب.

أيها الإنسان الخالد في أفكارك وأشعارك وأسفارك، تحية ملؤها الحب والإعجاب إلى إنسان كان أصيلا في رأيه وكلمته، جريئاً في مواقفه، صادقاً مع نفسه ومع الناس، متواضعاً عن مقدرة وذا شأن خطير بين الرؤساء والملوك الذين سعوا لمجالسته والانتفاع برأيه السديد.

لم يكتب عنك الكثير ممن عرفوك وعرفوا قدراتك في دنيا الاغتراب، ولم تكتب كثيراً عن نفسك لأنك لم تسعَ إلى الشهرة بل هي التي لهثت وراءك وتشرفت بالانتساب إليك.

أيها البطل الخالد في دنيا الأدب والمعرفة، والتبحر غير العادي في اللغة الإنكليزية لدرجة أنك فقت أشهر كتّابها وشعرائها، وربما رحّالتها أيضاً، الذين اعترفوا لك بهذا الفضل، تحية لك!

مَن غيرك استطاع ترجمة اللزوميات بلغة مشرقة لا تقل شأنا عن لغة عباقرة الغرب من أمثال كيتس ولونغفلو وشيللي ووتمن وأمرسون وماركام وأخيك الملهم ثورو؟
أما رائعتك (كتاب خالد) الذي وضعته بالإنكليزية وأنت في عز الشباب فقد أذهل أرباب هذه الصناعة الأدبية بحيث تسارعوا إلى الترحيب بك والإشادة بأسلوبك السهل الممتنع. كيف لا وقد وضعت فيه من الفرائد والشوارد ما يضاهي ما وضعه شاعر المعرة في رسالة الغفران وما ضمّنه ملتون في فردوسه المفقود!

ما أروعك أيها الأمين!
ليت من أرّخ لك من رفاقك الأدباء كان أكثر إنصافاً لك واعترافاً بفضلك واغترافاً من بحرك الذي لم يعرف النضوب.
أيها الأمين، لقد كنت أمينا وعملت دون كلل في سبيل بني قومك. لقد كنت الأخ الوفي والصديق الحميم لكل من اقترب منك والتمس مساعدتك. لقد أعطيت بسخاء وتركت ثروة أدبية لا تقدر بثمن لكل من يعرف قيمة الأدب الجاد الرصين المتعمق الذي يملك المقومات والقوة لرفع مستوى الوعي وتنشيط قوى العقل والروح.
فتحية لكَ حيثما أنتَ مع الخالدين في دنيا الله الواسعة.

في ذكرى ذات الذكاء الألمعي

اطلعتُ في السنوات الأخيرة على معظم كتابات الأديبة العربية الشهيرة مي زيادة، وقرأت بعضاً من سيرة حياتها فحظيت بإعجابي وتقديري. ولا زلت أعتبرها مثال المرأة الشرقية الفاضلة والإنسانة الطيبة التي حوت إضافة إلى الآداب والمعارف الجمّة الأخلاقَ الكريمة والجمال الروحي والرقي الفكري والشجاعة الأدبية.
ولعل جو الحرية والانفتاح الوجداني على تيارات الثقافات الأخرى قد ساعدا على تكوين شخصيتها بذلك التناسق الرائع بالرغم مما عانته في سنيها الأخيرة على يد أقربائها الذين طمعوا بممتلكاتها فأوصلوها إلى مستشفى المجانين، ولم تكن لتخرج من تلك المحنة القاسية لولا همة شيخ الأدباء الشهم أمين الريحاني.
كانت ميّ مترسخة في دروب الفضيلة، تعشقها كحب البقاء لأنها مازجت كيانها ومسّت ذاتها المعنوية حتى الأعماق. وكانت، رحمها الله، ذات سيادة على العواطف الجموحة

فسيطرت على قواها وصرّفتها في مذاهب العقل وضربت بسهم وافر في دنيا العلوم والمعارف التقليدية لدرجة النبوغ والإبداع النادرين.. وفي اعتقادي أن أحداً لم يكن يضاهيها من الأدباء سوى عملاق الأدب العربي عباس العقاد، مع أنها كانت أكثر تحللا منه في بعض الاعتبارات مما ساعدها على التغلغل وبكل طلاقة وعفوية إلى قلب الحياة والارتواء من مياهها النقية.

لقد كانت تشعر بالوحشة والانفراد نظراً لمنسوبها النفساني الرفيع الذي لم يستطع معظم أدباء عصرها التوصل إليه والتأصل فيه. ويمكن القول أنها كانت طائراً غريباً شنّف الأسماع بتغريده وأبهج النفوس بظرفه.. وارتحل طائر الفردوس وكأن زيارته للبلدان العربية كانت لإعطاء فكرة حقيقية عن قيمة المرأة وكرامتها وتقديس الحرية والتطلع إلى آفاق الكمال الأدبي.

كانت ميّ نجماً متألقا رفع الناس أعناقهم للنظر إليه.. وتركت بذوراً صالحة تمس الحاجة إليها في حياة الشبان والشابات المشرقيين في هذا العصر وفي كل عصر.

ولعل رسول اللغة العربية مصطفى صادق الرافعي لم يكن – لولا ميّ – ليترك لنا خوالده الجياشة بأعمق الأحاسيس البشرية مثل كُتب المساكين ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد. فشكراً لميّ وشكرا للرافعي على تلك الوجدانيات الحية والروائع الملهمة.

وقفة مع العملاق

وقع بين يدي منذ أعوام كتاب للأستاذ الكبير العلامة المرحوم عباس العقاد، وفي أحد فصوله يتناول مسألة الكمال تعريفا وتحليلا واستنتاجا. وفيه يخلص إلى أن 'الإنسانية لن تبلغ أبدا حدا من الكمال ليس بعده غاية.. وأن الكمال المطلق شيء غير مفهوم ولا يمكن أن يفهم لأنه غير محدود. وهو أي الكمال المطلق غير مرغوب فيه لو أمكن وقوعه، لأن الحياة كلها قائمة على الحاجة والحاجة قائمة على النقص. فإن كمُلنا كمالا لا حاجة بعده فقدنا لذة الحياة من حب وطعام وسعي وتحقيق الأمل ونصر على المخاوف..'

فالكمال المطلق إذن – في نظر أستاذنا العقاد – شيء لن نبلغه ولن نتصوره ولن نستريح إليه.. والحياة الإنسانية لا قيمة لها إذا بطلت فيها الحاجة والسعي إلى سدادها.. إلخ.

وقبل أن أبدي رأيي الشخصي في آراء الأستاذ الكبير لا بد أن أعترف بأنني من المعجبين كثيرا بسعة اطلاعه وبديهته الثاقبة وبصيرته النفاذة وعلمه الغزير.. فقد كان رحمه

الله مدرسة متشعبة الفصول لا تكاد مناهجها تخلو من أي علم استنتاجي أو معرفة استقرائية، يتفنن في إظهارها فيسكب في قوالبها ما تيسر له من فنون البلاغة الإبداعية ويوشيها بحلي ونفائس نادرة المثال من الاشتقاقات اللغوية الباهرة بفضل تبحره المشهود له في مجاهل اللغة وتفرعاتها. فكان موسوعة شاملة متكاملة ومرجعا موثوقا في مسائل كثيرة، ولا أظن أن أحداً من الأدباء والمتأدبين ينكر فضله على اللغة العربية والأدب العربي المعاصر.

وبعد هذا الاعتراف الصادق بفضل أديبنا الكبير سأحاول وبكل تجرّد وموضوعية التطرق إلى أقواله المذكورة أعلاه إقراراً للحق وإنصافاً للكمال الذي ضاقت ذهنية الأستاذ العملاقة عن استيعابه أو التسليم بوجوده.

فقوله إن الإنسانية لن تبلغ أبداً حداً من الكمال ليس بعده غاية.. هو في نظري قول مغلوط لأن غاية الإنسانية هي بلوغ الكمال المطلق الذي هو غاية الغايات. وهذه الغاية وحسب تعطي الوجود الإنساني معنى وكرامة وأملا. إذ لولاها لانعدمت الفوارق بين المستويين البشري والعجماوي ولأصبحت الحياة عبئا ثقيلا بل ولفقدت لذتها وجمالها.

أما بالنسبة لقول الأستاذ 'الكمال المطلق شيء غير مفهوم ولا يمكن أن يُفهم لأنه غير محدود' فهذا صحيح نسبيا لأن الكمال المطلق لا يمكن فهمه عن طريق العقل المحدود الذي يعتمد في معطياته على الحواس القاصرة، لأنها محدودة في مجالها لارتباطها الوثيق بعالم المادة المحدود. إذاً إدراك الحق أو الكمال المطلق لا يتحصل عن طريق القوة المفكرة أو الحواس، إنما بواسطة الوعي السامي للروح الموجود فعلا والمحتجب خلف الانطباعات الحسية المتلاحقة. فمتى تم وقف سيل تلك الانطباعات أو التقارير الحسية غير المنقطعة – بواسطة عملية واعية ومدروسة – عندها يبزغ البعد الرابع وتتيقظ الحاسة السادسة للإدراك التلقائي عن غير طريق الحواس. ويستطيع عندئذ أن يفهم المرء القوى والحقائق المتوارية خلف المادة وخلف العقل الحسي. ولست هنا بصدد التبسط في شرح ذلك الاختبار لأن المقصود هو غير ذلك في هذا المقام. كما وسيدرك آنذاك معنى الكمال ووجوده وخلوده. وبأن الغاية القصوى هي التوحد مع ذلك الكمال ولو بعد حين. ولعل في هذا إجابة على قول الأستاذ بأن 'الكمال المطلق غير مرغوب فيه.'

أما بالنسبة لقيام الحياة على الحاجة والحاجة على النقص.. وأن بلوغ الكمال ينفي لذة الحياة.. فهذه مغالطة فلسفية واضحة بالرغم من صحة المعطيات.. فما يسميه الأستاذ 'بالحياة القائمة على الحاجة' لعله يقصد في ذلك استيفاء ضرورات المعيشة الأساسية

الكفيلة بإعالة واستمرارية الجسد الفيزيقي.. أما أن نفقد لذة الحياة لمجرد بلوغنا الكمال فهذا أبعد ما يكون عن المنطق والصواب، لأن لذة الحياة أو النشوة العظمى لا تكتمل إلا بالاتصال بالآفاق الروحية وامتزاج النفس البشرية مع الذات العليا المطلقة التي هي ينبوع الخير الأعظم وجوهر الكمال.

والمعروف عن الذين توصلوا إلى هذه الحالة النشوانية أنهم لم يفقدوا شيئا بل أنهم حصلوا على كل شيء.. لأنهم امتلكوا السعادة العظمى التي يسعى الإنسان لتحقيقها بشتى الوسائل والطرق.

فإذ يقترن وعيه بطبقات عليا ولطيفة من الوجود المغمور بالعقل غير المتناهي يحيا حياة واثقة مطمئنة، مبتهجاً بتلك الآفاق غير المحدودة المليئة بالحب والنور والجمال والكمال، ومدركاً بأن قيمة الإنسانية مرتبطة بإدراك تلك الغاية التي ما بعدها غاية.

إلى العظيم حافظ إبراهيم

كم كنتُ أود مخاطبتك نظما مثلما كنت تتقل ما بنفسك إلى الناس، لكنك يا شاعر النيل الخالد استحوذتَ استحواذا طبيعيا وعفوياً على ملكة ومملكة الشعر بحيث لم تترك زيادة لمستزيد، فآثرتُ أن أنثر هذه الخواطر بين يديك.

إن مبايعتك لشوقي بأمارة الشعر كانت تكرّماً وتواضعاً منك، لأنك كنت بحق أمير الشعر والشعراء، وكأن الحياة قد أعدتك لنظم أبلغ وأنبل قصائدها البكر التي تعصى على التقليد.

لقد كنتَ تعبيراً نادر الحدوث والتكرار من تعبيرات الحياة. لم تطمح إلى المجد بقدر ما تشرّف المجد بالاقتران باسمك والانتساب إليك. ولو أنصفك منتقدوك (شكري والعقاد والمازني) لكان لقبك عندهم (الوفي) بدل (النعّاب) و(المقيم على العهد) بدل (البَكّاء).

وبالرغم من تلك الحملات العاتية التي شنوها عليك باسم التحديث والتجديد بقيتَ كما أنت شامخاً فوق تلك الزوابع كالجبل الذي لا تهزه الرياح ولا تفتت صوانه المياه.

لقد كنتَ حراً ومتحرراً من التهافت على المكاسب المادية فعشتَ رقيق الحال، قانعاً بما لديك، ما نحاً ما بحوزتك دون تردد أو إبطاء لمن يسألك أو لا يسألك. بل لقد كانت لديك حساسية مفرطة لتواجد المال في جيبك بحيث لم يهدأ لكَ بال إلا بعد أن تصرفه على

الآخرين بسخاء غير معهود.
لا أقول أنك كنت أكبر من الحياة بل كنت بحجمها وعظمتها، كبير النفس، طيب القلب، وفياً لأصحابك، تذكرهم في حياتهم وبعد رحيلهم، متفانياً في مساعدة الآخرين، كريماً إلى أقصى حدود الجود والكرم.

ولأنك كنت جوّاداً وكان عطاؤك تلقائياً فالمأثور عنك أنك لم تكن لتلقي قصائدك قراءة من الأوراق، بل كنتَ تهدّها هداً بزخم الشلال المنحدر بقوة وروعة.
أما مكتبتك التي كثر الحديث عنها إبان حياتك، والتي بالكاد رآها واحد من الناس، فقد اتضح فيما بعد أنها لم تكن سوى كتاب واحد مرمي على الأرض، دون غلاف! أجل، لم يكن بك من حاجة إلى الكتب لأنك كنت مكتبة عامرة بذاتك ومدرسة متكاملة بصفاتك.
أما قصائدك فهي عرائس الشعر ومقياس النبوغ في كل المراحل، وكأنك كنت على تناغم مع بُعد آخر إسمه (دنيا الشعر)، إذ كانت الأبيات تنساب منك سلسة غزيرة، أصيلة معنىً ومبنىً، ومتحدثة بلباقة وإقناع إلى عقول وقلوب سامعيها وقارئيها.

فتحية إلى روحك يا شاعر الشعراء! ومثلما كنت أميناً وفياً ومنصفاً للموتى من الأحياء، فما زال على هذه الأرض من يذكرك بإعزاز وإعجاب ويبعث إليك بأمواج الحب إلى حيث أنت في قلب الأثير.

آثار على الرمال

رأى حلماً أنه يمشي مع الربِ على ضوء القمرْ
بمحاذاة الشط الذي يشهدُ مداً وجزرْ
وبصفحةِ الأفقِ البعيدِ قد جالَ النظرْ
فرأى...
سفرَ ماضيهِ وقد بانت بتفصيل الصورْ
جُلَّ ما استرعى انتباههْ من رؤىً كان أثرْ:
وقعُ أقدامٍ لهُ ولمنْ سوّى البشرْ
فسَرَتْ في قلبهِ النشوةُ وانزاحَ الكدرْ
وعلَتْ وجههُ بسمةٌ وحلا ذاكَ السهرْ
وللحظة...
رأى شيئاً فتعجبْ
كادَ قلبُهْ ينفطرْ
قال رباهُ أفدني: أنت تعرف ما استترْ
أبصرُ حِقبةً من عمري مليئةً بالوعرْ
لا أرى غير آثارٍ لواحد.. ما الأمرْ؟
يا ترى هل كنتُ وحدي حينما دمعي انهمرْ؟
أين كنتَ عندما الحسراتُ كانت كالجمرْ؟
فأجابَ اللّه: لا تجزعْ بل استسقِ الخبرا
لم تكنْ وحدك قطعاً في عذابٍ أو سمرْ
إنما الآثارُ آثاري بساعات الخطرْ
فإلى صدري ضممتكْ وحملتكْ
لأوقيكَ البلايا
فاعتبرْ!

الشعور في سطور

(تحليل المشاعر ومعرفة طبيعتها)

إننا نعرف ونحسّ ونريد. أو بعبارة أخرى نحن نفكر ونستمتع ونتألم ونعمل. كل النشاطات العقلية (أو النفسية) تشتمل على المعرفة والإحساس والإرادة. الشعور ملازم لكل النشاطات الفكرية ويشكل العنصر الشخصي في تلك النشاطات. لا يمكننا معرفة الشعور إلا عن طريق التجريب أو الاختبار. وما لم يشعر الإنسان باللذة أو الألم، بالفرح أو الحزن، فكل ما تم تدوينه عن هذه الحالات لا يمكن أن يجعل الإنسان يعرف شيئا عنها. وبما أن للشعور خصوصية قوية من حيث اقترابه واقترانه بالنشاط العقلي فمن الصعب تعريفه. وكلمة الشعور أو الإحساس تستعمل في الأدب للدلالة على حالات ربما تكون متقاربة لكن إحداها بحد ذاته لا يعطي التعريف الصحيح أو المعنى الدقيق والحصري للشعور.

نقول أننا نشعر بالجوع أو العطش أو الإرهاق. أو قد نقول أننا نشعر بتوعك في صحتنا أو بالنعاس. ففي كل هذه الحالات تُستعمل كلمة الشعور للتعبير عن حالة شاملة لمجموعة من الإحساسات العضوية المعقدة. وجميع هذه الإحساسات العضوية غالبا ما يرافقها اللذة أو الألم، ولذلك فإن الاستعمال الشائع لهذا المصطلح هو صحيح على وجه الإجمال. وقد يمكننا تعريف الشعور على أنه الجانب الذاتي لحالات الوعي كونه يدخل في كل عمل من أعمال العقل.

وإضافة إلى الشعور الموصوف أعلاه والذي يرافق حالات فيزيقية عامة، فهناك مشاعر تستحثها وتستحدثها أعضاء بعض الحواس. مثال على ذلك المتعة التي نحس بها عند مشاهدة منظر طبيعي بديع، أو مشهد رائع لغروب الشمس، أو صورة جميلة ، أو عند سماع ألحان شجية تحرك أوتار الشعور. وليس آخرا هناك مشاعر نختبرها بأفكارنا وتعرف بالمشاعر أو الأحاسيس العقلية أو المثالية. هذه المشاعر العليا تعرف بالعواطف.

المشاعر تكون إما ممتعة أو أليمة. وهاتان الخاصيتان هما وثيقتا الصلة بحالة الجهاز العصبي. فاللذة تنتج جراء الإحساس بفيض من القوة العصبية والطاقة. ولهذا السبب يستمتع الأطفال بالركض وبتمارين عضلية أخرى. وهذا يصح أيضا على الحيوانات (التي تحب النطنطة والبرطعة). فالحيوان يشعر بالمتعة عندما يتمكن من القيام بنشاط معين يتوق إليه غريزيا. فكل واحد يعرف كيف تستمتع القطط الصغيرة باللعب بالكرات

المتدحرجة. فغريزة الهرة تدفعها إلى تعقب فريستها والإمساك بها بنطة فجائية. والكرة المتدحرجة تقوم تلقائيا بتشغيل تلك الآلية الغريزية أو الغريزة الآلية.
المشاعر إذاً تقترن باللذة أو الألم. إضافة إلى ذلك فإن المشاعر والعواطف أيضا تتسم بالقوة والإيقاع والحدة. الحدة هنا تستعمل للدلالة على قوة الشعور أما الإيقاع فيستعمل لقياس طول وعمق الشعور. فالشعور بالغضب مثلا يصعد ثم يهجع تدريجيا (إلا في حالات الطبع الحامي المعروفة)، وهنا يشبه الشعور بزوغ الموجة على سطح البحر ثم هبوطها التدريجي وبالتالي تلاشيها.

ومما قيل في المشاعر:

المشاعر القوية لا تعنى خُلقا قويا، إذ قوة الإنسان تكمن في المشاعر التي يمكنه السيطرة عليها لا في المشاعر التي تسيطر عليه.
يجب أن نتعلم مراعاة مشاعر الآخرين إن كنا لا نريد أن تتأذى مشاعرنا. والذين يتظلمون ويتذمرون من إساءة معاملة الناس لهم هم أكثر الناس إساءة لمشاعر الآخرين.
الكلمة أو النظرة التي قد لا تترك انطباعا يذكر في بعض الأحيان، لها القدرة على جرح القلب وتمزيقه.
المشاعر تأتي وتذهب، لكن المبادئ تبقى ثابتة لا تتغير.
الفكر أعمق من كل الكلام. والشعور أعمق من كل الأفكار. أما القلب المخلص فهو كإبرة البوصلة من حيث توجهه الدائم نحو مجال الصدق والوفاء.

الأريحية – الإتزان – العظمة

ليست الحياة ألماً ولا لهواً بل سعي متواصل وعمل دءوب ينبغي التفرغ لأدائه بعزيمة ماضية وعقلية نيرة.
ليس هذا العالم الأرضي غير صورة لتلك العوالم الروحية في داخلنا، التي نطالع محاسنها بأبصارنا ونحس حقيقتها وديمومتها ببصائرنا.
الحياة هي فن استخلاص النتائج الكاملة من معطيات ناقصة.. وحياة كل إنسان هي حكاية بديعة الفصول خطّتها أنامل الله.

إن أفضلَ طريقة للتعامل مع الحياة هي مواجهتها بالتذمر والتوجس.
الحياة هي كمعزوفة موسيقية ينبغي تأليفها بالاستعانة بالسمع والذوق والغريزة وليس بموجب قاعدة محددة. ومع ذلك على المرء أن يعرف الأصول والقواعد التي غالباً ما تفضي إلى نتائج صحيحة.
ستعطينا الحياة ما نريد ما دمنا نواصل السعي في الحصول على مبتغانا بثقة لا تتزعزع وأمل لا يعرف التثبيط.
إن أنسبَ طريقة للتعامل مع الحياة هي التمتع بالفترة الزمنية الفاصلة بين الولادة والموت.
الحياة هي مدرسة عظيمة نتعلم في فصولها دروس التواضع والتضحية واحترام النفس.
مستحيل أن نتمتع بالحياة ما لم نحيا بحكمة وكرامة.. ومستحيل أيضاً أن نحيا بحكمة وكرامة دون أن نتمتع بالحياة.
الحياة العقيمة موتٌ مبكّر.
الحياة كمياه البحر التي لا يمكن أن تتنقى ما لم تصعد إلى طبقات الجو العليا.
من يستقل سفينة الحياة منتظراً الرياح كي تدفعها للأمام بدلاً من أن يدفعها بمجاديف الإرادة فقد تتحرك سفينته ولكن ليس من الضروري في الاتجاه المرغوب.
من العار أن نغادر هذه الأرض دون أن نترك أثراً طيباً في نفوس الغير.
الأريحية ترتكز على الفكر السليم وهي سمة النفوس الكبيرة والمشاعر الكريمة، مثلما هي التربة الخصبة التي تنمو وتزدهر فيها أشجار الفضيلة.
الأريحية التي لا تنضب هي من أعظم هبات الحياة. وهي كالزيت الذي يطفو على صفحة مياه الفكر المضطربة، فتحافظ على سلاسة وتوازن الفكر حتى في أعتى الظروف وأشدها قسوة.
الأريحية هي كالنحلة التي تستجمع الرحيق من كل نبتة تحط عليها، أما اللؤم فهو كالعنكبوت الذي لا يمتص سوى السموم حتى من أعذب الأزهار وأرقّها.
رقة الطبع ورحابة الصدر وكرم الأخلاق هي زاد الحياة الذي لا يمكن الاستغناء عنه ومواصلة العيش بدونه.
الإتـزان هو مجرد القشرة التي تحيط بجذع شجرة الحكمة، لكنها تصونها من كل مسببات الأذى.
الإفراط في الإتزان دليل على سخافة لا حاجة ولا مبرر لها.

يجب أن يكون الإتزان بسيطاً وطبيعياً ومعززاً باللطف والكياسة. لا ينبغي أن يكون المرء رسميا في كل المواقف لأن ذلك ضرب من الحماقة الثقيلة التي تعتبر أسوأ من الطيش والسخافة.
يجب أن يقترن الإتزان بالبشاشة حتى لا يتحول إلى سوداوية أو تنقلب البشاشة إلى تفلّت وابتعاد عن حدود اللياقة والمعقول.
العظيم هو من يختار الصواب بعزيمة ماضية ويقاوم الإغراءات الوضيعة فكرا وفعلا.. ويتحمل أثقل الأعباء بنفس رضية؛ محتفظاً بهدوئه في مهب العواصف النفسانية، ومتمسكاً بمبادئه وبثقته بالله والحق والفضيلة.
العظيم هو الذي يتأمل بدهشة صنائعَ الله
ويبدي اهتماماً صادقاً نحو الآخرين
ويحيا بتواضع فعلي، بعيدا عن المداجاة والمراءاة.
طالبُ العظمة يجب أن يطلب الحقيقة أولا وسيعثر على الاثنين معا.. النفوس العظيمة هي النفوس المليئة رقة وتعاطفاً وجدانياً نحو الآخرين.
لا يمكن أن يبلغ الإنسان قمم العظمة ما لم يدرك أن حياته هي له وللآخرين، وأن للمستحقين نصيباً في نِعم الحياة التي تتصل إليه.

الإلـــهام

ما مسّك النفادُ يا إلهام
ولا عرفتْ منابعُك الجفاف!
أنقارنك ببحيرات الجبال الصافية؟
أم نشبّه بفيضك الشلال؟
لو كان مصدرك الأرض لخضعت لنواميسها
ولحاقَ بك التغير والتبديل.
لكنك تنبثق من عنصر الوجود
وتتوارد على أبناء الحياة.
لولاك لجفت المواهب
ولو نطحت ناطحاتِ السحاب العقول..
ونقول:
أنت رسالة المبدع إلى من يستقبلها ويتقبّلها.
ولولاك لبقيت الأختام على البصائر والأبصار
وظلت آفاق الروح ملبدة بأكداس السحب.
فبوركتَ من مفتتٍ للأختام
ومبددٍ للضباب والغمام.

البحـــــر

ما أصفاكَ من مرآةٍ تعكس عظمة صانعك!
كأنكَ صورةٌ حية للبحر الكوني
الذي لا يغير جوهرَه الفرد التنوعُ والتعداد.
وهكذا تحافظ على كيانك موحّداً
بالرغم من صخب العواصف وتواثب الأمواج
على صدرك الرحيب.
لماذا وُجدتَ؟
ولأي شيء ترمز؟
وكأنني بك تهدر:
'لن تصيروا مثلي ما لم تمتلكوا الأريحية
وسعة الصدر.'
أو تقول بلغة البحار لمن يعي ما تقول:
'شتانَ ما بين اللجاجة واللجج
والغرور وعمق الغور.'
يا من تشهد لجلال صانعك!
إنك لتحمل وعدا بارتياد بحارٍ أوسع
ومعاينة شموسٍ أسطع.
وكأن وعدَك يقين
يستوجب الشوقَ والحين!

الطبيـــــعة

هي الكتاب الذي يدوّن فيه المبدع الخلاق روائعه
ويرسم على صفحاته تعبيرات فنه الإلهي.
فيها الجمال والتنوع العجيب
وإبداعات تشهد بأنها من نتاج العقل الكوني.
وفيها أسرار وخفايا لم ولن يتوصل الإنسان
إلى الوقوف عليها كاملة ما لم يتصل وعيه اتصالا تاما
بالوعي الكوني.
هي المتن المقدس الذي يزخر بآيات المعرفة والإدراك
والسِفر الذي مَن أحسنَ حلَّ رموزه
تمكن من فهم مقاصد السماء دون عناء.
التوافق مع الطبيعة يفضي إلى الانسجام مع الذات
ويفتح آفاقاً واسعة وسهلة الارتياد لمن يشتاق التوصل إلى البُعد الماورائي
حيث تيارات القوى والفرح الباطني المنعش والمجدِّد لملكات النفس.
الطبيعة هي همزة وهمسة الوصل بين الله والإنسان،
وهي المرجع الأصيل
مثلما هي الدليل
لقلب الحياة الأقدس.

الضـــرورة

هي الجرثومة الحية في بذرة التوسع وإطلاق قوى الإبداع
والباعث القوي على استقطاب وتصريف مواهب الإنسان
والمحرر لطاقات العقل من قيود التردد والخمول.
فمتى اقترنت بالتركيز والحكمة والإرادة
وصُبت في قوالب الاستقامة النظيفة
لا يدنو الفشل من ساحتها
ولا يقترب من مجالها الإحباط.
إن عَمل الذهن وقوة العزيمة
يَنشطان في انعدام التقلقل والارتياب
والتصميم الراسخ على بلوغ الغايات.
ومن يعتبر الضرورة الوسيلة إلى نيل مبتغاه
يدرك أنها العنصر الذي ليس عنه استغناء
لامتلاك ما لا يمكن إحرازه إلا بالاضطرار.

العين الثالثة تحت المجهر

(نشرت في العدد ٥١٧ من مجلة العربي)

رئيس التحرير..

طالعت في العدد (٥٠٩) أبريل ٢٠٠١ من مجلة العربي مقالا عن كتاب العين الثالثة بقلم لوبسانج رامبا، عرض: أحمد عمر شاهين، ونظراً لإلمامي المتواضع بهذا الموضوع، واحتراماً لمجلتنا الأثيرة العربي ولقرائها الأعزاء أحببت أن أدلو بدولي وأتطرق لبعض ما ورد في المقال الذي يبدأ بالعبارة 'حين نشر لوبسانج رامبا أحد أكبر الشخصيات الدينية في التبت...' وينتهي بـ 'إنها قصة حياة رجل دين من التبت وصل إلى أعلى المراتب الدينية...'

بداية أقول إنني طالعت كتاب العين الثالثة هذا في العام ١٩٧٠ عندما كنت مقيما آنذاك في كندا، وتبادلت الرسائل مع مؤلفه (الدكتور) لوبسانج رامبا، وقد أهداني صورة له وهو يحمل (بللورته العجيبة). وأذكر أنني فوجئت آنذاك لدى مشاهدة الصورة لأن صاحبها لم يكن له تقاطيع أو قسمات أهل التبت، بل بدا أقرب إلى الغربيين من حيث ملامح الوجه. عند ذلك تذكرت أنه ذكر في أحد كتبه أنه قام بنقل روحه من جسمه الأصلي (التبتي) إلى جسم شخص آخر. ولكي يفعل ذلك، حتم عليه السقوط من شجرة عالية، فوقع على رقبته وتم له ما أراد!

أما بالنسبة لعملية فتح العين الثالثة فقد تمت على يد مرشده الروحي (منجيار دندوب) على ما أذكر، الذي شق جبين لوبسانج ووضع في داخلها قطعة من الزجاج (أو من معدن آخر) مما أدى إلى انفتاح العين الثالثة بحيث أصبح صاحبنا من ذوي الجلاء البصري.

لم أقتنع بقصة أو قصص رامبا الكثيرة، فراودتني الشكوك حول شخصه وصرت أرتاب بمصداقيته، وقد توصلتُ إلى المعلومات التالية التي يقتضيني الواجب أن أذكرها هنا إنصافا لمجلة العربي ولقرائها الكرام:

في منتصف الخمسينيات، قامت مؤسسة سكر أند وربورغ وهي إحدى دور النشر المعروفة في بريطانيا بإرسال مخطوطة كتاب (العين الثالثة The Third Eye) إلى البروفيسور آجيهانندا بهاراتي الخبير في الدراسات الشرقية قصد التقييم وإبداء الرأي، ولدى قراءته بضع صفحات من المخطوطة تولد لديه انطباع جازم بأن المؤلف لوبسانج رامبا لم يكن من أهل التبت وبأنه لم يسبق له أن زار التبت أو الهند من قبل، وأنه لا يعرف شيئا عن البوذية على الإطلاق، فكل صفحة من صفحات المخطوطة تؤكد وتفضح جهل المؤلف

المطبق بالبوذية وممارساتها الفعلية. وبعد الإنتهاء من قراءة المخطوطة، أعادها إلى الناشرين ونصحهم بعدم نشر الكتاب لأنه تزوير للحقائق. وارتأى الناشرون الحصول على آراء أخرى من المختصين بشئون التبت وممن لهم معرفة وثيقة بهذه المسائل، فعرضوا المخطوطة على هيو ريتشاردسون الذي كان قد عاش في لاسا عاصمة التبت، وماركو باليس العالم والرحّالة الإنجليزي المشهور، وهينريخ هاربر الذي عاش أيضا في التبت لسبع سنين، فكانت آراؤهم متفقة وأكدوا للناشرين بأن الكتاب ملفق ومؤلفه شخص مخادع.

ولكن الاهتمام الأول للناشرين كان الربح المادي وليس مصداقية المؤلف، فنشروا الكتاب بالرغم من التقارير السلبية عنه، متوقعين مبيعات وأرباحاً كثيرة وقد تحققت توقعاتهم.

عند ذلك تطوع المستر ريتشاردسون والمحققون الحانقون في البحث عن مؤلف الكتاب وكشف هويته الفعلية، وقد أفلحوا في ذلك إذ تبين أن لاما التبت المدعو لوبسانج رامبا لم يكن بالفعل سوى المستر هوسنكس وهو إرلندي الأصل كان يعمل في تركيب أنابيب المياه والأدوات الصحية قبل أن يمتهن الكتابة، وأنه أمضى أوقاتاً طويلة في مكتبات لندن يطالع كتب الخيال العلمي. وهذا الاكتشاف نشر في الصحف البريطانية آنذاك وتم تنبيه أصحاب المكتبات حتى لا يتورطوا في الترويج للتزوير والخداع، مما حدا بدار نشر المطبوعات الشرقية الشهيرة إي جي بريل في مدينة ليدن بهولندا بإضافة ملحوظة إلى إعلانها مفادها أن 'الكتاب ليس دراسة أصلية عن البوذية أو التبت، ولكنه ممتع من حيث الاختبارات التي يعرضها.'

الموسيقى

تلك الظاهرة العجيبة التي تخفف الأحزان وتلطف ضربات الحياة، وتسكّن الآلام وتبدد غيوم اليأس وأشباح القنوط.

ما أروع الهالة الذهبية للراحة النفسية التي تغلف محبي الموسيقى الراقية الذين تتلامح أطياف السلام على وجوههم وتومض من عيونهم مشاعل التفاؤل والاستبشار!

الموسيقى هي أصداء الخليقة المنسجمة المتناغمة، وترجمة لأفكار وأحاسيس الملائكة. إنها وتر في قيثارة العازف الكوني الذي ينشد قدسية الحياة. وهي لحن خارج عن نطاق الزمن متى استضافته النفوس يغدو كائناً نورانياً متهادياً في ردهات الذاكرة وبين أروقتها، منبّها

الخواطر لحقائق قريبة بعيدة على قدر قرب المتناغمين منها أو بعدهم عنها.
الموسيقى هي إشادة صادقة بسمو الطيبة، وهي خميرة المحبة النقية للعواطف وإشراقة شمس مباغتة للأفكار. وهي أميرة بيان دانت لها ملكات الفصاحة وأرباب البلاغة.
هي تهذيبٌ للطباع وترقيق للمشاعر. عشاقها يشربون من جداول الفرح النقي وتبقى أنظارهم وتطلعاتهم مشدودة تلقائيا نحو الجانب المشرق من الحياة.
بأنغامها تغتسل النفوس من غبار المنغصات، وهي إكسير القلب الكسير وحرية الفكر الأسير.
إن القلب ليتشوق إلى تلك الأنغام السماوية مثلما تشتاق الورود الصادية لقطرات الندى البليلة!
ومن بين كل الفنون الجميلة، الموسيقى لها الأثر والتأثير الأعظم على أحاسيس الناس وعواطفهم. فالأناشيد المتوافقة تحرك خيوط الوجدان وترطب جفاف الفكر وتأتي بقطوف قلبية يانعة وفائقة العذوبة.
الموسيقى العذبة الراقية تيقظ فينا المشاعر الدافقة الدافئة وتلهمنا الخواطر السامية والدوافع النبيلة.
قيل أن ضرورات العيش ثلاث: الغذاء والكساء والمأوى... أفلا تكون الموسيقى الضرورة الرابعة؟
آه يا موسيقى الروح.. ويا رقصة الحياة البهيجة! يا طرب الأذن المثقلة بكلام هذه الدنيا المكرر المبتذل المعاد!
يا ركن الصداقة الوطيد ويا صولجان الروح السحري الذي يلاشي منغصات العيش ويبدد هموم الحياة!
ما أعذب تلك النغمات الحالمة التي تنسكب في المسامع انسكاب حبات الطل على الرياض المتناومة.. وتتضوع أنفاسها على جفنات الورود فتجمع أريجها الناعم وتهديه للأفكار والمشاعر الأثيرية الباحثة دوماً عن كل ما هو أرقى وأبقى!

روح الروحانية

لقد استقطب هذا الموضوع اهتماما كبيرا من المفكرين والمتفكرين ومن الناقدين والناقلين، ولا أخال أن أحدا يستطيع استقصاء كافة أبعاده واستهلاك كل جانب من جوانبه، لأنه موضوع دقيق وعميق، شاسع ومتشعب، وهو كجبل الجليد الذي لا يبدو منه سوى جزء بسيط في عرض البحر، إنما ما خفي أكبر وأعظم بما لا يقاس.

الروحانية، في رأيي، ليست بالضرورة مذهباً يعتنقه الإنسان بقدر ما هي قوى باطنية واعية وغير واعية توجه دوافعه وتحدد سلوكه وتوحي أفكاره وتقرر مكانته الأدبية والاجتماعية قبل الروحية.

وبما أن لي تجربة متواضعة في هذا المجال تمتد لعشرات السنين، أعتقد أن بإمكاني طَرق هذا الباب والتحدث عن هذا الموضوع بثقة ويقين. وهذه التجربة بالطبع لا تخولني احتكاراً للتحدث دون غيري عن هذه الأمور، فأنا أستفيد مثلما قد أفيد وأتعلم من تجربة الغير مثلما أتعلم من تجاربي الخاصة. وهذه السنين الطويلة في البحث والتجريب لا تختلف عن أي اختصاص تعليمي يضطلع به الآخرون فيتعلمون أسراره وما تنطوي عليه دقائقه.

ولم أتعلم ما تعلمته قصد تعليم الآخرين، لأنني ما زلت في طور التعلّم وكما قال أحد الحكماء (ما دمت على قيد الحياة فإنني طالب في مدرستها.) وما أكتبه هنا هو بمثابة حديث ودي بين أصحاب، حيث لا وعظ ولا تعليم ولا مفاخرة. وقد يفاجأ البعض إن تطرقت للموضوع من زاوية تختلف عن الفهم السائد لهذه المسائل، وسأحاول التبسيط قدر الإمكان ووضع النقاط على الحروف منعا للالتباس وتلافيا للخلط الذي نراه أو نسمعه في أكثر من وسيلة.

لقد رأيت المئات وربما الألوف عبر السنين ممن وضعوا أقدامهم على «الطريق الروحاني» وساروا لمسافات قصيرة أو طويلة، لكن ظروف حياتهم أو أسباب أخرى استنفدت حماسهم تدريجياً وأوهنت عزيمتهم فانثنوا عن الطريق، أو ساروا باتجاه آخر محتسبين أنهم ما زالوا في نفس المسار لكن ليس بموازاة الطريق الرئيسي.

الروحانية بسيطة في مبادئها وواضحة في اتجاهاتها ورحبة في دروبها ما دامت تلك الدروب مستقيمة وموصلة إلى الغاية التي يسعى إليها الجميع. وكل إنسان باستطاعته أن يكون روحيا ويرضي أشواقه لآفاق بعيدة وقريبة في آن. ولا يتحتم على المريد الروحي أن يغير نمط معيشته أو أسلوب حياته ما دام يتمتع بقلب طيب ونوايا سليمة وعقل رزين وضمير يقظ. وهذه الركيزة الرباعية هي الأساس الراسخ الذي لا غنى عنه لهرم الحياة الناجحة، ومن يمتلكها يكون على الطريق الروحي سواء علم ذلك أم لم يعلم.

لقد عرفت أناساً كانت حياتهم الظاهرية مدموغة ومدبوغة بما ظنوه روحانية، وكانوا قمة بل موسوعة شاملة في البلاغة الروحية ومع ذلك كانوا بعيدين جداً عن غايتهم لأن حياتهم الداخلية لم تكن مطابقة لنهجهم الظاهري.

بل أن بعض أولئك بلغ درجة تقليدية عالية في الروحيات وجمع حوله أتباعاً ومريدين بأعداد كبيرة، إنما الثمر الروحي الفعلي كان هزيلا وبالنهاية اكتشف الأتباع والمريدون أنهم (طلعوا من المونة بلا حمّص).

الروحانية ليست سلعة تباع ولا محاضرة باهرة تلقى على من يصفق ويقول (الله! الله!)، ولا هي إدعاء وتصنّع بما ليس في الإنسان، ولا هي شهادة تعطى من شخص لآخر... كما أن الروحانية لا تحتاج إلى تطبيل وتزمير وسحجة ودبكة وأضواء ساطعة شبيهة بالأضواء الراقصة المهتزة لحفلات آخر زمان.

والروحانية ليست وعظاً ولا حديثاً ينبغي طرقه بمناسبة أو غير مناسبة وفرضه على السامعين أو القارئين فرضا. الروحانية أولا وقبل كل شيء مسألة شخصية بين الإنسان وخالقه. ومن يعرف واجبه وما له وما عليه في هذه الحياة لن تحرمه الحياة من كنوزها. وعندما يمتلك المؤهلات الأساسية التي هي في متناول الجميع سيجد أن المرحلة التالية قد فُتحت أبوابها أمامه وأنه يدخل رحاب تلك المرحلة الجديدة من بابها الواسع بصورة منطقية وطبيعية كما لو كان يمر بأية تجربة عادية أخرى في الحياة.

عندما قلت أن الروحانية لا تحتاج إلى التطبيل والتزمير فقد قصدت بذلك أن بلوغ الحالات الروحية المتقدمة يلزمه السكينة والهدوء وسأعطي مثالا على ذلك:

محافظة السويداء بسوريا مشهورة بأعنابها وتفاحياتها ذات الجودة العالمية العالية، وهذه الثمار المباركة تمر في عدة مراحل ابتداءً من الإزهار وانتهاءً بالثمر الشهي الناضج، ومع ذلك لا يوجد إنسان واحد يستطيع القول بأنه سمع مرة واحدة صوت النمو مهما كان دقيقا، بل كل مراحل النمو تحدث بصمت تام وكأن الطبيعة تنجز أعظم أعمالها وأكثرها نفعاً في سكينة مطلقة. وحتى الشمس الجبارة بأشعتها الكونية المنبثة في كل اتجاه لا نسمع لها صوتا مع أن وجود الحياة على هذه الأرض يعتمد عليها اعتمادا كليا.

وهذا ينطبق أيضا على النمو الروحي الذي يلزمه التفكير العميق الهادئ في ذات الإنسان والغوص بتركيز دقيق في محيط النفس بحثاً عن الكنوز الموجودة في باطن الإنسان والتي ينبغي الكشف عنها والعثور عليها.

قلت أن الروحانية هي مسألة شخصية، وهذه الخصوصية يلزمها مجهود ذاتي واجتهاد باطني لبلوغ حالات من الطمأنينة والفرح. ومتى تمكن المريد من ملامسة تلك الحالات سيرضى بما يكتشفه في ذاته وتقل رغبته في الكلام عن هذه المسائل لأنه يجد أن الكلام

يستنزف ويستنفد طاقته ويبعده عن الصيد الثمين الذي أمسك به في غابة الوعي أو في بحر الروح إن شئتم.

طبعاً لكل واحد الخيار في السير في الطريق الذي يناسبه ويرضي أشواقه، ولا يمكن القطع هنا بأن طريقا ما هو أفضل من سواه إلا بمقدار خلو ذلك الطريق من العوائق والمشتتات وكونه على خط مستقيم مع المقصد النهائي.

إن من يرغب في الوصول إلى مكان محدد يواصل السير حتى يبلغ غايته وهذا تحصيل حاصل. آخرون أيضا سيصلون إلى مقصدهم حتى ولو تمشوا على مهل ودردشوا وخرجوا عن الطريق للتجول في الحقول والبساتين وملاحقة طير هنا وطريدة هناك، لكن بالتأكيد سيلزمهم وقت أطول، ولا بأس من ذلك ما دام الإنسان أمامه الأبدية ويمتلك الحرية في صرف وقته وطاقاته بالكيفية التي يريدها هو لا ما يريدها الآخرون له.

أعود وأقول أن الروحانية هي ارتقاء طبيعي وتقدم تلقائي، وبالطبع يمكن تسريع ذلك الارتقاء والتعجيل بذلك التقدم ما دام الشخص يمتلك مؤهلات تخوله ممارسات موصوفة ومعروفة سلفا من قِبل الذين ساروا على الدرب وبلغوا المحجة. إنما تبقى الأساسيات المحورَ الجوهري الذي لا يمكن التقدم خطوة واحدة بدونه. وبالأساسيات أعني الصدق والأمانة والنوايا الطيبة والحياة النظيفة البعيدة عن الزيف والتزييف وعن النقص والقنص والإدعاء بما لا يمتلكه الشخص في ذاته.

هذه بعض انطباعات وإضاءات عن روح الروحانية، حسبما تبدو لي، أضعها أمام القارئ الكريم بكل مودة واحترام.

جولة في رحاب الوعي

بين الحين والآخر نسمع عبارات مثل: (أكبر منك بشهر أوعى منك بدهر) أو (أوعَ – أي إياك – تعمل كذا أو تتصرف هكذا) أو (منذ وعيت... إلخ) وكلها تشير إلى الدراية بالشيء والتنبه له أو التنبيه إليه، مما يقتضي فعل أو تفعيل ملكة التذكر والإحاطة الواعية بأحداث مرّت أو ما زالت تحدث أو على وشك الحدوث.

عملية الوعي هذه هي طبيعية وملازمة لكينونة الإنسان بحيث يغفل عن ملاحظتها والوقوف عندها أو التفكير بها لأنها من المسلّمات عنده لا تختلف كثيراً عن أي فعل أو رد فعل، بل عن أي وظيفة أخرى من وظائف الجسم أو العقل.

فإن كان الوعي ووظائفه من الأمور العادية والطبيعية فلماذا التركيز عليه واعتباره ركيزة حتمية أو غاية لا غنى عن بلوغها في مرحلة ما من مراحل التطور والإرتقاء؟

كل واحد يفكر ويدرك ويخطط ويميز الأمور بدرجات متفاوتة. وكل إنسان قادر على التفكير والسعي يعرف ما يريد ويسعى لتحصيل احتياجاته وتأمين متطلباته بطريقة أو بأخرى. كل ذلك يحدث عن طريق عمل ذهني يقظ أو نشاط عقلي موجّه، أي بكيفية واعية. وسواء كان التفكير سليماً أو سقيماً.. وسواء كان العمل مشروعاً أو ممنوعاً.. فإن عملية الوعي تحدث في كلتا الحالتين إنما المفارقة تكمن في توجيه الطاقة الفكرية والجسدية إما في الاتجاه المضبوط أو في المسار المغلوط.

وهذه القوة المفكرة أو الوعي غالباً ما تتحكم بدوافع المرء وتوجهاته، وفي أكثر الأحيان تقرر السلوك وتبرره حتى وإن كان لا ينسجم مع طبيعة الإنسان الفطرية ولا يتماشى مع الخطوط العريضة والواضحة التي هي بمثابة علامات على الطريق للنفوس المؤمنة بأن الدرب الصحيح مأمون العواقب حتى ولو قامت في وسطه الحواجز هنا وهناك، وأن الطريق المغلوط هو أشبه ما يكون بقفزة في الظلام، وما أدراك بقفزات الظلام غير محسوبة العواقب، حتى ولو بدا الطريق سهلا ممهدا ورحيبا؟!

لا أظن أننا ابتعدنا عن مسار الوعي بهذه المداخلة الأخيرة، لأن كل ما يصدر عن الإنسان هو ضرب من ضروب الوعي الحاضر دائماً وأبداً في كل مظهر من مظاهر ذلك الإنسان. ففي اليقظة هو وعي أو عقل واع، وفي النوم هو وعي باطن، وهناك وعي آخر هو وعي الروح السامي وهذا بيت القصيد. وقد تكون هناك حالات أرفع من هذا الوعي السامي، وقد عرفنا أنها موجودة فعلا لكن أربابها قلة قليلة على وجه الأرض، ولا فائدة من التركيز عليها والتحدث عنها ما دمنا لم نتوصل بعد إلى الوعي السامي الذي هو أرقى وأدنى مراحل التقدم الروحي في نفس الوقت. وكيف ذلك؟

هو أرقى من حيث تقدمه على الإدراك العادي التقليدي الذي كلنا نحس به ونعرف ماهيته. وهو أدنى من حيث كونه المرحلة الأولى لما بعده وفوقه من مراحل تحدّث عنها الأنبياء وأقطاب الروح الراسخون في الحقائق والمستويات العليا. أما إن رحنا نتحدث عنها ونصفها كما لو كنا نعيشها فنكون كالقرعة التي تفاخر بشعر ابنة خالتها، أو كذلك الأجرودي الذي ما فتئ يفاخر بلحية جده التي كانت مضرب المثل أيام زمان! هذا لا

نريده لأنفسنا، وهناك أمور أكثر إلحاحاً من تلك المفاخرات وأدنى لاحتياجاتنا وظروفنا اليومية من التغزل بدرجات من الوعي لم نبلغها وقد لا نكون لمحناها أو عرفنا شيئا يذكر عن طبيعتها.

أعود للوعي السامي الذي هو أقرب المراحل التي يمكن للراغب المريد أن يلامسها ويدرك بالبصيرة أنه تمكن من التوصل إلى بُعد جديد موجود فعلا بالرغم من قلة العارفين بوجوده، المقتربين من حدوده. وهذه المرحلة السامية هي ما تمس الحاجة إليها ومعرفة ماهيتها.

وبلوغ تلك المرحلة لا يتوقف على تضحيات ضخام أو قفزات نوعية جبارة أكثرها في دنيا الخيال، أو سماع أصوات معظمها نابع من الوعي الباطن الذي يعج بكل ضروب الأوهام، أو مشاهدة رؤى بعيدة عن الواقع وعن الروحيات بعد الثريا عن الثرى.

وما قد لا يعرفه الكثير هو أن تلك المرحلة السامية التي قلنا أنها أولى مراحل التقدم الروحي الفعلي مرتبطة ارتباطاً وثيقا بالروح الكلي، مما يعني أن التوصل إليها ولو جزئيا هو خطوة نحو الوعي الإلهي. وهذا الوعي الإلهي أو الكوني لا يمكن ملامسته ما دام هناك حركة واحدة في الجسم أو الفكر، وهذا هو التحدي الأكبر. وجميع الذين سعوا لبلوغ تلك الغاية وتقدموا مرحلة أو مراحل على الطريق تحتم عليهم ممارسة رياضات نفسية وبدنية معقولة لوقف سيل الأفكار الذي لا ينقطع والتقليل من الحركة البدنية إلى أقصى درجة ممكنة.

ومع الممارسة المتواصلة والرغبة القوية في ارتياد البعد الرابع تحدث ومضات تشجيعية يرافقها إحساس فوري من الغبطة أي الفرح الشديد يتخلل كل نسيج وكل خلية وكل ذرة من ذرات الجسم، بحيث يدرك الممارس أنه بالفعل حصل على اتصال روحي لأن ما يحس به في عقله وجسمه معا هو شعور حقيقي مستحيل أن يلعب الخيال فيه أدنى دور.

ومع تلك الومضات قد يتمكن المريد أيضاً من سماع الصوت المبارك الذي يغسل ما بالنفس من شوائب ويغمر القلب بالسلام والطمأنينة، فتصفو البصيرة وتدرك يقيناً أن المستويات العليا حقيقة واقعة وأن هناك طرقاً للتوصل إليها والترسخ فيها.

ومع كل هذا وذاك نبقى متصلين في هذا العالم، إذ هناك واجبات تنادينا والتزامات تلح علينا وأعمال وإنجازات تنتظرنا. ولا تعفينا الحالات الروحية التي قد نتوصل إليها من القيام بواجباتنا التي لا يمكن تخطيها أو تجاوزها، لأننا إن حاولنا ذلك فلن نتمكن من بلوغ تلك الحالات التي ليست من نصيب البارعين في إلقاء المحاضرات الروحية بقدر ما هي في

متناول الباحثين الجادين عن أمور أنقى ووعي أرقى وكنوز أبقى من كل ما في هذه الدنيا.

أسرار عالم الآثار : قصة واقعية

حدثت وقائع هذه القصة في مطلع السبعينيات من القرن الماضي. ففي إحدى الأمسيات قام أحدهم بتعريفي على المسز ووكر، وهي سيدة كندية في العقد السادس أو السابع من عمرها، تبدو عليها علامات اللطف والرزانة والوقار. قالت لي بعد التعارف:

أخبرني أحدهم أنك ستكون هنا هذه الأمسية وبأنك تعرف العربية ولذلك جئت لأتعرف عليك ولكي أسألك فيما إذا كان بالإمكان أن تترجم لي رسالة من العربي إلى الإنكليزي.

قلت لها: بكل سرور. وبالفعل أخرجتْ رسالة من حقيبتها عليها طوابع إحدى البلدان العربية، فرحت أترجمها لها إلى أن قرأت عبارة 'حرمك المصون والأولاد يسلمون عليك وينتظرون عودتك.'

قالت: هكذا فعلا؟ حرمك المصون؟ أجبتها: نعم، وقد تغيّرت ملامحها على الفور وبدا الحزن واضحاً على محياها، بل راحت تغالب دموعاً ترقرقت في عينيها. سألتها عن السبب فقالت: لا أستطيع الآن أن أخبرك بالقصة، إنما أريدك أن تزورني في منزلي الواقع على شارع لوزان بمدينة وندزر، ثم عرضت عليّ مبلغاً لقاء الترجمة فاعتذرت عن قبوله وودعتني على أمل زيارتها كي أسمع حكايتها.

بعد أيام ذهبت لزيارتها فاستقبلتني بالترحاب وبعد أن قدمت لي فنجاناً من الشاي الشرقي قالت أشعر بالحاجة للتحدث إليك عن مسألة تهمني وتأرقني لعلني أستطيع أن أزيح هماً جاثماً كالجبل على صدري. قلت لها خذي حريتك، وتحدثي بكل راحة وصراحة.

قالت: منذ حوالي السنة ذهبت مع بعض الأصدقاء في سياحة لإحدى الدول العربية. وهناك تعرفت على عالم الآثار الدكتور (فلان) فرحب بي وعمل كمرشد سياحي لي أثناء إقامتي في بلده. التقينا عدة مرات أثناء وجودي هناك، ثم ودّعنا بعضنا كأصدقاء وسافرت بعد أن تبادلنا العناوين.

كتبت له من هذا البيت بالذات بعد عودتي إلى كندا وشكرته على حسن صنيعه ومعاملته الطيبة، فجاوبني برسالة تلتها أخرى ثم أخرى، ورحت أحس بمشاعر خاصة نحوه، وهو كذلك راح يلمّح تدريجيا عن أحاسيسه نحوي، إلى أن بادلني مشاعر الحب في إحدى رسائله فبادلته مثلها، وهنا ابتدأت القصة.

بعد ذلك بقليل دعاني للعودة إلى بلده في زيارة خاصة وكنت بالفعل متشوقة للقائه ثانية وقد شعرت بأن ما يجمعنا أصبح أكثر من صداقة، إنه الحب. وصلت إلى بلده وكان في المطار بانتظاري، فرحب بي وأخذني إلى مكان إقامتي المحجوز، وبعد فترة قصيرة عرض عليّ الزواج وقد كنت أرملة آنذاك فوافقت على أن يتم ذلك شرعاً بحسب القوانين المعمول بها في بلده.

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى المكلف بتحرير عقود الزواج وحضر شاهدان وتمت الطقوس التقليدية التي لم أفهم منها شيئا، وعند نهاية العقد تسلمت ورقة باللغة العربية قال لي أنها عقد الزواج، احتفظت بها في حقيبتي، وهكذا تزوجنا. وبعد فترة وجيزة بحثت عن عقد الزواج فلم أعثر عليه وكأن يداً امتدت إليه وسحبته من الجزدان (مِلحة وذابت.) مع ذلك لم أشأ تعكير صفونا فرغبت في أن تؤخذ لنا صورة قران تذكارية لعلني أستعيض بها عن وثيقة الزواج المفقودة فوافق على ذلك.

ذهبنا إلى المصور وتصورنا لكن على حدة، إذ أصرّ زوجي على أن تكون صورنا منفردة وليست مزدوجة. لم أجادله في ذلك منعاً لتعكير الجو وأخذت لنا الصور، وهذه هي صورتي وهذه هي صورته. (وبالفعل رأيت صورة (عالم الآثار) الذي بدا في العقد السادس من عمره، أصلع الرأس ذا عينين كبيرتين يبصر المدقق فيهما فصولاً من الغدر والنصب والإحتيال.)

تابعت المسز ووكر حديثها قائلة:

كنت في غاية السرور وعدت إلى كندا بمفردي لأن زوجي الجديد لم يتمكن من مرافقتي بسبب بعض المعاملات. وفور عودتي عملت على إتمام معاملات السفر له وأنجزتها خلال فترة قياسية. وفعلاً حضر إلى كندا إلى هذا البيت، وعاش معي فترة من الزمن كنت أصرف عليه وأقدم له كل ما يحتاجه، بل سعيت له مع إدارة جامعة وندزر لترتيب سلسلة من المحاضرات كي يلقيها ويتقاضى عنها أجراً.

ومع مرور الوقت راح يطلب مني مبالغَ من المال قال أنه بحاجة إليها قدمتها له عن طيب خاطر إلى أن فاقت طلباته إمكانياتي ولم أعد قادرة بالفعل على تلبية مطالبه، فما كان منه إلا أن تركني دون أن يودعني وذهب إلى مقاطعة أخرى وبعث لي بهذه الرسالة. (وفعلاً أطلعتني على رسالته التي أرسلها لها بالإنكليزية وفيها عتب شديد على المسز ووكر لأنها لم تقم بواجبها خير قيام نحوه، وكان ينبغي عليها أن تضحي من أجله بصفته زوجها إلى ما هنالك من هذا الكلام الفارغ.)

واستطردت المسز ووكر:

وكانت ابنتاي المتزوجتان قد تعرفتا عليه لكنهما شعرتا بنفور نحوه ونصحتاني بتركه وشأنه لأنه بدا لهما طفيلياً بامتياز، لكنني لم أسمع كلامهما وفضلت معاملته كزوج لي.

ومنذ بضعة أيام أتت هذه الرسالة إليه من بلده، وقد شعرت برغبة قوية لمعرفة محتوياتها، ففتحتها ووجدتها مكتوبة بالعربية، فحاولت العثور على من يترجمها لي، إلى أن قيل لي أنك ستكون موجوداً في مساء اليوم التالي في المكان الفلاني على شارع أولات فأتيت وتعرفت عليك ولما سمعتك تترجم عبارة 'حرمك المصون وأولادك الأعزاء يسلمون عليك وينتظرون عودتك' هبط قلبي وتألمت لزوجة (زوجي وأولاده) أكثر بكثير مما تألمت لنفسي، ولم أكن أتصور إطلاقاً أن هذا النوع من الخداع يحدث في ذلك البلد الذي أحببته وأحببت أهله، ولست حاقدة على ذلك الرجل الذي ارتبطت به بالزواج رغم ملعوبه الخسيس الذي لم أتوقع إطلاقاً أن يحدث لي يوما ما، والذي لا يليق بالرجولة وشرف الرجال في أي بلد من بلدان العالم.

أثقل وأثمن من الذهب والألماس

كنت قد حدثتكم عن أثرة رجل الآثار، والآن سأحدثكم عن مأثرة تستحق الذكر والاعتبار.

في منتصف الثمانينات طالعت في صحيفة ديترويت نيوز Detroit News أو ربما صحيفة ديترويت فري برس Detroit Free Press خبراً فريداً من بابه ونادر الحدوث، ومعه صورة لشخص إسمه دجاري كروت Jerry Kroot رئيس مجلس إدارة فولاند Foland كبرى شركات المجوهرات في مدينة صاوثفيلد، ميشيغن وهو يسلّم تحويلا مالياً لجون ماتز John Matz، وما أدراكم ما جون ماتز!

وما أن قرأت النبأ حتى قمت بقصّه وإلصاقه على الغلاف الداخلي لقاموس أكسفورد الذي كنت أستعمله على أساس يومي، لكي يكون مذكّراً دائماً لي بأن الدنيا لا تخلو من أغنياء النفوس وأولاد الحلال. هذه الصورة بالذات هي الآن أمامي وقد لوّحت السنون لونها فمازجته صفرة. أرى الآن جون في الصورة واقفاً باعتدال وقفة عز وكرامة وعلى محياه ابتسامة توحي بأن هذا الرجل حقاً نظيف، أمين، ونقي السريرة. أما شارباه السابلان فيذكرانني بالشوارب الشريفة التي ترف شهامة وإباءً والتي يلمسها أصحابها أحياناً عند التأكيد على الإلتزام بوعد أو المحافظة على عهد.

صاحبنا جون ماتز كان عاملاً في إحدى المصانع، يسري مع الفجر إلى عمله ويكسب لقمة عيشه بتعب يمينه وعرق جبينه. وذات صباح باكر وجد في الشارع حقيبتين اثنتين عليهما إسم شركة فولاند، كانتا على ما يبدو قد وقعتا من سيارة. فتح إحداهما وإذ بها مليئة بالمجوهرات، فأغلقها وقصف عائداً إلى بيته ووضع الحقيبتين في ركن آمن من البيت وانطلق ثانية إلى عمله.

ولدى عودته من العمل اتصل بشركة فولاند التي كانت قد أعلنت نبأ فقدان الحقيبتين وتخصيص مكافأة مالية مجزية لمن يعيدهما إليها. فما كان من مندوبي الشركة أن توجهوا على الفور إلى بيت جون وطلبوا منه مرافقتهم إلى مقر الشركة حيث كان رئيس مجلس الإدارة ووسائل الإعلام في انتظاره.

وما أن وصل جون إلى الشركة ومعه الحقيبتان (اللتان تحوي كل منهما على قطع مجوهرات تتراوح قيمة الواحدة منها ما بين ٢٠ إلى ٢٠٠٠ دولار) حتى راح المصورون يأخذون صوره والمراسلون يوجهون إليه الأسئلة . أما جوابه فقد كان بسيطاً وهكذا بالحرف الواحد:

I guess my folks brought me up right. I have no use for someone else's jewelry.

(أعتقد أن أهلي ربوني تربية حسنة فلا حاجة بي إلى مجوهرات الغير.)

بعد ذلك ناوله المستر كروت تحويلاً مالياً مكافئة له على أمانته فتقبّله منه مالاً حلالاً وبسمة الرضا تعلو محياه النبيل. وقد تناقلت وسائل الإعلام هذه الواقعة النادرة التي تثبت أن الدنيا ما زالت بألف خير وأن الطيبين هم الخميرة الصالحة في كل مجتمع.

فكثّر الله من أمثالك يا جون ومن كل أغنياء النفوس أينما وجدوا في دنيا الله الواسعة. وها أنا أروي قصتك بلغتي لأبناء وطني بعد مضي أكثر من عشرين عاماً على مأثرتك البطولية التي تركت أطيب الأثر في نفسي لدرجة أنني بين الحين والآخر أنظر إلى وجهك المشرق في الصورة وأردد بيني وبين نفسي:

حقـاً في الدنيـا أنـــاس
أثقل وأثمن بما لا يُقــاس
من الذهـــب والألمـــاس.

تقييد التعقيد أو الوساطة إلى البساطة

'الله الجوهر الفرد هو بسيط وكل ما عداه معقد'

هذه الكلمات وجّهها ذات يوم أحد الحكماء الفلاسفة إلى تلميذه المريد.

وفي هذا القول معلومة مفيدة وحكمة سديدة، مثلما تحمل في تضاعيفها إيحاءً ضمنياً عن الله وتشجيعاً أكيداً لكل من يرغب في البحث عنه والتعرف عليه.

ولعل فكرة البساطة هذه تختصر المسافات وتقرّب البعيد، وتؤكد للمريدين بأن الحق المجرد المطلق ليس بعيداً عن تجربة أي إنسان ما دامت الرغبة في التجربة قوية، صادقة، ويغذيها الشوق.

وسأضرب هنا بعض الأمثلة عن التعقيد والبساطة قبل أن أخلص إلى الإستنتاج الأخير.

لنأخذ وردة الجوري كمثال أولي. فهذه الوردة التي تستطيبها حاسة الشم لرائحتها الزكية ويروق للنظر منظرها البهيج، بل أن بتلاتها الندية الرقيقة تبعث إحساساً لطيفا في النفس لدى ملامستها، هي معقدة وبسيطة في نفس الوقت ولكن مظهرها البسيط ورائحتها الطيبة هما ما يهم الناس أولاً وأخيرا.

الوردة شديدة التعقيد من حيث تركيبها ابتداءً من البذرة أو الجذر وانتهاء بتلك الزهرة البديعة التي هي من أجمل وأرق مظاهر الحياة. وعندما ننظر إلى وردة متفتحة وفواحة لا ينشط بنا حس التحليل والتعليل ولا نستنجد بقوانا العقلية كي تشرع في التفكير بكيفية تكوينها ومعرفة أي الفصائل تنتمي إليها وما هي الآفات التي قد تتعرض لها وتفتك بها، أو ما هي أنسب الطرق لزراعتها والمسافة التي ينبغي مراعاتها بين كل نبتة ورد وأخرى، أو كيفية نقل حبوب اللقاح إلى المياسم والتطعيم البرعمي للبادرات، أو كيفية زرع الورود من العُقل، وما إذا كانت التربة الطموية مناسبة للورود الهجينة.. إلى ما هنالك من فلسفة تحليلية في غير محلها.

عندما نرى وردة نتعامل معها ببساطة تامة، فنهشّ ونبشّ لها ونستمتع بجمالها وأريجها، وقد نتذكر مبدعها ونقول: سبحان الخلاق العظيم!

وما ينطبق على الوردة الجورية ينطبق أيضا على أية ثمرة من الثمار، ولنختر هنا ثمرة التين المباركة الوارد ذكرها في القرآن الكريم. فعندما ندنو من شجرة تين ونرى تلك الفاكهة الشهية الناضجة، لا ننهمك بالتفكير في أي مناخ تنمو، وما يناسبها من حرارة أو رطوبة، ولا كيفية نمو التين الجوي أو التين البري الذي تقوم الدبابير الصغيرة التي تعيش فيه بتلقيحه، ولا نفكر أيضا بطريقة شحن التين وتسويقه وما إلى ذلك.

في تلك اللحظات التي نقترب من دانيات قطوف التين البشاري الأبيض أو الأحمر أو الأسود ونفرح لمرأى الأكواز الأحلى من سكر الأهواز (بتعبير المتنبي)، فنقطفها ونتلذذ بطعمها الرحيقي، غير مبالين بالجانب العلمي المتصل بالتين، إذ أن أفكارنا وحواسنا تكون محصورة بالتلذذ بالتين ليس أكثر.

ومثال آخر عن البساطة (لا سيما في الروحيات) هو العلاقة الحميمة بين الأهل والأحباب والأصدقاء. فعندما نتحدث مع صديق لا يخطر في بالنا إقحام كلام أو مفاهيم معقدة، بل نسعى جهد المستطاع إلى التبسيط الذي هو أنسب الطرق للتناغم والتفاهم بين الأصحاب. والأهل الذين يتحدثون إلى أبنائهم يفعلون ذلك بكل بساطة وعفوية.

طبعاً لا أنكر أن هناك مسائلَ في غاية التعقيد ولا يمكن التوصل إلى نتائج عملية محددة دون المرور بعمليات معقدة وبعيدة كل البعد عن البساطة. مثال على ذلك الفضائيات التي تدخل في صناعتها أساليب في منتهى الدقة والتعقيد، وقد لا يستوعبها الإنسان العادي، ومحسوبكم منهم، ولكن غير مطلوب من مشاهد تلك الفضائيات معرفة الكيفية التي تنتقل بها الصورة من المصدر إلى المتلقي، بل يكفي أن يستمتع المشاهد بما يراه من صور ويسمعه من أصوات.

هناك قصة طريفة ربما سمعتموها عن ثلاثة أشخاص كانوا يعملون في الحقل، وعندما حان وقت الغداء وضع كل واحد غداءه (زوادته) أمامه فاختار اثنان منهم التفلسف واستعمال المنطق الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فقال أولهما الذي كان غداؤه مكوناً من بصلة ورغيف خبز لا غير: خبز وبصل مأكول الأصَل (بضم همزة الألف في الأصل). وقال الثاني الذي لم يكن معه سوى رغيف خبز وماء: خبز وماء مأكول العلماء! أما ثالثهما الذي كان غداؤه دسماً وغنياً بالأدام الفعلي من جبن وسمن وزيتون وربما مكدوس وزبيب مطبوخ أو مغلي بالدبس وخيرات الله! فقال معلقاً على ما سمعه من رفيقيه: (كله فلاس من قلة الغماس) أي كله كلام في كلام من قلة الأدام! وقد جبر بخاطرهما إذ وضع زاده أمامهما فشاركاه وشاركهما في طعامه الشهي والمغذي.

وهنا يتبادر إلى ذهني اثنان: فيلسوف وقديس. أما الفيلسوف فهو برتارد رسل وأما القديس فهو فرنسيس الأسيزي. ولنبدأ بالفيلسوف الذي طبقت شهرته الآفاق وله المؤلفات الضخمة والكثيرة ويُعتبر صاحب نظريات معروفة ولها وزنها في عالم الفلسفة مع أنني لا أعرف كثيراً عنها، فقد وجّه همه وكل طاقاته الفكرية في اتجاه فلسفي بحت.

وكأنه جاهد طوال عمره لإقامة الحجة وإثبات الدليل على صحة نظرياته، وحتى أنه تجرأ على انتقاد السيد المسيح لأنه توقع أن يأكل تيناً من شجرة التين في فصل الربيع.

وعاش رسل عمراً مديدا تركت السنون خلاله في وجهه أخاديدَ من يتفحصها بمجهر البصيرة ويسلط عليها نور الإدراك يعرف أن ذلك الإنسان أضاع الكثير من حياته عبثاً كمن يحرث في البحر أو يأمل في الشراب من السراب. رحمه الله ولا يسعنا إلا أن نقول له (محسوبة لك! وصلت فزعتك يا حضرة الفيلسوف!)

أما القديس فرنسيس فقد كان غاية في البساطة. كان بسيطاً في أسلوب حياته وفي تفكيره.. بسيطاً في تعامله مع الناس وفي صلواته وعباداته وكل أعماله تماماً كالدراويش على باب الله. هذا القديس الذي وعظ في القرن الثاني عشر في حضرة الملك الأيوبي السلطان الكامل الذي أعجب به وأوصى به خيراً يعتبر اليوم من عظماء الأرض. ولولا بساطته لما استمال إليه القلوب التي يسكن الملايين منها اليوم مثلما سكنها ضيفاً مرحباً به منذ مئات السنين.

طبيعة الطبيعة

الطبيعة هي إسم لظاهرة إلهية منبثقة عن عقل الله الكلي. الطبيعة لا تمنح أسرارها عبثا ولا تجود بعطاياها الذهبية لمن اعتادوا الكسل والخمول والعيشة المنعمة، لكنها تفرض أعمالاً وواجبات قبل أن تمنح فرصاً ومناسبات لمستحقي الإرتقاء بالروح والإطلاع على أسرار الوجود. فالتفاحة التي ألقت بها فوق رأس أو عند قدمي نيوتن كانت بمثابة الدعوة لكي يتتبع مسارها إلى النجوم البعيدة في الفضاء السحيق. حاشا أن تتخلى الطبيعة عن الحكماء وأنقياء السريرة.

الطبيعة والإلهامات القدسية هي بمثابة كتب الله المباركة التي تحتوي على خفايا وأسرار لكنها مدونة بلغة بسيطة وسهلة الفهم لكل من يقرؤها. من يتمكن من مخاطبة الله قلباً وعقلاً عن طريق الطبيعة يجد في مظاهرها معيناً لا ينضب من القوة والسعادة. إن أسمى غاية يمكن أن يطمح إليها الإنسان هي الاقتراب من خالقة، وهذا يمكن تحقيقه عن طريق احترام الطبيعة والتناغم معها وقراءة فصولها بدقة وانتباه لأن كل سطر يحوي معانيَ تلوها المعاني، فتتحول جدران هذا السجن الأرضي إلى بوابات سماوية. الطبيعة لا تتوقف ولا تكف عن التقدم والتفتح والارتقاء إلى ما لا انتهاء،

والويل لمن لا يعمل وينجز ويأتي بما هو نافع لنفسه وللناس فإنه يحكم على ذاته بالتحجر والإنغلاق ويصبح غير قادر على ارتياد الآفاق. ألافلينظر الإنسان من خلال الطبيعة إلى رب الطبيعة، وليتأمل وجه الطبيعة كما لو كان وجه الله. الجبال والوديان والبحار والمجرات هي أفكار إلهية تدركها روح الإنسان الحساسة المتيقظة؟ أعمال الله تتميز بتوقيع الحكمة وختم القوة مما يميزها عن أعمال الإنسان الواهنة الواهية لأنها تقليد وليست خلقاً. ليست الشمس وحدها هي التي تعلن مجد الله، بل كل زهرة ونبتة مهما كانت ضئيلة ونحيلة .الأشياء الطبيعية حتى ولو لم تمتلك قسطاً من الروعة والجمال لكنها تثير المشاعر وتستحث الخيال. فالطبيعة ترضي النفس وتبهجها وتجتذب إليها كل ما تصبو إليه، لإنها ينبوع قوة لا متناهية.لا يمكن التلاعب مع الطبيعة الصادقة دائما وأبدا، والجادة والحادة في آن. إنها دائماً على صواب. أما الأخطاء والعيوب فهي من صنع الإنسان. الطبيعة لا تعطي أسرارها للفضوليين بل تمنح مفاتيح تلك الأسرار للصادقين الجادين الباحثين بصدق عن الحق والحقيقة.الطبيعة جميلة دائما وأبدا! فكل رقعة ثلج هي بلورة نقية بديعة التكوين، تتهادى مع بعضها بكل اتساق وانسجام كما لو أن حوريات قد أمسكت بقطرات ماء وحولتها إلى زهور اصطناعية لتزين بها أجنحة الريح!الطبيعة والحكمة تتكلمان نفس اللغة.. دائماً وأبدا! قوانين الطبيعة هي قوانين عادلة لكنها صارمة. فالسبب والنتيجة متلازمان لا ينفصلان أبدا. وعناصر الطبيعة لا تحابي: النار تحرق والماء يغرق والقبر بانتظار كل جبار عنيد. ولا يمكن تطويع الطبيعة إلا بالامتثال لها واحترام قوانينها. الطبيعة اقتصادية لا تعرف الهدر. هي تتغير ولكن ليس فيها فناء، لأن جوهرها يبقى على حاله دوما.

قوانين الطبيعة هي أفكار وأدوات الله التي بواسطتها يجسّد إرادته ويبرز إبداعاته الإلهية. الطبيعة تعطي جمالا ورونقا لكل وقت من أوقاتها وفصل من فصولها. فمن الفجر حتى الغسق تتابع صورها المتبدلة بكيفية شفافة لدرجة أننا بالكاد نلحظها أحيانا. هناك شيء رائع في سكينة الطبيعة يطغى على همومنا وشكوكنا: رؤية السماء الصافية الزرقاء وثريات النجوم المتألقة تمنح للفكر سلاماً وللنفس راحة وطمأنينة. من يترسم خطى الطبيعة لا يضل السبيل. أحياناً يتم إخضاع الطبيعة ولكن مستحيل محوها. الحكماء يقتدون بالطبيعة كأوثق دليل ويمتثلون باطنيا لقوانينها الحكيمة.

الجاهل يتعجب مما هو استثنائي، والحكيم يُدهَش لما هو عادي. أما الأعجوبة الكبرى فهي قوانين الطبيعة الثابتة التي لا تتغير .ما من غنىً سوى ثراء الطبيعة الذي لا ينضب. فهي تظهر لنا سطحها فقط لكنها تظل أعمق من ذلك بملايين المرات.الطبيعة هي كنز هائل من الرموز، وباطنها يزخر بالحقائق. الطبيعة لا تقلد إلا ذاتها. فالبزرة التي تزرع في تربة جيدة تأتي بثمر جيد، والمبدأ الذي يتم غرسه في عقل طيب ينتج ثمراً طيباً.

الطبيعة هي معلم الإنسان. فعندما يبحث بجد واجتهاد تكشف كنوزها له وتزيل الغشاوة عن عينيه وتنير له عقله وتطهر له قلبه.

الأم

هي أصفى مورد وأنقى منبع للمحبة المجردة. في عينيها عاطفة لا يُسبر لها غور ولا تستقصى.. وفي صوتها نغمة حنان تعرف طريقها إلى الأفئدة والمشاعر.. ورقة متناهية تبدد الهموم وتجبر الخواطر.

هي رمز السمو والاعتبار

والروعة والعظمة

والرقة والحدب

والرأفة والحنان.

وجهها مرآة صقيلة تظهر خفايا الوجود وأنوار السماء. ناكر وجود الله لا يقوى على نكران محبة الأم، ومن يقرّ بها فهو مؤمن ولو جهل ذلك. محبتها تلخّص غبطة الفردوس ونعيم الله.

من عينيها ينظر القدير ومن قلبها يحب ومن يديها يخدم. هي الوسيلة الجميلة لأهداف الخالق، وقليل من التأمل في جمال الأمومة وقدسيتها كفيل بتكوين أسمى فكرة عن الله الذي اتخذ من الأم سفيرا ونائبا لتلهم وتوحي وتشجع عباده في وادي الدموع والأحزان على هذه البسيطة..

دموعها إكسير الحياة ولمستها بركات الودود. ونغمة صوتها همسة الخلود. تكريمها واجب مفروض، وخدمتها يفرح بها أبو الأنوار.

من ضياء الله تكوّن قلبها، وهي البوابة الموصلة إلى شواطئ الأمن وواحات النعيم.

فطوبى للذي تذوّق عذوبة محبتها فقد ترشّف غبطة الروح التي دونها كل سعادة أرضية.

سقراط الفيلسوف الشهيد

هو أحد أعظم فلاسفة الإغريق عبر التاريخ. وُلِدَ سنة ٤٦٩ ق.م. ولم يحصل سوى على النزر اليسير من التعليم في بواكير عمره. لكنه اطلع فيما بعد على ذخيرة الفكر والفلسفة اليونانية وتبحر في ثقافة أهل أثينا حتى أصبح علماً من أعلامها يشار إليه بالبنان. مارس سقراط النحت لفترة من الزمن لكنه تخلى عن تلك المهنة وراح يجوب شوارع أثينا وأسواقها متحدثاً إلى كل شخص يقابله. أما حديثه فكان يدور في معظم الأحيان حول الروح والخلود والأخلاق الفاضلة. عمل ما بين عامي ٤٣٢ و ٤٢٩ ق.م في معسكر بوتيديه وحارب في معركتي ديليوم وأمفيبوليس. وبعد معركة أرجينوسا رفض أن يلعب أي دور آخر في الحياة العامة، لا سيما عندما طالب المشاغبون بإعدام عشرة جنرالات لم يتمكنوا من دفن الموتى في تلك المعركة. وبالمثل فقد رفض الدكتاتورية رفضاً قاطعاً عندما أمره الدكتاتوريون باعتقال ليون سلاميس الذي كان بريئا من التهم الموجهة إليه. عمل سقراط أستاذاً لكنه لم يكن محبوباً من قبل مواطني أثينا. فمظهره كان منفرا كونه كان أصلعاً، غليظ الشفتين، مفلطح الأنف وقبيح الشكل. أضف إلى ذلك ثيابه الرثة التي لم تكن أحسن حالاً من ثياب الشحاذين. وقد حاول اختزال احتياجاته إلى أدنى حد ممكن تشبهاً بآلهة الإغريق من حيث الكمال والترفع عن الماديات. أما زوجته زنثيب فقد كانت – على ذمة المؤرخين – امرأة شرسة الطباع، سليطة اللسان، عيّابة، عيّارة، نقّاقة، مُلحة ومُلحفة في الإنتقاد وقد تحمّلها كضرب من التهذيب الذاتي والرياضة الروحية. كان عنده العديد من الأصدقاء المستنيرين من بينهم أفلاطون وكريتو وألسيبياديس وزينوفون وفيدون وأقليدس وميغارا وأرستيبوس. ومع ذلك فقد كان عمله محصوراً مع شباب أثينا الذين أرادهم أن ينتهجوا سلوكاً أدبياً ويتمرسوا بالأخلاق الفاضلة. أما مثله الأعلى فقد كان معرفة الإنسان نفسه، وكان لا يكف عن الترديد 'اعرف ذاتك'. الشر بالنسبة له كان ثمرة للجهل. أما الطيّب والنافع والجميل فقد اعتبره واحداً من حيث الجوهر بالرغم من اختلاف المسميات. وكان يقول: ما من أحد يفعل الشر بمحض إرادته وأن الفضيلة يمكن تلقينها لمن يرغب في أن يصبح فاضلا.

كما كان يقول أن أفضل الحكام أحكمهم وليس بالضرورة أكثرهم تحصيلا للعلم. لأن الحكام الحكماء يشعرون بمسؤولية تجاه الناس فيسعون لإسعادهم ويعملون على تحسين أوضاعهم.
طريقته المعروفة بالسقراطية اكتسبت شهرة واسعة في كل بلدان حوض البحر المتوسط، إذ كانت عبارة عن استجواب يغري حتى أذكى الناس بالنقاش والتباين في وجهات النظر. وكان يخفي معرفته خلف ستارة من الجهل المفتعل. وعن طريق سلسلة من الأسئلة المنتقاة بعناية استطاع معرفة ما أراد معرفته من كل الذين حاورهم أو استمع إليهم.
في عام ٣٩٩ ق.م حُكم عليه بالموت بتهمة المناداة بآلهة جديدة ورفضه لعبادة مقدسات المدينة وإفساده لأخلاق الشباب. وأثناء المحاكمة دافع عن نفسه بما عرف بمبررات سقراط لكن هيئة المحلفين المؤلفة من ٥٠٠ فرداً أدانته بأكثرية ضئيلة.
في صباح اليوم الذي شهد موته طرد زوجته السيئة الخلق من زنزانته بسبب عويلها وصراخها الصاخب. ويقال بأنه صرف الساعة الأخيرة من حياته بهدوء وسكينة متحدثاً إلى أصدقائه عن خلود النفس. ومع بزوغ الفجر شرب سم الشوكران المُعد خصيصاً للمحكوم عليهم بالموت، وسار بضع خطوات ثم استلقى على أريكته ومات ميتة هادئة.
وهكذا قضى سقراط الذي غالباً ما كان يردد: 'كثيرة هي الأشياء التي لا حاجة لي بها!' وقد أبّنه تلميذه وصديقه أفلاطون بهذه العبارة المؤثرة: 'مات سقراط الذي ما رأينا أنبل منه في مماته مثلما لم نعرف أعدل وأحكم منه في حياته.'

ما وراء سلسلة الجبال الزرقاء

قرأت هذه القصة منذ سنوات في مجلة معرفة الذات، ومع أنني لا أذكر كل تفاصيلها لكنني احتفظت بالفكرة الرئيسية في ذهني وها أنا أرويها لكَ يا قارئي العزيز ببعض التصرف.
عندما بلغ أحد زعماء الهنود الحمر مرحلة متقدمة من العمر وشعر بدنو الأجل، اختار ثلاثة من رجاله ووضعهم قيد الاختبار لاختيار أحدهم لخلافته في زعامة القبيلة. إذ طلب منهم البحث عن سلسلة الجبال الزرقاء والعودة إليه ليصفوا له كل ما رأوه في طريقهم وما اعترض سبيلهم من الصحاري والصخور والوديان الضيقة والأنهار والمرتفعات والخوانق أي الأودية العميقة التي في أسفلها أنهار.
ثم ودعهم وطلب من الروح الأعظم كي يرافقهم ويعيدهم إليه سالمين على أمل لقائهم بعد عودتهم الموفقة.

انطلقوا كل في اتجاه، ومضت أيام وأسابيع على رحيلهم، عبروا خلالها مساحات شاسعة ورأوا سلاسلَ عديدة من الجبال ظنوا بعضها أنها سلسلة الجبال الزرقاء التي يبحثون عنها، ولكن كانوا كلما اقتربوا منها برزت أمامهم سلاسل تلوها سلاسل إلى ما لا انتهاء.

أخيراً عندما وصل أحدهم إلى نقطة معينة من تجواله يكثر فيها نبات الشيح والقيصوم قال بينه وبين نفسه سآخذ معي غُمراً (ربطة) من هذا النبات وأعود إلى الزعيم مؤكدا له أنني أتيت بها من وراء القمم الزرقاء. فيمم وجهه شطر القبيلة وعاد برأسه ريشة يحدوه التفاؤل والأمل في أن يصبح الزعيم الجديد لقبيلته.

وعندما أصبح على مقربة من القرية راح يحدي ويهزج على طريقة الهنود الحمر ويرقص رقصة النصر إلى أن وصل بيت الزعيم فسلّم عليه أمام الحاضرين الذين كانوا في انتظار عودته، ووضع كومة النبات التي جففتها حرارة الشمس أمام الزعيم، وشرع بالوصف بهمة وحماس، لكن الزعيم قال له لا حاجة لك بأن تخبرني شيئاً، فأنا أعرف إلى أين وصلت بالضبط من هذه الكومة التي وضعتها أمامي.

أقول لكَ أنك بلغت المستنقعات المالحة وقطعتها بعدة فراسخ، وجُزتَ بمحاذاة التلال الأرجوانية، بل وقطعت وادي الكهوف بمسافة قصيرة ولم تتقدم بعدها ميلا واحداً، ولذلك لم تبلغ الجبال الزرقاء.

فلم يكن أمام صاحبنا الطامح إلى الزعامة الروحية والدنيوية إلا الصمت لأن كل ما قاله الزعيم كان عين الصواب.

بعد عدة أيام رجع ثاني الثلاثة ومعه قطع من صخور زرقاء فريدة التكوين ذات بريق خاص لم يكن قد رأى مثيلا لها في حياته. فوضعها أمام الزعيم على أساس أنها من وراء الجبال الزرقاء. ولكن ما أن نظر إليها الزعيم ببصره الثاقب وتحسسها بيده حتى قال: المسافة التي قطعتها كانت أطول بخمسين فرسخاً من التي قطعها صاحبك الذي أتانا بالشيح والقيصوم. لقد اجتزت الوادي الكبير وقطعت الصحراء الغبراء، بل أنك اجتزت سبع سلاسل من الجبال الضارب لونها إلى الأزرق، وعبرت النهر العريض وتسلقت صخور الغرانيت والصوان، ووصلت إلى المنفسح الكبير ذي الشلالات الهادرة، ولم تتقدم بعدها فرسخاً واحداً. لقد اقتربتَ من الجبال الزرقاء ولكنك لم تصلها ولم تجتزها لتبلغ ما وراءها.

وكصاحبه الأول لم يحرِ جواباً لأن كلمات الزعيم جاءت مفحمة ودامغة لا يمكن الرد

عليها أو تفنيدها إطلاقا. فالتزم الهدوء وأدرك أنه لم يفلح في مهمته.
وبعد أسبوع رجع الرجل الثالث لا يحمل شيئا، ولأنه لم يجلب معه شيئا فلم يضع أي شيء أمام الزعيم، بل ولسبب ما عجز عن النطق ولو بكلمة واحدة.
وما أن تفرس الزعيم في عينيه حتى قال له أمام الحاضرين:
لا حاجة لك أن تأتي لي بعلامة ولا حاجة لأن تخبرني عما رأيته لأنني أرى كل شيء مرسوما بجلاء ووضوح في عينيك. وأؤكد لكَ ولكل الحاضرين هنا بأنك بلغت سلسلة الجبال الزرقاء بل اجتزتها وبلغت ما وراءها وأبصرت المحيط القابع خلفها.
أجل، أرى المحيط بأمواجه ومده وجزره وقواه وعظمته وامتداده اللامحدود في عينيك، وأحس به ينبض في كيانك وكأنك أصبحت واحداً معه. أنت الذي اجتزت الإمتحان وحققت أملي وأحلامي بخلافتك لي. والآن أستطيع أن أمضي قرير العين إلى الأرض السعيدة حيث الآباء والأجداد وأقابل الروح الأعظم، عالماً في أعماق نفسي بأنني سأترك القبيلة في رعاية رجل أمين ومؤتمن وصل إلى المحيط الكبير ولامس مياهه فتبارك بالرؤية وأصبح كفؤاً للزعامة.
وما أن نطق بهذه الكلمات حتى أسلم الروح وحل مكانه الزعيم الجديد الذي ارتاد القمم الزرقاء وأبصر بأم عينه المحيط الأعظم.

النقد الإجتماعي بين التصحيح والتجريح

جميل أن ننظر بعين الملاحظة والفهم والتقييم إلى ما يدور حولنا من أحداث وأن نتفاعل مع الحدث. وأجمل من تلك الملاحظة والتقييم هو تقديرنا لإيجابيات المشهد – التي لا بد من وجودها ولو بدرجة ضئيلة – ومحاولتنا الودية المتعاطفة لعمل ما يمكننا عمله لمعالجة السلبيات بأسلوب ناجع ومتواضع، مدركين في قرارة نفوسنا أن عملية الإصلاح – لا سيما الإجتماعي منها – هي عملية بطيئة وتتم على مراحل متدرجة متصلة بطبيعة الإنسان و بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه.
واهتمامنا الصادق بالمجتمع لا بد أن يكون نابعاً من محبتنا له وتعاطفنا مع أبنائه الذين هم بعض منا أو نحن بعض منهم؛ تجمعنا بهم روابط متينة ومتشعبة، بحيث لا يمكننا الوقوف جانبا والنظر إليهم كجزء منفصل عنا، مانحين لأنفسنا مطلق الحرية في (البحبشة والتنبيش) في خصوصيات الناس، ناسين أو متناسين أن التغيير لا ينفصل

بطبيعته عن التطور الإجتماعي الذي هو حالة طبيعية لا بد أن يكون المجتمع مؤهلا لها حتى يتمكن أفراده من الإنتقال بسلاسة إلى ما بعدها من مراحل.

لكل مجتمع ميزات خاصة، ولكل مجتمع إيجابياته وسلبياته. وحري بنا التركيز على إيجابيات المجتمع والإشادة بها لأن التشجيع منشط بطبيعته، أما التثبيط فله ردود فعل أقل ما يقال أنها غير مستحبة.

لا زلت أذكر أسماء كل المدرسين والمدرسات تقريبا الذين تعاقبوا على تدريسي في عدة مراحل، بل لا زلت أذكر معاملة كل واحد منهم وما قاله لي ولزملائي الطلاب من إيجابيات وسلبيات. وبالرغم من صغر سننا نحن التلاميذ آنذاك وعدم قدرتنا على الدفاع عن أنفسنا إزاء قسوة بعض المدرسين، لكننا كنا قادرين على تقييمهم لبعضنا البعض والتحدث عنهم بمودة أو بإحباط.

بعض الأساتذة كان لهم أسلوبهم المتشدد، وكنا نكره حضورهم وسماع نبرات أصواتهم لأننا لم نكن نملك الحصانة من ألسنتهم الحادة وأيديهم الضاربة. وهؤلاء المدرسون الصارمون كانوا يتوقعون منا الكثير، بما يفوق طاقاتنا أو استعداداتنا آنذاك، والويل لمن كان لا يفي بتوقعاتهم لأن قضيب الرمان كان بالإنتظار، وفي حال غيابه كانت المسطرة المربعة أو يد الأستاذ تقوم مقامه وتعمل عمله.

أما البعض الآخر وهم قلة قليلة من المدرسين فقد كانوا على جانب من الإنسانية واحترام الذات بحيث كانوا ينظرون للتلاميذ على أنهم أشخاص لهم مشاعرهم وكرامتهم، ولذلك عاملونا معاملة طيبة وكنا نتشوق لحصصهم لأننا كنا نأمن جانبهم فلا نخشى نوبات غضبهم أو تهكمهم أو النظر إلى وجوههم. وكم كانت التعابير الفولاذية الحادة لوجوه بعض المدرسين تشيع الهلع في نفوسنا. ولا يسعني هنا إلا أن أتذكّر وأذكر بالخير ثلاثة من المدرّسين الطيبين الودودين:

أحدهم كان الأستاذ فاضل النبواني الذي درّس مادة التربية الوطنية في الرحى لعدة سنوات في نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات. لقد كان مربياً بكل ما لهذه الكلمة من معنى، مثلما كان كبيراً في قلبه وفي تعامله معنا كإخوة صغار له. ولا أذكر أنه أهان – سواء بلسانه أو بيده- تلميذا واحدا من التلاميذ، فترك هذا الانطباع الطيب في نفسي مثلما تركه في نفوس باقي التلاميذ.

أما المدرّسان الآخران فكانا محمد صبح أستاذ اللغة العربية وتوفيق عبيد أستاذ الرسم.

وكالطيب الذكر الأستاذ فاضل النبواني فقد عاملنا هذان الأستاذان بمودة وتشجيع فأحببناهما وحفظنا جميلهما.

لقد ذكرت هذه الانطباعات لأن لها جانباً اجتماعيا من حيث فهم وتفهم الآخرين ومعاملتهم والتعامل معهم. لا ننكر أن المجتمع فيه الكثير من الشوائب وفيه أيضاً الكثير من الإيجابيات، فلنركز إذاً على إيجابيات المجتمع علنا نقويها فتمتص السلبيات أو تحولها ولو ببطء إلى إيجابيات مماثلة.

عندما نركز على السلبيات فإننا نمنحها قوة، فتستهلك طاقاتنا ووقتنا وفي نهاية المطاف (بتطلع سلتنا بلا تين). الله كريم والدنيا بألف خير وفيها الكثير من الخير ومن الطيبين. فالشمس ما زالت تشرق والأخيار ما زالوا معنا وبيننا وسنراهم إن نحن نظرنا في الاتجاه الصحيح، وعندئذ سنرى الخير وأهل الخير في كل مكان وفي كل اتجاه.

والآن أود أن أروي لكم هذه القصة الطريفة نقلا عن أحد الحكماء، آمل أن تستمتعوا بها:

يقال أن فيلسوفاً هندياً متبحراً في الأسفار المقدسة كان ينوي الانتقال من إحدى ضفتي نهر الغانج إلى الضفة الأخرى. فنادى نوتياً كان يملك قارباً صغيرا يستعمله لنقل الناس عبر النهر. وفعلاً استقل الفيلسوف القارب وراح النوتي يجدّف به مقاوماً تيار الماء القوي. وبعد مسافة قصيرة سأل فيلسوف الزمان النوتي قائلا:

يا نوتي: هل حفظت كتاب المعارف الروحية الأول ؟

فأجابه النوتي: لا يا سيدي لم أحفظه.

فقال له الفيلسوف: يؤسفني إذاً أن أخبرك بأنك ضيّعت ٢٥ بالمائة من عمرك دون فائدة تذكر.

ابتلع صديقنا النوتي هذه الإهانة وتابع التجديف. وعندما بلغا منتصف النهر، فتح الفيلسوف فمه اللاسع ثانية وقال:

يا نوتي: هل حفظت كتاب المعارف الروحية الثاني؟

أجابه النوتي: يا سيدي، لا أعرف شيئا عن كتاب المعارف الروحية هذا.

فأطلق الفيلسوف تصريحا جديداً قائلا: يا خسارة! يؤسفني أن أعلمك أنك ضيعت ٥٠٪ من حياتك في اللاشيء.

فامتعض النوتي لهذه الوقاحة لكنه لم يقل شيئاً بل واصل التجديف بأكثر من معنى، لاعناً الساعة التي قابل فيها هذا الفيلسوف الفضولي. وعندما بلغ القارب ثلاثة أرباع النهر، وجّه إليه الفيلسوف سؤالاً ثالثاً، قال:

يا نوتي: هل حفظت كتاب المعارف الروحية الثالث؟
فأجابه النوتي المسكين بصبر نافد: قلت لك يا سيدي أنني لا أعرف شيئا عن مثل هذه الكتب.
فابتسم الفيلسوف ابتسامة (الاهتمام والمواساة) قائلا: للأسف الشديد فقد ضيّعت بذلك ٧٥٪ من عمرك وتلك خسارة لا تعوّض.
لم يجب النوتي على هذا التعليق بل أسرع في التجديف على أمل بلوغ الضفة المقابلة والتخلص من تلك اللزقة الزنخة.
وفجأة أبرقت السماء وراحت ترعد وتبعث المطر مدرارا بزخات مدارية في غاية القوة وحدثت عاصفة شديدة راحت تتقاذف القارب في كل اتجاه. وهنا جاء دور النوتي كي يوجه للفيلسوف سؤالا، فقال له:
سيدي الفيلسوف، منذ انطلقنا في رحلتنا هذه وأنت تمطرني بوابل من الأسئلة، الواحد تلو الآخر، فهل بإمكاني أن أسألك سؤالاً واحدا فقط لا غير؟ أجابه الفيلسوف: نعم يمكنك ذلك. فقال النوتي:
يا حضرة الفيلسوف الحافظ لكتب المعارف الروحية عن ظهر قلب والمتبحر في الأسفار المقدسة هل تجيد السباحة؟
فأجاب الفيلسوف بصوت متهدج: لا يا طويل العمر لا أعرف السباحة.
وهنا ابتسم النوتي وقال له: إذاً خاطرنا عندك، ويعز عليّ أن أخبرك أنه بعد لحظات من الآن ستصبح حياتك مائة بالمائة في خبر كان! وفي تلك اللحظة لطمت موجة عاتية القارب فقلبته رأساً على عقب مما أدى إلى إرسال فيلسوف الدهر إلى قاع النهر في حين استنجد صديقنا النوتي بذراعيه القويتين وبخبرته الطويلة في مجال السباحة وراح يقاوم الموج بثقة وطمأنينة حتى وصل إلى الضفة الأخرى سالماً.

الغرور في سطور

هذا الشعور الدخيل الذي لا يمتّ لطبيعة الإنسان الجوهرية بصلة مع أنه وثيق الصلة بشخصية الإنسان السطحي وتفكيره الضحل وتبختره الساذج كالطاووس الزاهي الألوان أو كالديك الرومي (ديك الحبش) ذي الكبرياء والعنفوان!
المغرور يظن نفسه حكيماً عليما وأخا تجاريب (بتعبير ولي الدين يكن)، سواء على المستوى المنظور أو صنوه المستور. كما تحدثه نفسه أنه عميق القاع، طويل الباع، بعيد النظرات

وغير محدود القدرات. ولأنه زئبقي يظن أن بمقدوره الإمساك بكل صغيرة وكبيرة وكل ما هو ثابت ومتحرك لأن عقله المخضوض (الباطن والظاهر) دائم الحركة والإندفاع في كل اتجاه كون لا شيء يشبعه أو يروي ظمأه ولذلك فهو مفجوع وبه جوع على الدوام للإمساك بكل ما تصل إليه يده أو يقوده إليه فكره.

والغرور – حمانا وإياكم الله منه – يقترن بالنرجسية فلذلك ترى المغرور يعبد ذاته مع أنه يتكلم عن الخالق بكلام مزوق ومنمق، إنما بالحقيقة هو يؤله ذاته سواء صرّح بذلك أم لم يفعل، لكن أساليبه لا تخفى على كاشفي الغرور حتى ولو تبرقع وفاق الحرباء في تغيير الألوان ما بين أحمر وأخضر وأصفر وربما أزرق ورصاصي.

الغرور هو آفة خطيرة أو سرطان نفسي إذا تغلغل في عقل الإنسان واحتل دماغه يصبح من العسير بل من المستحيل استئصاله فيسري في خلايا الفكر ويعطب أنسجة التمييز ويقتل في الإنسان المزايا النبيلة ويستبدلها بغرائز دخيلة لا صلة لها بالتكوين السوي لأنها معدن غريب وامتلاكها أمر معيب.

الغرور يعمي البصيرة حتى ولو كانت عينا صاحبه عشرين على عشرين. وهو يقود صاحبه في كل اتجاه أو يسوقه أمامه بالمنخس والمهماز.. يتعتعه ويجعل منه بهلواناً يتقن الرقص على الحبل أو الحبلين ظاناً أنه رجل الدنيا وواحدها وأن ملائكة السماء وما فوقها يحسدونه على عبقريته التي لا نظير لها ليس في هذا العالم وحسب بل في عوالم من فوقها عوالم.

والغرور يوحي لصاحبه أنه أكبر من الحياة وأعظم من سارت به قدم على وجه الأرض. وبما أنه بلغ ذروة التحصيل ولم يعد أمامه مرتقى يستحق السعي تأخذه العزة في الغرور فيبتسم بسمة الإستعلاء ويهنئ نفسه على مقامه الرفيع وتأثيره على الجميع مثلما كان راسبوتين وغيره لمن يعي ذاكرة الأيام.

الغرور يعِد صاحبه بقامة مديدة واستحقاقات عديدة في الوقت الذي يقزّمه ويجعل منه مهرّجاً لكن ليس بالضرورة على قدر معقول من الذكاء أو الذوق. وكذلك يهمس في أذنه كلمات حلوة وكذابة تضاعف غروره وديجوره معا، مثلما تضعف عقله وتكسف شمس روحه فيزداد ظلامية ومع ذلك لا يتوقف عن النطنطة والتقافز على العمياني وقاه الله من عثرات الحياة وضربات الزمان.

المغرور لا يعترف بقوانين أدبية وأخلاقية لأنه يظن نفسه فوق كل قانون بل وأنه قادر على

الشرعنة والتشريع على هواه لأنه رب نفسه ولا يخضع لقوانين يعتبرها وضعية ودون قدره بكثير. وبما أن الحركة المحمومة الدائمة الدائبة سببت له ارتجاجاً في الدماغ فهو لا يرى الأشياء على حقيقتها بل يراها مقلوبة أو مشوهة أو مهتزة فيقتنع بأن ما يراه هو عين الصواب وأن من واجبه تلقين الناس تلك الحقيقة التي اكتشفها بفضل عبقريته وتفرده المنقطع النظير.

العقلاء طبعاً يأسفون له ويحزنون على وضعه البائس ويتمنون له الشفاء من داء الغرور القتال. لكن هناك البعض ممن يتحلقون حوله ويمشون في ركابه وينظرون من منظوره ويقولون آمين لكل ما يقوله وهؤلاء يستحقون الشفقة لأنهم ضعاف نفوس تخلوا عن أفضل هبات الله لهم: العقل والإرادة والتمييز وسلموا زمام أمرهم ليد لا تفرّق بين الشمال واليمين والغث والسمين.

ولحسن الحظ فإن المغرورين عابدي أنفسهم هم قلائل في هذه الدنيا التي ما زالت تزخر وتفخر ببنيها المؤمنين بالله وبالقيم، المهتدين بنور الضمير والمترفعين عن الغرور الذي لا يليق بصورة الله النقية التي لا تحتاج إلى ترقيع وتلميع وتزويق وصباغة لتظهر بخلاف جوهرها الذي لا يمكن مقارنته بشيء لأنه من جوهر الله الذي لا يريد للإنسان الغرور بل الأصالة وعمق الغور.

القانون الإلهي فوق كيد المعتدي

هذه الظروف الصعبة التي يمر بها العالم ككل لا بد أن لها جذوراً عميقة متأصلة في تربة الوعي البشري. وما لم يتم استئصال تلك الجذور فستظل ترسل فروعها إلى ما فوق التربة بين الحين والآخر، مهما (قرَمنا وقرطمنا) تلك الأجزاء العليا من ذلك النبت الضارب جذوره عميقاً في الأرض.

ليس من السهل التخلص من نبت النجيل المعروف بشروشه العميقة والمتشعبة، ولا توجد غير طريقة واحدة لعمل ذلك وهي استئصال جذوره وإلا فسيبقى يفرّخ إلى ما لا انتهاء. وهذا النبات شبيه من حيث المجاز بما هو موجود على درجات متفاوتة في تربة النفس البشرية من سموم متراكمة على مدى سنين طويلة محسوبة من عمر الإنسان.

إن تنقيبَ النجيلِ من حقولٍ وكرومْ
أسهلُ من غسلِ ما في القلبِ من غث السمومْ

نعود إلى (فوق كيد المعتدي) فنقول: إن القانون الإلهي هو ميزان العدل الكوني الذي يوازن المعادلات ويعطي كل ذي حق حقه مهما طال الزمان. فالله هو القوة الكونية العظمى، وهو أعدل العادلين وأرحم الراحمين، وحاشاه أن ينسى الحيف أو يتغاضى عن الضيم مهما كان صغيرا. ولقد أدرك الحكماء هذه الحقيقة منذ القدم وعبّروا عنها خير تعبير بقول (أن الله يمهل ولا يهمل) و(دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة).

للباطل جولة وربما جولات، ولكنه لن يكسب المعركة في نهاية المطاف، لأنه غير مسنود ولا يحظى بالتشجيع من قوى الحق التي لا دوام لقوة أرضية بدونها، ولذلك لا بد أن يستنفد الباطل قواه ويحرق مراكبه ويدمّر جسوره مهما تمادى في غيه وصال وجال وعربد على هذه الأرض التي هي لله أولا وقبل كل شيء.

ومن يقرأ التاريخ ويستقريء المستقبل يدرك أن الذين اعتمدوا القوة الغاشمة في تمرير مشاريعهم وشرعنة طموحاتهم المبنية على الأنانية والجشع كان مصيرهم الزوال أو انتهوا إلى مهملات التاريخ على أحسن تقدير.

إن الله الذي خلق الإنسان على صورته يتوقع منه أن يعمل بما يتناسب وكرامة تلك الصورة، وأن يتذكر منشأه الإلهي ويعتبر البشر إخوة له حتى يتمكن من العيش بسلام والتمتع بثمار الأمن والطمأنينة مع أخيه الإنسان. ومن منظور روحي فإن أي إنسان – مهما علا كعبه وارتفعت منزلته في عيون البشر – مستحيل أن يستطيع مخادعة القانون الكوني أو الإفلات من عقابه الصارم الذي هو أكثر دقة من أدق الموازين البشرية بمليارات المرات.

ونظراً لعدم شمولية الرؤية واكتمالها لدى الإنسان، يبدو الظلم ضارباً بأطنابه على هذه الأرض، ولكن إلى حين. فالذي خلق كل شيء وأتقن صنعه، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، ويحيط علما بكل شيء، هو حاضر في كل مكان ويعرف كل ما يجري. وعاجلا أم آجلا سيعطي كل ذي حق حقه لأن الله لا يظلم الناس شيئا بل الناس أنفسهم يظلمون.

إن القوة العظمى في الكون تعرف كيف تحط المتكبرين وتضرب المتجبرين وتقتص من سالبي الناس حقوقهم، كل ذلك تفعله تلك القوة الإلهية بطريقتها الخاصة وبتوقيتها الصحيح، بعيداً عن الحسابات البشرية التي كثيراً ما تكون إما مغلوطة أو متعجلة للنتائج.

ولو سمح الله (لا سمح الله) باستمرارية القوة الغاشمة لأصبحت تلك القوة إلها يدير الكون على هواه دون حسيب أو رقيب ودون رادٍ أو رادع. ولكن الذي خلق الكون وما فيه ليس بعيداً عن موقع الحدث، فهو يعرف ما يجري وهيهات هيهات أن يفلت ظالم من

العقاب مهما تعملق وظن نفسه على كل شيء قدير.
مهما اشتد الظلام فالفجر قريب والشمس ستعاود إشراقها لأنها تعمل بموجب نظام لا يعرف العوج أو الخلل. ونفس هذا النظام يسيّر حياة البشر، وعين الله ساهرة لا تنام، وهو سبحانه الحق بالذات ويعرف كيف يصفي الحسابات ويرد كيد الظالمين إليهم بحسب إرادته الحكيمة وعدله المعصوم.

أصــول الذات

ما يستحثني لكتابة هذا المقال هو بعض التوجهات العصرية في مجال الروحيات من جهة، وبعض التساؤلات التي يطلقها البعض – سواء عن حُسن نية أو عن سوء قصد – حول أصول جماعة معرفة الذات.
أما ما أقصده من أصول الذات فهو ذلك العنصر الإلهي الذي لا يختلف في كلياته عن جزئياته من حيث الجوهر. وما يبدو تبايناً بين الإثنين هو من تفسير العقل البشري الذي يعتمد في استنتاجاته على الحواس ومعطياتها. وهذه الحواس الخمس التي هي مقيدة ومحدودة في طبيعتها وفي قدراتها عجزت منذ الأزل وهي عاجزة اليوم مثلما ستعجز دوماً عن كشف الغطاء والوصول إلى الجوهر الفرد الذي هو الذات الإلهية العليا.
هذه الحواس المرتبطة ارتباطاً عضوياً وثيقاً بهذا العالم المادي لا قدرة لها على النفاذ من أبعاد هذا العالم واستشفاف ما يكمن خلفه من طاقات وأنوار وأصوات وكائنات لا يعرف عنها سكان الأرض شيئاً إلا من حيث الإيمان بوجودها، ومنهم ما لا يعنيه وجودها ولا يهتم بأن يصرف ولو لحظة واحدة في التفكير بها أو السعي للتواصل معها.
أما صاحبنا العقل الحسي فهو بطبيعته محدود ولو بدا عملاقاً أو بهلواناً يتقن الشقلبة والمشي بالمقلوب على السقوف (كما بدا أحد مطربي الفيديو كليب)، أو اللعب بحذق على الحِبال. بيد أنه في واقع الأمر كسيحة ولا يمكنه التحرك والعمل إلا بالاستعانة بالحاسة التقليدية التي هي بمثابة عكازه أو كرسيه المتحرك ذي العجلات الخمس إن صح التعبير.
وبما أن هذا العقل المسكين مقيد تقييداً شبه كامل بالحواس ومحدودياتها، فهو من هذا المنطق والمنطلق أداة مقيدة بالعالم الحسي ولا يمكنه استشراف المستويات العليا ما لم يفسح المجال لأداة إدراكية أخرى أقوى منه وأكثر قدرة على النفاذ إلى البعد الرابع وربما ما بعده.

ولو لم يكن هذا العقل – مهما بلغت قدراته – مقيدا لكان الفلاسفة هم أول من عرفوا أصول أو طبيعة الذات الإلهية. لكن الكثير منهم حاول لعقود من الزمن ليعود أخيرا خالي الوفاض أو لنقل بخفي حنين. طبعاً هناك استثناءات لهذه القاعدة من أمثال الفارابي والكندي والغزالي والرازي وابن رشد وفيثاغورس وأفلاطون وسقراط وابن سينا وسويدنبرغ وأمرسون وثورو ولاوتسو وتوما الأكويني وكونفشيوس وغيرهم ممن اقتربوا من الذات العليا، لكنهم كانوا فلاسفة روح تجريبيين، فسحوا المجال لملكة الوعي السامي كي تتجاوز حدود وقيود العقل الحسي فأبصروا إن لم يصلوا، وأدركوا ولو جزئيا إن لم يكن كلياً مشاهدات وقوىً عليا تفوق كل ما عرفوه على هذا الكوكب الأرضي.

ولو لم يقوموا بوقف أو تعطيل أمواج العقل الحسي المتلاطمة طوال ساعات اليقظة، لما تمكنوا من الدنو من مشارف الوعي السامي واستبصار ما يحدث في آفاقه. ولا بد أن أولئك الفلاسفة الروحيين قد عمدوا إلى طرق أو وسائل محددة لوقف نشاط العقل الحسي بصورة واعية، وإلا فما كانوا ليختبروا شيئاً يذكر عن البعد الميتافيزيقي. ولذلك فمعرفة أصول الذات يلزمها تدريب دقيق ووثيق الصلة ببعض مظاهر الطاقة الحيوية في الإنسان.

ولا يمكن بحال من الأحوال التواصل مع البعد الروحي الرابع ما دام العقل الحسي يسرح ويمرح ويتقافز بكل قواه التقليدية المعروفة. أما إن ظن الشخص أنه على اتصال بتلك الآفاق من خلال العقل الحسي وحاول إقناعنا بذلك، فنقول له إسمح لنا! إذ هيهات أن يكون الإنسان راكضاً ونائماً في نفس اللحظة، اللهم إلا إذا كان ممن يمشون أو ربما يركضون في نومهم! تلك مسألة أخرى تنطوي على هذر وهذرمة ولن نركز عليها كثيراً في حديثنا هذا.

وقد تبين بعد البحث والتجريب أن هناك عدة طرق لبلوغ الحالة السامية، وأن أكثرها فاعلية هي طريقة تدعى الكريا يوغا التي تم إحياء علومها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ونشرها في العشرينيات من القرن العشرين.

وهذه الطريقة العلمية والحيوية تعطي نتائج محسوسة لمن يمارسها بدقة وانتظام. وهي لا تقوم على الإيمان بقدر ما تقوم على الأساليب العلمية ذات النتائج المعلومة. ومن يمارسها لفترة منتظمة من الزمن سيلمس تلك النتائج بنفسه ولن يعود بعدها بحاجة إلى من يقنعه سواء بجدواها أو بعدم فاعليتها، لأنه إذ ذاك سيعرف وسيعرف أنه يعرف، وذلك هو المحك والمعيار.

وللذين يقولون أن هذا العصر هو ليس عصر التأمل العلمي أو ممارسة الطرق التأملية نقول أن الأساليب التجريبية في المختبرات العلمية ضرورية للتوصل إلى نتائج محددة. وهذا ينطبق أيضاً على الكريا يوغا التي هي سلسلة من التمرينات والممارسات والتجارب العملية في مجال التحكم بالطاقة وضبط أمواج العقل وتياراته.

العيون: مرايا الفكر ومنظار القلب

عينا الإنسان هما أصدق دليل لما يدور في عقله من أفكار وما يختلج في نفسه من أحاسيس ونوايا. وهذا الدليل الصادق المتاح لمن يريد تصفحه وتفحصه يلزمه بعض المؤهلات لقراءته قراءة دقيقة لا تحتمل الخطأ.

العيون تترجم الحالات النفسية على اختلافها وكأنها مرايا صافية وثابتة غير مهتزة تظهر خفايا الفكر وخبايا الضمير بكل جلاء. ومن هذا المنطلق، ونظراً لوجود (قصاصي أثر) دقيقين لمعرفة الأفكار والنوايا عن طريق فحص وتحليل العيون، فلا غنى ولا بديل عن الصراحة والصدق والتعامل ببساطة مع أنفسنا ومع الناس.

هناك أشخاص قد يستطيعون التحكم بوظائف الجسم الفسيولوجية وقد تكون لهم القدرة على خداع أجهزة كشف الكذب، لكنهم عاجزون عن التحكم بعيونهم أو تزييف التقرير الباطني الدقيق المرسوم بشكل واضح لا يقبل التأويل في العينين. ولهذا السبب يقوم العديد باستعمال النظارات السوداء حتى لا ينظر الناس إلى عيونهم ويعرفوا حقيقة نواياهم.

يقال أن من يتعامل بالصدق دوما وينطق بالصدق هو أكثر قدرة على تمييز الأقوال بل حتى وقراءة الأفكار من خلال العيون وتعبيرات الوجه.

إن أفكار الإنسان وعواطفه ورغباته وطموحاته ونواياه كلها مرسومة في عينيه ولا يصعب على المتمرسين بفن قراءة العيون والأفكار ترجمتها ترجمة دقيقة.

أما موسوعة الأفكار فيعرّف كتّابها العين على هذا النحو:

يقول أديسون: العين هي ذلك العضو من الجسم الذي هو مستقر الشهوات والمشتهيات والعواطف والميول على اختلافها، بل والفكر نفسه.. وهي بمثابة البوابة التي تسمح لكل هذه بالخروج والدخول بحرية. فالحب والغضب والكبرياء والبخل كلها تتحرك بكيفية مرئية داخل هذين القرصين الصغيرين.

ويقول أمرسون: من أروع الأشياء العجيبة في الطبيعة هي نظرة العين التي تفوق الكلام

بلاغة لأنها الرمز المرئي لهوية الإنسان.

أما فرانكلين فله مفهوم خاص عن العيون، إذ يقول: إن ما يدمرنا هو عيون الناس، فلو كان كل الناس عميان ما عداي، لما رغبت في امتلاك بيت فخم أو أثاث فاخر. (أي لانعدمت الحاجة للمباهاة والمفاخرة أمام الناس)

ويقول جونسون: إن بصابيص العيون مصممة بكيفية فريدة بحيث أن عين الشخص هي نظارات لشخص آخر ينظر من خلالها إلى قلب ذلك الشخص.

ويقول ملين: آه لتلك العين الفضولية التي تجرد القلب من كل أسراره.

ويقول كولتون: لقد خُلق الإنسان بعينين اثنتين وبلسان واحد كي يرى أكثر بمرتين مما يتكلم.

ويقول بروبيرتيوس: العيون هي بمثابة الرواد الذين هم أول من يعلن حكايا الحب.

و يقول تكرمان: العين تفوق الكلام فصاحة وصدقاً، وهي النافذة التي تنطلق منها الأفكار دون تحفظ. بل هي المرآة السحرية الصغيرة التي تتراقص على سطحها البللوري المشاعر والأمزجة، تراقص الأشعة والظلال على صفحة ماء الجدول.

كما يقول ت. آدم: العين هي نبض الروح. فكما أن الأطباء يعرفون حالة القلب بجس النبض، هكذا نعرف ما في القلب بقراءة العيون.

ولم تفت شاعرنا أحمد شوقي هذه الحقيقة إذ قال:

وتعطلتْ لغة الكلام وخاطبتْ عينيَّ في لغة الهوى عيناكِ!

نظرات في الوعي الكلي

ليس من السهل التحدث عن هذا المظهر الإلهي باستخدام مصطلحات لغوية لم تنحت أصلا للتعبير عن معنويات مجردة وعن ما ورائيات شفافة تعصى على ما تعارف عليه الناس من أدوات حسية محدودة ومقيدة طبيعة وطبعاً.

لكن ما لا يدرك جله لا يترك كله. ولا بد من مقاربة مواضيع ذات صلة بطبيعة الإنسان الجوهرية مهما بدت مسافاتها قصية ودروبها عصية على غير المتمرسين في تسنم الشواهق وارتياد ما بعد البُعد.

لقد خُلق الإنسان في أحسن تقويم، وما أفهمه من (أحسن تقويم) هو الكمال الروحي. وهذه شهادة إلهية صادقة بأن الإنسان هو كامل في جوهره حتى ولو عجز عن معاينة هذا

الكمال والعمل بموجبه واستغلال طاقاته الكامنة إلى أقصى الحدود.

وكون الإنسان كاملاً في ذاته الإلهية فهو يمتلك القدرة التي لا حدود لها ما دام يمتلك الرغبة غير المتناهية في الإبحار في الوعي الإلهي الذي يشمل كل ما في الوجود، بما في ذلك كيانه وكينونته.

ولو عرف الإنسان ذلك المخزون غير المحدود من القدرات العقلية والطاقات الحيوية الحية المختزنة في كل ذرة من كيانه لشعر بأنه يمتلك في باطنه خزائن الأرض ونفائس الدنيا.

وعندما يدرك أن في حوزته طاقة واعية تمكنه من بلوغ هدف من الأهداف، يصبح من السهل عليه توجيه تلك الطاقة نحو غايتها القصوى: ارتياد مشارف الوعي الكلي.

وما الذي عسانا أن نفهمه من مصطلح الوعي الكلي؟

إننا نعرف ماهية العقل البشري العادي الذي نستخدمه في حياتنا اليومية وفي تحقيق أغراضنا الحياتية، وقد نفكر أحياناً بدرجات أسمى لهذا العقل ولكن مجرد التفكير لا يوصلنا إلى تلك الدرجات ولا يوصلها إلينا، بل يبقى مجرد تفكير آمل لا معرفة تأملية، وشتان ما بين الإثنين.

لقد اعتمد بعضهم الخيال سلّما للمعرفة، وطلب من الناس إغماض أعينهم كي يروا تحت الثلوج المروج. ولكن هذا مجرد تصوّر ليس أكثر. وهناك فرق واضح بين ما نتصوره بعين الخيال وما نبصره بعين الرأس.

وبالمثل فإن تصورنا لحالات الوعي العليا لا تنقلنا إليها عن طريق ملكة الخيال وحسب، بل لا بد من أن نستقل مركبة معرفية نستطيع بواسطتها بلوغ آفاق بعيدة كل البعد عنا وقريبة كل القرب منا.

وحسبما نوهت في مقالات سابقة لا قدرة لهذا العقل الناشط في عالم ثلاثي الأبعاد على ارتياد آفاق أبعد وأبعاد عصية المرتقى.

هذا أقوله لا للتثبيط إنما إقراراً لحقيقة مؤكدة تحدّث عنها كثيرون قبلي وهي أن الصعود إلى تلك القمم ليس سهلا بالطريقة التي يصورها بعض (معلمي آخر زمان) من ذوي البرطمة والبرطعة في (مطوخات) ضحلة يعتبرونها محيطات ذات أعماق، ومن ذوي البراعة في التنميق والتزويق وإعادة الصياغة والصباغة، وغربلة الناس ونخل المجتمع ذات اليمين وذات الشمال.

الوعي الكوني ليس بعيداً عن الإنسان بل موجود فيه. ولكن ما نفع القول بأنه موجود في

الأعماق دون ملامسته أو التواصل معه ؟

الوعي الكوني هو محطة متقدمة من مسيرة الإنسان. ويقال أن هذه المحطة هي غاية الإنسان التي ما بعدها غاية أو غواية. إذ عندما يدركها يترفع أو يرتفع تلقائيا عن مغريات ومشتتات هذه الدنيا التي لا حصر لها ولا سبيل لتفادي مؤثراتها الجبارة إلا بالتوجه العلمي المركز نحو ذلك الأفق المتحرر كلياً من اهتزازات هذا العالم وتشويشاته الناشطة على مدار الساعة.

ولا ينبغي الذهاب إلى هنا أو هناك لارتياد تلك الآفاق التي يحلو شد الرحال إليها وبلوغ مرابعها الغنّاء ولو بعد عناء. إنه عندما يستطيع الإنسان توجيه أفكاره وأمانيه في مسارات محددة وتغذية طموحاته بأشواق متجددة وممارسة طرق علمية وعملية ممارسة صحيحة، يمكنه إذ ذاك شد الرحال إلى مشارف الوعي الكوني الذي استقطب اهتمام الأديب الكبير عباس العقاد الذي كانت له طريقته الخاصة في تحليل ذلك الوعي والتبصير به.

أفكار عن الأفكار

الأفكار كرقع الثلج المنهمرة على سفح جبل بعيد، تتراكم وتتكدس إلى أن يؤدي تراكمها إلى بلورة حقيقة كبيرة واندفاعها بقوة متعاظمة لا يمكن الوقوف بوجهها أو مقاومتها.

الأفكار العظيمة هي كالأعمال العظيمة، لا تحتاج إلى (شبّابة وطبل ومزمار) أي إلى من يروج لها ويعلن عنها لأنها تتحدث عن نفسها بوضوح وجلاء.

تباً للأفكار الظلامية التعيسة التي تشبه كتل الجليد الكثيفة في الغدران والسواقي؛ تعيق مسار الفكر وتسبب له التصادم والارتطام بدل التوافق والانسجام.

الأفكار هي كالأمواج المندفعة على سطح المحيط أثناء الليل، تكون أكثر ما تكون لمعاناً عندما تنخفض سرعتها وتصبح حركتها منسجمة مع صفحة المحيط.

أفكارنا هي كمياه البحر المالحة التي تفقد ملوحتها عند تصاعدها نحو طبقات الجو العليا لتتساقط فيما بعد زخات خفيفة ولطيفة من المحبة والكياسة على من حولنا من أهل وأصدقاء.

ما أجمل تلك الأفكار الندية التي تشبه القبّرة في جمال ريشها ورشاقتها وانطلاقها بسلاسة وعفوية في مساحات الفضاء.

الفكر البشري هو كالبندول الجبار الذي لا ينفك متأرجحا من طرف إلى آخر دون أن يهدأ أو يتوقف عن الحركة.

بعض الأفكار تفقس في ظلام العقل كما تفقس الأسماك العمياء في الكهوف العميقة الظلماء. لا نستطيع رؤيتها ولا تستطيع رؤيتنا. ولكن عاجلا أم آجلا سيبزغ نور الفجر ونبصر تلك الأسماك على حقيقتها تماما كما هي.

إن حضور الفكر مؤنس كحضور شخص عزيز. غالباً ما نظن أننا لن ننسى ذلك الفكر، ولكن من غاب عن العين سلاه القلب! إذ أن أكثر الأفكار جمالا قد يغيب عن بالنا ثم يبتعد وننساه ما لم يكن مكتوباً فنعاود استذكاره من جديد.

الأفكار العذبة هي كالنحلة التي تستجمع العسل بارتشاف رحيق الأزهار وخزنه في خلايا القفير.

الأفكار الجميلة هي كهبات النسيم العليل في اليوم القائظ، تلطف هموم القلب وتمنح للنفس سكينة وطمأنينة.

الأفكار هي عالم لا حدود له ولا قيود، وأجمل الأفكار هي المتجددة، المنسجمة، وذات النتائج الإيجابية والخواتيم الحميدة.

الوضوح في علم الروح

بين الحين والآخر أتجول في مواقع عربية وإنكليزية لأستطلع فكرة هنا ورأيا هناك، محاولا استخلاص ما يمكن استخلاصه من أفكار والإستفادة منها على قدر ما تحتويه من غذاء معنوي وعلمي وروحي. فالمعرفة هي ذات أصل كوني واحد، والعقول هي بمثابة أسلاك وقنوات تنتقل منها تلك الأفكار إلى كل من يرغب في التوصل إليها أو التناغم معها.

ومع أن الفكر أو التفكير الجاد هو أقل نسبياً من الأفكار الخفيفة العابرة لسبب واضح هو أن التفكير الجدي يلزمه تركيز والتركيز يلزمه طاقة والطاقة هي عنصر حيوي من مقومات الجسم والعقل معا، وباستهلاكها يشعر الشخص بالوهن وبالحاجة إلى الراحة لاستعادة ما فقده والتعويض عما صرفه.

أما التفكير الخفيف والعابر فغالباً ما يكون في الأساس مطروقاً وسهل التداول بحيث لا يقتضي الغوص في يمّ أو التنقيب في منجم، فهو موجود بوفرة وما على الشخص إلا أن يحسن التناول والتداول.

هذا بالطبع لا يقلل من قيمة الأفكار العابرة أو التفكير الخفيف، فنحن جميعاً نستعمل هذا النوع من التفكير في كل يوم بل في كل ساعة، أو ربما في كل لحظة من لحظات عمرنا، لدرجة أنه أصبح طبيعة ثانية بحيث بالكاد نشعر أو نعرف أننا نفكر إلا إذا راقبنا أفكارنا ورصدنا نشاطها وتفاعلاتها.

والآن لنعد إلى الوضوح في علم الروح. لا بد أن القارئ الكريم يدرك أن هناك مواقعَ مخصصة لهذا العلم، بل لهذه العلوم، لأن أصحابها يصفوها ويصنفوها الآن على أنها علوم ذات درجات. ولكن ما أن يشرع الشخص بقراءة بعض المقاطع حتى يتبادر إلى ذهنه السؤال: ما الذي يحاول السيد الكاتب أو عالم الروح أن يقوله هنا، وهل هناك فعلاً ما يمكن أن يقال، وإذا كان الأمر كذلك فما هي الفكرة الجوهرية وما هو سبيل التوصل إليها؟؟؟ هذا أقوله لأن تلك المواضيع على كثرتها هي على جانب كبير من التشويش والاضطراب ومجانبة المنطق والسداد.

المفكرون الروحيون لا يمتهنون التفكير كهواية، بل أولا وقبل كل شيء يقفون وقفات جادة ورصينة مع تلك التيارات التي تعتمل في أدمغتهم، فيقيّموها ويغربلوها ويمحصوها محاولين معرفة غثها من ثمينها وهزيلها من سمينها، حتى إذا ما اطمأنوا إلى سلامتها وكانت لهم الرغبة في تقديمها كغذاء روحي حيوي للآخرين فعلوا ذلك مع إحساسهم الكامل بالمسؤولية الأدبية أمام كل من سيتلقى أو يتلقف تلك الأفكار.

إذاً التعامل مع الأفكار والمعطيات الروحية هي مسألة جوهرية، وتقديم مثل تلك الأفكار للآخرين يجب أن يصدر عن ضمير حي وفكر سليم ونظيف لأن الأفكار هي غذاء للعقل والجسم معاً. أما إن أطلقنا العقل من العقال فراح ينط هنا وهناك وفي كل اتجاه ويتشرب كل ما يعرض له من أمور تطابق أو لا تطابق المنطق والصواب، ويعود لنا بخلطة غريبة من المكونات، فلا ينبغي لنا أن نضعها في طنجرة واحدة ونطبخ منها مخلوطة حلوة حامضة مالحة مرة مذقة ونقدمها للجائعين دون التفكير بما قد تنطوي عليه تلك الطبخة من مخاطر، أقلها وجع البطن وعسر الهضم.

وهذا بالضبط ما يقوم به بعض المتصيدين الروحيين. فما أن تقرأ لهم بعض السطور حتى يراودك الشك إما بنظافة بضاعتهم، أو بقدرتهم على الكتابة وتوصيل أفكارهم بصورة سلسة وسليمة إلى القارئ، بعيدا عن الأحاجي اللفظية والقفز البلهواني على حبال الاستعمالات اللغوية دون طائل. إن كانت الفكرة سليمة ودسمة فهناك سبل لائقة

وفي غاية البساطة لتوصيلها إلى المتلقي دون تمويه أو لف ودوران.
الكتابة واجب وللكلمة شرفها، ولهذا قيل: كلمة شرف. ومن يأنس في نفسه الكتابة، لا سيما في الروحيات عليه أن يحترم القارئ، إذ قد يكون القارئ – أي قارئ – أذكى من الكاتب وأطول باعاً، فكراً ولغة، وأثبت قدماً على دروب الحياة.
إن مقالاً (روحياً) نقرؤه ولا نخرج منه بفائدة تذكر هو أشبه ما يكون بـ (عكك اللبّاد أو قضم الهواء)، إذ لا فائدة ترجى من هكذا مقالات، ولا أعرف لماذا يتطوع أصحابها في تعليم الناس روحياً وهم أنفسهم بحاجة إلى أن يتعلموا أبجديات الروحية وأساسياتها.
على ما يبدو أن هناك من أقنعوا أنفسهم أو أقنعهم مشجعوهم بأنهم معلمون وحكماء تُشد إليهم الرحال في كل حال ويشار إليهم بالبنان، وأنهم اكتسبوا علوماً ما ورائية وبلغوا آفاقا بعيدة وعسيرة المرتقى كما لو أن عملاقاً من عمالقة الدهر قذفهم بمقلاعه الجبار فهبطوا – لحسن حظهم – على برج عاجي فاستقروا حيث هم وراحوا يجودون بعلومهم اللدنية تكرما على المريدين ومحبة في إيقاظهم من سبات الجهل.
إننا ننصح هؤلاء (الحكماء) ممن ضربوا أخماسهم بأسداس عند تطوعهم لتعليم الناس كي يعيدوا الحساب ويلتزموا المنطق والصواب، لأنه في النهاية لا يصح عند الله غير الصحيح ولو نطح المرء السحاب وتمكن من قبض الزئبق ومصارعة الريح.

محصول العقول

العقول القديمة هي كالجياد المسنة التي ينبغي تمرينها إن أردتها أن تعمل كما تريد.
العقول الصغيرة هي كالحليب الذي سريعا ما يحمّض وتطلع رائحته.
العقل هو كالورقة البيضاء التي تحتفظ أكثر ما تحتفظ بالانطباعات التي تستقبلها بوتيرة متكررة.
عمل العقل يشبه عمل المهندس الذي يقوم ببناء المنصات تحت الماء العميق. فالعمل يتواصل والبناء يرتفع لكنه مع ذلك يبقى مغمورا تحت صفحة الماء. إنه عميق الأسس وموجود بالفعل، لكنه محجوب عن الأنظار.
عقولنا هي كالعربات (التي تجرها الأحصنة على الطرقات غير المعبدة)، تحدث ضجة وجعجعة عندما تكون حمولتها قليلة، لكنها تسير سيراً وئيداً وهادئا عندما تكون مثقلة بالأحمال.
عقل الرجل الحكيم هو كأجواء القمر، في غاية السكينة والرصانة.

العقل الضعيف هو كالميكروسكوب الذي يكبّر الأشياء الصغيرة لكن لا قدرة له على معاينة وإظهار الأشياء الكبيرة.

عندما يزخر العقل بدروس الحكمة يصبح كقائد المركبة القوي الحكيم الذي يكبح في المرء جماح الشهوات الوضيعة المنغرسة في الطبيعة البشرية ويسير به على دروب الفضيلة والصلاح.

العقل هو كالصندوق الذي إن وُضعت فيه الأشياء بترتيب وتوضيب يتسع للكثير منها. لكن مجال استيعابه يتقلص إلى حد كبير عندما يتم وضع الأشياء فيه كيفما اتفق، دون ترتيب.

الأفكار المريضة هي كالمرضى الذين يعانون من الحمى المرتفعة ، هم يحاولون تخفيف حرارة حمتهم بشرب كميات كبيرة من الماء، لكن حرارة الحمى تواصل ارتفاعها مما يزيدهم مضايقة وألما.

عقل الإنسان هو كالبحر الذي لا يستمتع الناظر إليه أو المبحر فيه أثناء هدوئه التام أو هيجانه العاصف. لكن كليهما يبتهج بمنظره عندما تحرك مياهه هبات الريح اللطيفة. وهكذا عقل الإنسان عندما تحركه الأشواق العميقة وتستحثه العواطف الرقيقة.

العقل هو كالعين التي بالرغم من قدرتها على رؤية كل شيء تقريباً لا تستطيع رؤية ذاتها، ولذلك لا تستطيع الحكم على ذاتها.

مثلما يتم استصلاح الأرض وتحسينها بمناوبة زرعها بمحاصيل مختلفة، هكذا يتقوى العقل ويصبح مثمرا بالدراسات المتشعبة والأفكار المتنوعة.

الفكر هو كالمعدة التي تثير شهيتها وتستحث عصاراتها الهاضمة الأطعمةُ الشهية على اختلافها.

مهما كانت التربة غنية لا يمكنها أن تأتي بمحصول وفير ما لم يتم استصلاحها وتخصيبها. وبالمثل لا يمكن للعقل أن يأتي بأفكار صحية وصحيحة ما لم يتم تشذيبه وتهذيبه.

العقل النظيف هو كالمرآة الصقيلة التي تنعكس فيها الأشياء غير النظيفة لكنها مع ذلك تحافظ على صفائها دون أن تتأثر إطلاقاً بطبيعة تلك الأشياء.

العنب: ذلك الثمر المبارك

في المثل الشعبي (في آب اقطف العنقود ولا تهاب)

بما أننا في شهر آب (٢٠٠٦) موسم الأعناب، أحببت أن أكتب هذه الخواطر في ثمار العنب المباركة التي هي رمز طبيعي مميز من رموز جبل العرب الأشم.

لقد خلق الله ثمار الأرض ووضع فيها منافعَ جمة يحتاج لها الإنسان في نموه والحفاظ على صحته طوال مسيرة العمر. وكأن الطبيعة قد هيأت الإنسان دون سواه كي يقتات أكثر ما يقتات على الفواكه بالدرجة الأولى، لأن تكوينه الطبيعي لا يساعده – دون أدوات اصطناعية – على اقتناص غذائه كما تفعل ذوات المخلب والناب. ومن يتفحص تكوين اليدين والأسنان يرَ أن أصابع يد الإنسان وأسنانه معدّة بكيفية خاصة لتناول ثمار الأرض. فأصابع اليد مصممة خصيصا لقطف الثمر والأسنان مركبة تركيبا فريدا للطحن لا للتمزيق ، بل وأن كلمة القطف هي ذات صلة وثيقة بهذا التكوين الجسماني، ومن هنا العبارة الكريمة (دانيات القطوف)، وهذه حقائق علمية قامت عليها دراسات متخصصة أثبتت صحتها.

وثمرة العنب الكريمة هي من أقدم الثمار التي استزرعها الإنسان عبر التاريخ، وأَلِف منظر حبيباتها المتناسقة الشكل وعناقيدها ذات التكوين الرائع والألوان البديعة. ويقال أن هناك أكثر من ٦٠ فصيلة من فصائل العنب في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية. ودوالي العنب تتسلق بالاستعانة بخيوط صغيرة متجعدة تدعى الحوالق أي عروق التسلق التي تتمسك بها الغصون المتسلقة. أما الأوراق البسيطة فتشبه القلب من حيث التكوين وكأنها علامة من علامات الترحيب!

هناك عشرات الأصناف التي تنمو في أمريكا الشمالية، ومعظم الأصناف في الولايات الشرقية تنمو في أواخر الربيع وأول الصيف، وتنضج ثمارها في نهاية الصيف وأول الخريف.

والأعناب هي غذاء مفضل للطيور والحيوانات ذات الفراء. أما الدوالي فتوفر ملجأ آمنا للطيور التي تلجأ إليها وتعشش فيها، وتجد في لحاء جذوعها مصدراً جيداً لبناء الأعشاش.

لقد استعمل هنود أمريكا العنب البري كمصدر للغذاء، وتعلموا طريقة تجفيفه ليصبح زبيباً حلواً يأكلونه في فصل الشتاء القارس. أما الرواد الأوروبيون الأوائل فقد استثمروا تلك الأعناب البرية كما كانوا يستثمرون المدجنة منها في بلدانهم الأصلية.

ويقال أن هناك أكثر من ١٥٠٠ صنفا من أصناف العنب الموجودة في كافة بلدان العالم، حيث الأجواء المعتدلة والتربة الملائمة.

وبالإضافة إلى البلدان العربية المنتجة للعنب، فهناك بلدان أوروبية مثل ألمانيا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا والأرجنتين والتشيلي وأستراليا، وكلها تنتج العنب بكميات وفيرة.

عندما وفد المستوطنون الأوائل إلى أمريكا الشمالية جلبوا معهم أغراس العنب، لكن

أصابها التلف بسبب برودة الشتاء الشديدة والحشرات والأمراض العديدة. لذلك راح هؤلاء المستوطنون يدجنون الكرمات المحلية ذات القدرة على مقاومة قمل العنب. وفي مطالع ومنتصف القرن التاسع عشر تم استنبات نوعين من العنب المشهور في أميركا الشمالية. وهذان النوعان لهما قيمة تجارية كبيرة في شرقي الولايات المتحدة وفي كندا.
هناك خمس فصائل وأكثر من ألف نوع من الأعناب الأمريكية الأصلية. ومعظم الأعناب في أمريكا الشمالية المستخدمة للأكل والعصير وصنع النبيذ يتم إنتاجها في مقاطعة أونتاريو الكندية وفي كل من ولايات نيويورك وأوهايو وميشيغن وميزوري وجورجيا وألاباما. كما تنتج الأعناب تجارياً في كل من ولايات كاليفورنيا وواشنطن وأوريغون وأريزونا والجزء الغربي من ولاية تكساس.
وتنتج ولاية كاليفورنيا نحو ٨٠ بالمائة من العنب في الولايات المتحدة، ومعظم أنواع زبيب كاليفورنيا بدون بزور. والأعناب المخصصة للزبيب يتم تجفيفها في الهواء الطلق. وتعتبر كاليفورنيا أكبر منتج للزبيب في العالم، بحيث تنتج ٤٠٪ من الإنتاج العالمي للزبيب. كما يستعمل بزور العنب لاستخراج الزيت الذي يستعمل في الطبخ وفي أنواع الدهان، ويتم كذلك إنتاج حمض الطرطير من مخلفات العنب.
ويبقى عنب الجبل هو الأشهى والأجمل والأطيب وقعاً في النفس:

اقطفْ أعنابَكَ حيثُ شئتَ إنما

ما النكهةُ إلا لعنقود الجبلِ

ريان من جبل الريانِ نكهتهُ

تدنيكَ من جبل العز عل عجلِ

وقفة مع الحُب

كتبنا في أمور شتى وتطرقنا إلى أفكار قديمة وجديدة وتأملنا أقوالاً لفلاسفة ومفكرين وشعراء وذوي تجارب، وقد آن الأوان لوقفة مع الحب ولكن...
الحب الذي سأكتب عنه أو أترجم الأقوال التي قيلت فيه ليس ذلك الحب العاطفي الذي نرى الواقعين فيه يعبّرون عن غرامهم بآهاتهم وتنهداتهم وتأوهاتهم في الأفلام

السينمائية والفيديو كليبات والقصص الرخيصة والأغاني المذقة التي تبعث أحيانا على الغثيان. فما ذكرته قد يكون حبا بالنسبة للذين يعيشونه ويريدون أن تصل أخبار حبهم إلى أربعة أركان المعمورة، لكنه ليس كذلك بالنسبة لي.

الحب واقع أكيد لا يمكن نكرانه والحب ليس من صنع الإنسان فهو عنصر معنوي قائم بذاته له خواصه وقوانينه، مثلما له أغراضه وغاياته. هناك أنواع عديدة ودرجات متفاوتة من الحب، مثل حب الآباء والأمهات لأبنائهم وحب أبنائهم لهم، وحب الأصدقاء لبعضهم، وحب الوطن وحب الهوايات والقائمة تطول. لكنني سأتطرق هنا إلى الحب بين الرجل والمرأة، إذ لهذا الحب غاية نبيلة وهي تقريب نفسين من بعضهما وخلق ذلك التجاذب بينهما لغاية واحدة هي الزواج، لأن الحياة يجب أن تستمر والزواج هو تلك الوسيلة لاستمرارية الحياة ومواصلة النسل.

تبدأ إرهاصات هذا الحب أول ما تبدأ في سن الشباب وهي الفترة التي تقوم الطبيعة فيها بالإعداد والتحضير لمرحلة قادمة عندما يقوى التجاذب بين الشاب والفتاة ويتعمق الحب بحيث يصبح الإتحاد بينهما قاب قوسين أو أدنى. ولحسن الحظ هناك ضوابط اجتماعية في البلدان المحافظة تتحكم بسير هذه المراحل مما يجنب الإثنين عواقب ومحاذير كثيراً ما تكون آثارها السلبية مدمرة على المستويين الشخصي والاجتماعي.

إذاً الحياة أو الطبيعة أو القوة الإلهية تغرس ذلك الشعور القوي الجامح الذي يصعب مقاومته في قلب الشاب والفتاة تحضيرا لعلاقة مشروعة ستثمر ثماراً بشرية وتلك هي غاية الحياة.

فمن هذه الناحية الحب جميل ومشروع ورائع ونقي ونظيف ويكون استجابة تلقائية لنداء الحياة وله لذة يعرفها المحبون أو الأحباب إن شئتم. وهذا الحب الذي يكون على أشده في المراحل الأولى قد لا يستمر بنفس القوة والزخم، لكن هناك طرقاً ووسائل تساعد على المحافظة عليه وتنميته بين الزوج والزوجة ونقله فيما بعد إلى الأولاد. فالزواج المبني على المحبة والإحترام لا بد أن تكون ثمرته أبناء أصحاء نفسيا وجسديا فيلعبون دورا فاعلا في المجتمع وبذلك يؤدون رسالة نبيلة في الحياة.

ها قد وضعنا المقدمة للحب التلقائي النقي، النظيف الشريف العفيف، ولننتقل الآن إلى الأقوال في هذا الحب الذي أرجو أن يُنظر إليه على أساس ما تقدم:

يأتي وقت يذوب فيه الرجال والنساء حبا وشوقا لتلك الوجدانيات التي هي جزء لا يتجزأ

من كيانهم وكينونتهم.
الحب الحقيقي مؤسس على الإحترام المتبادل بين الرجل والمرأة.
إن أحببت حبيبك أو حبيبتك محبة صافية نقية فستحب الجميع بذلك الحب. فالقلب في هذا النعيم هو كالشمس في أجواز الفضاء لا تترك شيئا إلا وتغمره بالدفء والضياء.
الحب يعطي ذاته فلا يباع ولا يشرى.
لم يكن الحب بالنسبة لروحه الوالهة مجرد جزء من كيانه وحسب بل كان كيانه بأسره وأنفاسه ونبضات قلبه.
لست من ناكري الحب من أول نظرة، ولكني أحب إعادة النظر.
قد تكون العاطفة عمياء، لكن الحب مبصر فلا يضل السبيل.
الحب الحقيقي هو أن نقنع أنفسنا بأن ما من أحد شعر بالحب الذي نحس به في قلوبنا ولن يشعر أحد بنفس ذلك الحب من بعدنا.
الحب لا يُفقد أبداً. فإن لم يُبادل بمثله يعود إلى القلب فينقيه ويرققه.
إن تمكن أبسط الرجال من إقناع المرأة بأنه يحبها فعلا من أعماقه يكون قد تفوق بذلك على رجل غني عجز عن مثل ذلك الإقناع. فالمرأة بحاجة كي تطمئن بأن الرجل الذي ستعيش معه سيبقى بجانبها دوما وسيكون الصدر الحنون لهمومها واليد الأمينة التي تعمل على إسعادها.
الحب بالنسبة للرجل جزء من حياته، أما بالنسبة للمرأة فحياتها كلها.
الحب الذي هو فصل من فصول التاريخ بالنسبة للرجل هو التاريخ بأسره بالنسبة للمرأة.
روح المرأة تعيش في الحب.
ليكن الحب غير مشروط بين المحبين وليكن الصخرة التي تتكسر عليها مصائب وهموم الحياة، وليكن بدون غايات شخصية وإلا عاجلا أو آجلا سيذهب مع الريح ولن يبقى ملازما للروح.
الحب هو صورة الله وليس تمثالا لا حياة فيه. إنه الجوهر الحي للطبيعة المقدسة التي تشرق بالطيبة والصلاح.
شعار ذوي الشهامة والشرف هو شعار الحكماء: تخدم وتحترم الجميع ولكن تحتفظ بقلبك لشخص واحد.
الرجل الذي تحبه امرأة عفيفة وشريفة يحمل تميمة مباركة في أعماقه توقيه شرور العالم

وعثرات الحياة.
لقد استمتعتُ بمباهج الحياة، لأنني عشتُ وأحببتُ.
ما من شيء أعظم من الحب الصادق الصافي بين قلبين.
الحب المتبادل هو تتويج لكل أفراح الحياة.
من الأفضل أن يحب الإنسان ويخسر ذلك الحب من أن لا يحب على الإطلاق.
يا لها من خيوط حب رقيقة ودقيقة تلك التي تقرّب القلوب من بعضها.
الكنوز المخبأة بالنسبة للرجل ليست أثمن من الحب الأكيد الذي يحمله له قلب المرأة التي يحبها.
الحب لا يعرف الحساب بل يعطي بدون حساب كالمسرف الذي لا يخشى عواقب التبذير، ويظل مع ذلك غير مقتنع بأنه أعطى بما فيه الكفاية.
لم أتمكن يوما من تعليل السبب لحبي.
الحب العظيم هو الذي يحافظ على زخمه وولائه حتى النفس الأخير.
الأيام تَقْصُرُ والليالي تطول، وشواهد القبور تتكاثر من حولنا والحياة تكتنفها الأحزان، لكن الحب يزداد قوة في قلوب الذين يبقون معا يدا بيد، قلبا وقالبا حتى نهاية العمر.
الحب هو كالزهرة التي قد لا ألمسها لكنها تعطر جو الحديقة وتزيده بهجة.
الحب ينظر من خلال التلسكوب والغيرة من خلال الميكروسكوب. (أي الحب ينظر نظرات بعيدة واسعة والغيرة تدقق و'تبحبش' في الصغائر)
الحب هو فضيلة المرأة.
الحب جميل عندما يسعى الإنسان في طلبه، ولكنه أجمل عندما يُعطى دون طلب.
أعظم سعادة في الحياة هي قناعتنا بأننا محبوبون بالرغم من كل شوائبنا واستحقاقاتنا.
ما من كبل أو حبل – مهما كان متينا – له القدرة على تقريب القلوب من بعضها كما يفعل خيط الحب الرفيع!

هيلين كيللر معجزة الزمان

ولدت هيلين آدمز كيللر في العام ١٨٨٠، وكانت من مشاهير الكتاب والمحاضرين

الأمريكيين. لقد فقدت حاستيّ البصر والسمع منذ طفولتها ونتيجة لذلك عاشت مكفوفة، صماء و(خرساء إلى حين). ومع ذلك فقد تمكنت من الاستمتاع بمباهج الحياة ومسراتها، وعاشت حياة طبيعية بفضل قواها العقلية المتيقظة وإرادتها الجبارة التي لم تعرف الإنكسار أو الخذلان.

ولقد كان لمربيتها الآنسة آن سوليفان الفضل الأكبر في تحفيزها وإلهامها الإيمان بقدراتها الهاجعة فتغلبت – بالصبر والمثابرة والمحاولات المتكررة – على إعاقتها المثلثة ففاقت المبصرين السامعين والفصحاء بأشواط بعيدة، وتلك هي المعجزة.

تعرضت هيلين في طفولتها لمرض خطير قبل بلوغها سن الثانية مما عطل فيها حاستي البصر والسمع، وعلى مدى سنين طويلة بقيت قواها الكلامية في طور الهجوع.

عند بلوغها سن الثامنة طلب أبواها من الآنسة سوليفان التي كانت تعمل آنذاك في معهد بيركنز للمكفوفين كي تأتي إلى بيتهما في ولاية آلاباما لتتولى تعليم هيلين. فلبت الطلب وقامت بتعليمها لغة المكفوفين والصُم والخُرس عن طريق حاسة اللمس. وقد تم تصميم آلة كاتبة خاصة بها، تمكنت هيلين بواسطتها من تدوين كتاباتها والإعراب عما يجول في خاطرها.

تعلمت تدريجيا كيف تنطق الكلمات، مبدئيا بكيفية غير سليمة، ولكنها أتقنت فيما بعد مخارج الحروف وتمكنت من نطق العبارات نطقاً سليما حسب الأصول، وكان الناس يقبلون إقبالا منقطع النظير على محاضراتها مدركين أنهم أمام إحدى الظواهر العجيبة التي نادراً ما تكررها الحياة.

لقد درست في كليتيّ رايت هيوماسون وكيمبريدج في مدينة بوسطن حيث تخرجت في العام ١٩٠٠ بدرجة امتياز بعد إكمالها أربع سنوات متواصلة من الدراسة. وخلال تلك الفترة كانت الآنسة سوليفان رفيقتها الملازمة لها طوال الوقت، تحضر معها كل الفصول الدراسية وتكرر لها (باستعمال لغة الإشارة عن طريق اليد) كل المحاضرات والحوارات التي يتم إلقاؤها أو إجراؤها.

ولعل الإنجاز الأكبر والأهم لهيلين هو ذلك التفاؤل المشرق الذي ميّز شخصيتها وساعدها طوال حياتها على تخطي العقبات والصعاب، فكأنه كان عينها التي تبصر من خلالها وأذنها التي تسمع بها.

لقد كتبت هيلين الكثير الكثير من المقالات والموضوعات والرسائل وتوجّت عطاءاتها الأدبية بتدوين سيرة حياتها، وأيضا بوضع الكتب التالية: التفاؤل، العالم الذي أعيش به،

أغنية الجدار الحجري، والخروج من الظلام.
لقد عملت طوال حياتها على مساعدة الصم والمكفوفين وكانت من المدافعات المتحمسات عن حقوق المرأة، إلى أن انتقلت إلى جوار بارئها في العام ١٩٦٨.
تلك نبذة وجيزة عن المرأة الخالدة هيلين كيلير التي تحدت المستحيل فأحرزت الفوز المبين وتركت بصمات لا تمحى على صفحات التاريخ الإنساني الذي يفخر برائعته النادرة هيلين.

عندما يستبد الجشع بالنفوس: قصة واقعية

لو أن وقائع هذه القصة حدثت في عصر الإنترنت لكانت تفاصيلها متوفرة لكل من يرغب في الإطلاع عليها. إنما حدثت في مطلع الثمانينات من القرن الماضي وقد تناقلتها الصحف آنذاك، ومنها صحيفة ديترويت نيوز التي ذكرت القصة ووضعت صورة (بطلها) بجانبها . ومع أنني لا زلت أذكر إسم الشخص المحوري في هذه القصة لكنني سأشير إليه بكلمة (فلان) احتراماً للشرفاء من عائلته سواء في لبنان أو سوريا. وهذا ما أذكره من تلك الحكاية:
كان فلان الذي ينتمي إلى أسرة لبنانية عريقة لها جذور في سورية قد هاجر إلى الولايات المتحدة، وكانت له شقيقة أيضا تعيش في أمريكا. وبحسب الوقائع الأولية للحادثة التي سأتطرق إليها، فإن فلان (الذي كان قد اشترى بوليصة تأمين عالية على حياته قبل الحادثة بفترة قصيرة) قد أصابه حادث مرّوع في كراج بيته عندما كان يعمل تحت سيارته المرفوعة، وقد اشتعلت النار في السيارة فتفحم جسمه أو كاد، ولم يبق من ملامح وجهه ما يساعد على التعرف عليه. وكانت كل القرائن تشير إلى أنه قضى جراء ذلك الحادث الأليم، وعلى هذا الأساس كانت نهايته الحزينة.
بعد ذلك حصلت اتصالات بين شركة التأمين على الحياة وشقيقة فلان بصفتها وكيلته القانونية في أمريكا. وقد بلغت المعاملات مرحلة متقدمة بحيث كانت الشركة على وشك أن تصرف للشقيقة القيمة الكاملة للتأمين (حوالي المليون دولار)، لكن أحد محاميي الشركة أبدى اقتراحاً أخيرا أدى إلى اكتشاف جريمة فظيعة.
الاقتراح كان كالآتي: صحيح أن فلان قضى في ذلك الحادث المؤسف ولم نتمكن من الحصول على صورة لوجهه لنقارنها بصورته الموجودة لدينا كإجراء اعتيادي، لكن ما رأيكم لو قمنا بتصوير أسنانه وطلبنا من طبيب الأسنان الخاص به أن يخبرنا بالنتيجة،

وهذا ما حدث. فقد تم الكشف على الجثمان وأُخذت عدة صور للأسنان. بعد ذلك أُعطيت تلك الصور إلى طبيب الأسنان الذي كان يعالج أسنان فلان وطُلب منه مقارنة تلك الصور بصور الأشعة المتوفرة لديه، فكانت النتيجة أن الأسنان ليست لنفس الشخص، وهنا ابتدأت خيوط الجريمة تتبدى.

عند ذلك تم إبلاغ السلطات المختصة لتتولى كشف الجريمة وملابساتها. وقد بيّنت التحقيقات ما يلي:

فلان غادر بالفعل الولايات المتحدة وهو ما زال حياً يرزق في لبنان. وقبل سفره دلت الوقائع على أنه طلب من أحد الأشخاص كي يأتي إلي بيته ويقوم ببعض التصليحات على سيارته، وفي غفلة من ذلك الشخص المسكين سكب فلان البنزين على الشخص وأشعل فيه النار فاحترق وكانت تلك نهايته المأساوية. وقد فعل ذلك كي يوهم الجهات المختصة بأنه هو (أي فلان) الذي احترق وهناك (استحقاقات له) سيحصل عليها فيما بعد.

حاولت السلطات الأمريكية استعادة فلان من لبنان، لكن ذلك كان صعباً بسبب ظروف الحرب الأهلية. وقد أكد شهود عيان أنه فعلا موجود وربما بانتظار الموعود! ولما أجرت وسائل الإعلام مقابلة مع وجيه تلك الأسرة الكريمة كان جوابه: إن ثبت أنه بالفعل ارتكب تلك الجريمة فينبغي أن يجلس على الكرسي الكهربائي (أي يُعدم).

أما بخصوص شقيقة فلان التي كانت وكيلته في التأمين على الحياة، فقد حلفت يميناً قاطعة بأنها لم تعلم بما فعله شقيقها ولو علمت لما رغبت في استلام قرش واحد من ذلك المال الحرام.

لقد فعل فلان تلك الفعلة النكراء لعل وعسى أن يقبض مالا – بغض النظر عن طريقة تحصليه – لكنه باء بالفشل في الدنيا ولا بد أن للآخرة حساباً بل حسابات أدق بكثير من حسابات البشر.

صحيح أن حوادث من هذا النوع تنعكس سلباً على الجالية وأبنائها، لكن الجالية العربية لا تقاس بمثل هؤلاء ، إذ فيها ما يكفي من الشرفاء وذوي المبادئ النبيلة الذين تفخر الجالية بهم وترفع رأسها عاليا.

من أفكارهم تعرفونهم

بينما كنت أتجول في مواقع الإنترنت العربية، توقفت اليوم عند إحداها ولم أكن أعرف

بوجوده من قبل. وبدافع الفضول تصفحت بعض مواضيعه (الروحية) المزوقة، بما تحتويه من كلمات ملساء ناعمة (في أنيابها العطبُ) ومن صور توضيحية لممارسات تأملية لا يصعب تقييمها ومعرفة محتواها ومستواها وما يكمن خلفها من تضليل وتدجيل.

لم أقرأ الكثير مما في تلك المواقع، ولكن ما قرأته أعطاني فكرة كافية عن أصل تلك الأفكار الهدامة التي يحاول أصحابها إيصالها إلى الباحثين عما هو جديد في الحياة من مفاهيم وتيارات وتمارين ونظريات وتوجهات عصرية.

ومما استقطب انتباهي تلك الدعوة (وللأسف باللغة العربية الشريفة) إلى عدم التقيد بالأخلاق من أجل تحقيق الذات. ولست أدري كيف يمكن لأي إنسان عاقل وذي إرادة حرة وضمير يقظ أن يلغي الأخلاق من حياته على أساس أنها قيود تحد من حريته وتكبّل شخصيته التي (ينبغي أن تنطلق على هواها) عملا بمبدأ الحرية الفردية والإنطلاق نحو اللا محدود.

وأصحاب تلك المواقع يبدو أنهم رافضون لفكرة الأديان والمعتقدات والأولياء والقديسين، وبعبارة أخرى لكل ما هو نور يضيء الدرب أو تعليم سليم يوصل إلى الرب. وهم يزيّنون أفكارهم بتعابير وتعبيرات غاية في الرقة والفلسفة والوعود الوردية بحياة أرق وأرقى وأرفع وأروع من الحياة العادية حتى ولو كانت مؤسسة على المبادئ السليمة والأخلاق القويمة.

بكل بساطة وجدت أن هؤلاء الدعاة إلى تلك المفاهيم هم إباحيون بامتياز وينبغي توخي الحذر من أفكارهم المدمرة التي لا تقوم على أسس خلقية بل بالأحرى تدعو إلى نسف الأخلاقيات من أساسها.

الحيوانات لا تلام لعدم مراعاتها الأخلاق لأنها غير مهيأة لذلك وغير مكلفة بمخالفة غرائزها التي تسيّرها في كل صغيرة وكبيرة. لكن الإنسان، وبالرغم من امتلاكه بعض الصفات الحيوانية، مطلوب منه إلهياً أن يسمو على تلك الغرائز وأن لا يمجدها أو يدعو الآخرين إلى تمجيدها. لقد منحه الله العقل ومنحه قوى التمييز التي بواسطتها يمكنه أن يكسب المعركة في لعبة شد الحبل ما بين الحواس وأشواقه الروحية، ما بين ما هو رفيع وما هو وضيع.

ما من شيء ذي قيمة يمكن الحصول عليه في الحياة دون بذل مجهود كافٍ ومكافئ لذلك الشيء. وبذل المجهود بحد ذاته يكمن ضمن منظومة الأخلاق البشرية التي هي ليست من صنع الإنسان بل منبثقة عن قوانين ونواميس إلهية عليا قائمة بذاتها لا تخضع للتغيير أو التبديل على مر العصور والحقب والدهور.

ولولا تلك النواميس لضاع الإنسان ولضل سبيله ولعمّت الفوضى المجتمعات بل والأرض وما عليها. ولولا الأخلاق الرادعة لاستسهل الناس الحصول على كل شيء دون مجهود مثل اللجوء إلى السرقة وقطع الطرق والابتزاز والغش والنصب الإحتيال.

ولعل ناثر تلك البذور الخبيثة عاش متحللا من كل قيد وفلسَفَ الحياة على هواه وجعل نفسه إلها فعبد ذاته وشجع الآخرين على عبادته. لقد تجرأ ذلك العقل المريض على كل ما هو مقدس في الحياة، فهزأ بالحكماء والقديسين، وسخر من الفضيلة والتقوى، وازدرى بكل المبادئ السامية ولم يحترم في الوجود سوى ذاته، فاعتبر نفسه إله الآلهة وسيد الوجود غير منازع.

ومن المؤلم أن يتطوع من ينقل تلك الأفكار الهدامة إلى لغتنا العربية المؤسسة أصلا على تقديس الفضيلة والإيمان بالرسل والأنبياء والأولياء والرسالات السماوية. لكن للأسف هناك من يتجاوب مع تلك الأفكار ويعتبرها فتحاً عصرياً في دنيا جديدة يجب أن تكون بعيدة عن كل ما هو ثابت ومألوف.

ولكن بالنسبة لمعتنقي تلك الأفكار، سيثوبون إلى رشدهم عاجلا أم آجلا، لأنهم يسيرون في طريق مسدود حتى ولو كان مفروشاً بالورود، ولا بد أن يغيروا الإتجاه بعد اللطمات المذلة والمفاجئات التي لن يُحسدوا عليها. إن حياة غير مؤسسة على الفضيلة – بحسب ما ينادي به المتفلتون أو الفلتانون – هي حياة فاشلة وميئوس منها.

صحيح أن لكل جديد لذة، ولكن الحطيئة وجد طعم الموت غير لذيذ نظراً لتلك الخبطة التي له في الفم. وهذا ينطبق على السائرين في طرق عصرية جديدة محفوفة بالمخاطر ويكتنفها الغموض، وهي أشبه ما تكون بقفزة في المجهول قد لا تحمد عقباها.

وللذين ينصحون الباحثين عن السعادة بعدم التقيد بمبادئ الأخلاق نقول بئس النصح نصحهم، فاستثمارهم فاشل وتجارتهم بائرة، فمن ثمارهم تعرفونهم وثمارهم هي تعاليمهم. ونقول لهم:

إن فارقَ الإنسانُ أخلاقاً لهُ

لا فرقَ بين المرء والحيوانِ

ولأعزائنا المتشوقين لكل جديد ننصحهم بالتمسك بالفضيلة والمبادئ السامية قائلين:

حبّوا الفضيلةْ وحدها طليقةْ

ما من سواها حرٌ في الخليقةْ

ترشدكمْ صعوداً للأعالي

إلى ذرىً أعلى من الجبالِ

وجوه تسبّح الخالق...

خطر ببالي اليوم أن أكتب عن الوجوه.. تلك الصحائف البادية للعيان، التي تنطوي صفحاتها على ما تنطوي عليه من أسرار وانطباعات وأفكار وانفعالات وقصص وحكايات وفصول وآيات لا تكاد تعرف بداية أو نهاية. فهي دائمة الظهور والتعاقب على تلك المرآة البشرية السحرية التي تلتقط وتبرز ما تعجز عن التقاطه وإبرازه أدق آلات وأجهزة التصوير، حتى الديجيتال منها!

وقبل التعمق في هذه الاستنتاجات المتواضعة أود التأكيد عن إيماني الذاتي بأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق النفوس من نوره الرباني خلقها متساوية لأنه الحق والحقيقة والعدل والعدالة المطلقة. ومن هنا نستدل أن النفوس عند انبثاقها عن ذلك الجوهر الرباني كانت غاية في النقاء والصفاء والطيبة، بنقاء وصفاء وطيبة عنصرها الإلهي الذي صدرت عنه. لكن تلك النفوس أو بعضها أو غالبيتها لم تحافظ على نقائها لأسباب عديدة فانعكست الآثار في الوجوه، ولعل حرية الإرادة والإختيار هي الكلمة المفتاحية لما سنتطرق إليه هنا.

والآن وبتعبير أبو صياح (وين المشكلة)؟

المشكلة أو السبب في تباين الوجوه ليس من حيث التعابير الطبيعية وحسب بل من حيث نوعية تلك التعابير التي يتراوح تصنيفها ما بين شريرة وملائكية وما يدخل بين هذين التصنيفين من تصنيفات أخرى سنحاول ذكر بعضها بعد قليل.

إذاً لقد أسسنا هذه النظرية على اعتبار أن النفوس خُلقت متساوية بالجوهر وأن ما خفي وظهر فيها من شوائب وعيوب هي كلها من صنع الإنسان نفسه. وقبل عقد المقارنة بين الوجوه لا بد أن أذكر هنا أنه على قدر وجود قوى الخير في الكون، التي تعمل لصالح الإنسان، هناك أيضا قوى شريرة تحاول إغراء الإنسان وإغراقه، ودفعه إلى مهاوي الخلل

ومهابط الزلل حيث الشر في الإنتظار، تماما مثلما ينتظر العنكبوت وقوع فريسته في بيته الواهي ولكن الناجع في الاقتناص والاقتصاص. وبعد هذه المقدمة فلنتحدث عن الوجوه: وكما ذكرنا في العنوان.. هناك وجوه تسبح الخالق وتبعث البهجة في نفس من يراها.

ولكن هناك أيضاً وجوهاً لا يحبذ أحد رؤيتها، لا سيما الاستصباح بها لأنه كما يقال (تقطع الرزق).

هناك وجوه تشع لطفاً وطيبة ومحبة، ووجوه تنبعث منها أو تصدر عنها روائح تزكم الأنوف وتؤذي الأذواق.

هناك وجوه تبعث على الراحة والثقة والطمأنينة ووجوه تُحدِثُ رؤيتها شعوراً قويا من الإرتياب وعدم الإرتياح.

هناك وجوه تقرأ فيها معاني النبل والسمو والشهامة، ووجوه تنبئ عما يتحلى به أصحابها من مخاتلة ولؤم وخداع.

هناك وجوه لا تشبع من النظر إليها ووجوه لا تطيق رؤيتها ثانية.

هناك وجوه تؤكد لك صدق أصحابها ووجوه تقول بفصاحة أن حظ أصحابها من المصداقية قليل وهزيل.

هناك وجوه تحمل على جباهها عبارة (موضع ثقة) ووجوه يقول محياها لم يحسن القراءة (خذ حذرك ولا تقترب!)

هناك وجوه هي بذاتها تسبيحة ودعاء وبركة من السماء ، ووجوه تطلق تقاطيعها الشتائم في كل موقع وموقف.

هناك وجوه تراها لأول مرة فتشعر بانعطاف قوي نحوها وتود لو تديم النظر فيها، ووجوه كذلك تراها لأول مرة فتنقبض أساريرك لانبعاث كهرباء خفية منها غير مرئية لكنها محسوسة وملموسة دون أدنى شك.

هناك وجوه حلوة كالفاكهة الناضجة، ووجوه فجة كالحصرم أو أشد حموضة.

هناك وجوه كالشمس عند إشراقها أو قبيل غروبها ووجوه كالحة كالدخان الكثيف أو أكثر قتامة.

هناك وجوه تحتفي بك وتهش للقياك، ووجوه أنشف من رمل الصحاري في أيام الصيف القائظ.

هناك وجوه تقرأ قلوب أصحابها من خلال النظر إليها، ووجوه مستترة ومغلفة بألف حجاب.

هناك وجوه كالورد الجوري حسناً وعطرا ورواءً ووجوه كالأشواك الحادة أو الأعشاب المتطفلة.
هناك وجوه كالكتاب المفتوح ووجوه كالطلاسم الغامضة.
هناك وجوه كالربيع الزاهر ووجوه كالشتاء الكئيب.
هناك وجوه كالبدر عند اكتماله ووجوه كالقمر عند خسوفه.
هناك وجوه كغيث الخير ووجوه كالبَرَد المدمر.
هناك وجوه تقول تقاطيعها (إبشر، قريباً دعوتَ) ووجوه لا تكف عن التفكير في ما يمكنها تحصيله منك بأية طريقة.
هناك وجوه رؤيتها كالبلسم الشافي ووجوه مرآها يستدعي الاستعاذة بالله.
وليس آخرا، هناك وجوه كالمجرّة في اتساع أفقها وعمقها وأسرارها، ووجوه كزوبعة ولكن في فنجان.

مشاهد من الهند

الهند هي صورة مصغرة عن العالم في كل شيء. فهي بلد كل الأجواء والمناخات والأديان والأعمال والفنون والشعوب والمناظر واللغات والثقافات على اختلافها.
الحضارة الهندية تعود إلى آلاف السنين، وقد ترك حكامها وحكماؤها ومرشدوها سجلات تشهد بوجود وأصالة الحضارة الآرية في بلاد الهند والسند.
الكثير من السواح الأوروبيين يزورون الهند ويشاهدون في شوارعها بعض السحرة وبالعي السيوف والحواة من مروضي الأفاعي فيظنون أن هذا أفضل ما يمكن أن تقدمه الهند، غير مدركين أن هؤلاء لا يمثلون الهند. إن حياة الهند الحقيقية وحيويتها تكمن في ثقافتها الروحية التي جعلتها بوتقة الأديان والمعتقدات من عصور سحيقة.
صحيح أن الغرب باستطاعته تعليم الهند الكثير من الطرق الصحية وأساليب ومبادئ التجارة وتنمية وتطوير الموارد الطبيعية والبشرية. وصحيح أن الهند بحاجة إلى أرباب عمل عباقرة من أمثال هنري فورد وتوماس أديسون، لكن العالم الغربي هو أيضا ظمآن شعورياً أو لاشعورياً وبحاجة إلى الدروس الروحية العملية التي تخصصت بها الهند على مر العصور.
لقد تقدم العلم كثيرا في المدن الغربية وخطا خطوات واسعة وحثيثة بحيث أصبحت احتياجات الإنسان المادية من مأوى ومأكل وملبس متوفرة ومتاحة دون كبير عناء. لكن الراحة الفيزيقية والمادية دون الراحة النفسية والسلام والعزاء الروحي لا تكفي. الهند

هي مصلح كبير وملهم للعقول والنفوس، بالرغم من عدم الاعتراف بهذه الحقيقة.
وتراث الهند الأعظم والأغنى يكمن في الوسائل والطرق الروحية التي اكتشفها علماء الروح الهنود من ذوي الرؤى والحكماء المتنورين على مدى القرون. ذلك التراث ساهم ويساهم بثقافة الإنسان الروحية العلمية.
الهند هي بلاد الأسرار، لكنها أسرار لا تفتح قلبها إلا للمتعاطفين معها، الباحثين عن الحقيقة بجد وإخلاص.
الهند تمتلك أعلى وأروع جبال الدنيا: الهملايا. أما دارجيلنغ في شمال الهند فهي سويسرا الهند من حيث الجمال الطبيعي الأخاذ. وتمتلك أطلالا قديمة لقلاع وحصون فريدة ولقصور الأمراء في دلهي، مثلما تمتلك نهر الغانج العريض ومرتفعات الهملايا حيث كهوف وخلوات التأمل على نور الله وحكمته.
وتفخر مدينة أغرا في الهند بأحد روائع الدنيا ألا وهو صرح التاج محل ذروة الفن المعماري وأجمل أحلام البشر المجسدة في الرخام الصقيل والمرمر البديع تخليدا للحب البشري.
وفي الهند أيضا غابات داكنة وأحراش كثيفة حيث تصول النمور والأسود، كما تتمتع الهند بسماء زرقاء تزداد روعة وجمالا عند الأصيل حيث تتحول أشعة الشمس إلى كتلة من اللهب البرتقالي المشتعل. وفي الهند أيضا صنوف وألوان لا حصر لها من الفواكه والخضروات الشرقية وأجناس عديدة من البشر، وكلها تتضافر لتجعل من الهند بوتقة مدهشة عجيبة رائعة تعصى على النسيان.
الهند هي أرض التناقضات الكبرى، حيث الغنى الفاحش والفقر المدقع، وحيث ذروة النقاء العقلي والحياة العادية الخشنة. في الهند سيارات الرولز رويس والعربات التي تجرها الثيران، مثلما فيها الفيلة ذات الهوادج المزخرفة والعربات الفخمة التي تجرها الخيول المطهمة.
في شمال الهند نجد أناساً ذوي عيون زرقاء وشعور شقراء، أما في الجنوب الأكثر حرارة فنبصر البشرات السمراء التي لوحتها حرارة الشمس الاستوائية. فمن البداية وحتى النهاية نجد أن الهند هي بالفعل بلد المفاجآت والتناقضات. الحياة تصبح مملة إن هي سارت على وتيرة واحدة. أما في الهند فيشعر الشخص أن الحياة مغامرة كبرى ذات مفاجآت وأسرار لم تخطر على البال من قبل.
قد لا تمتلك الهند ناطحات سحاب مادية ولا وسائل ترف وترفيه عصرية زائدة ترهق

الأعصاب الروحية. صحيح أن للهند عيوبها كما لكل الأمم عيوبها، لكن الهند تمتلك ناطحات سحاب روحية: عمالقة روح يتحلون بالتواضع والواقعية وباستطاعتهم تعليم إخوتهم في الإنسانية كيفية استخلاص الفرح الروحي الكامل من أي ظرف من ظروف الحياة.
وهؤلاء الصوفيون ذوو الأسس العلمية الذين عرفوا الحق والحقيقة بجهودهم وتجربتهم الذاتية يمكنهم مساعدة الآخرين على تطوير بصيرتهم واستخراج مياه السلام والرضاء المنعشة من تربة حياتهم اليومية.

رؤية أثيرية عند الغروب

يصف الشاعر الحكيم رؤيته إذ يقول:
من شرفتي رنوت ببصري نحو الغرب، فانطلقتُ على أجنحة الخيال ووقفت على شواطئ الأفق البعيد. وقد أبصرت عن يميني وشمالي سلسلتين من الجبال ما لبثتا أن تحولتا إلى لون بنفسجي غامض. وعندما أعدت النظر إليهما كانت يد خفية قد غلفتهما بغلالة من اللون الأزرق الغامق. وكانت تقبع خلفي مدينة وادي الحجارة Guadalajara المغمورة بشفق الغروب.
أما السماء الشرقية فقد باتت موشحة بألوان وردية خفيفة. وإذ تطلعت إلى الأمام أبصرتْ عيناي مدينة سحرية من الجُزر الزرقاء السابحة في بحيرة من ذهب.
وفي أرخبيل الجُزر الزرقاء السحرية هذا برزت تلة ضخمة من الكلس الأزرق كانت تحيط بها سحب بركانية بلون أبيض رمادي وهي تقذف فوارات من حمم بلون الذهب الأحمر الوهاج، تتساقط مائلة كقوس قزح نحو البحيرة الساكنة. أما اللهب الذهبي الكثيف فقد أحاط الجزر الزرقاء بهالات ضوئية مشتعلة.
القمة الزرقاء وتاجها اللهبي انعكسا كتوأمين على صفحة تلك البحيرة الذهبية الصامتة. وإلى أقصى اليمين كانت بحيرة هادئة صغيرة مشعشعة وقد توسدت صدر إحدى الجُزر الزرقاء كالبدر السابح وسط أمواج الغيوم.
لقد تجولتُ طويلا في مدينة الغروب والغيوم السرابية، عائماً على سطح البحيرة ذات الضوء الذهبي الرقيق. ويا لروعة تلك المياه الذهبية المرصعة بعناقيد الجليد الحمراء المنتشرة في كل اتجاه حتى حافة الأبدية.
خِلتُ أن حوريات صغيرة من النور كانت أرواحاً طيبة على هذه الأرض، وبعد اجتيازها بنجاح كل امتحانات الحياة سُمح لها كي تمرح وتجسد أحلامها حسبما شاءت. كل يوم عند

ساعة الغروب كانت تلك الحوريات تكثف أحلامها السماوية في مدن أثيرية تحيط بها بحور وبحيرات من ذهب. هناك وخلف قبضة الأحزان وما وراء مصائد هذا العالم الأرضي بما فيه من مآس وآلام.. هناك ما وراء المنغصات كانت تلك الكائنات تتنفس أضواءً حمراء وتشرب أشعة برتقالية وتنأى وتدنو وتسرح وتسبح في خضم أنوار متعددة الألوان.

هنا كانت تلك الحوريات تحقق أحلامها وتجسد خيالاتها على الفور مثلما تريد، ثم تذيبها وتلاشيها بإرادتها.

هنا كانت تنعم تلك الكائنات بكنوز القناعة والرضى وتجود بتحقيق أحلام كل من يزورها في عالمها السحري العجيب.

هنا لم يحتم عليها الإنتظار والتمني كالبشر كي تتحقق أحلامها وتدرك أمانيها، بل حلمت كما شاءت وحققت كل تلك الأحلام والأماني بمحض إرادتها.

مدينة الغروب تلك في جزر الأحلام كانت حلماً من أحلامي المتناومة في طيات اللاشعور وقد تحقق اليوم أيما تحقيق. حقاً لقد أبصرتُ كنوز روحي الدفينة وذخائرها المخبئة فغمرني نورها وبهرني سطوعها!

أمرسون: فيلسوف أمريكا التوحيدي الأشهر

ولد الفيلسوف الأمريكي رالف والدو أمرسون سنة ١٨٠٣ في مدينة بوسطن بولاية ماساتشوستس الأمريكية وكان يكتب مقالات مستفيضة وينظم شعراً رائعاً رائقاً تشوبه مشحة من غموض وتميزه لمسة من تصوف. وما زالت كتاباته منبع إلهام ثر للطامحين إلى المثل العليا النبيلة والسلوك القويم السليم.

كانت فلسفته تتمحور حول الاعتماد على الذات والحرية الفردية سواء في الحياة الفكرية أو الدينية. وهذه المثل التي وضعها أمام الشباب في بلاده وجدت تجسيدا كاملا في شخصية أمرسون نفسه. وفي الأبيات الأخيرة من مقالته الملهمة (الإعتماد على الذات) نجد خلاصة مذهبه وأفكاره حيث يقول مخاطباً الشباب:

'استخدموا إرادتكم

واعملوا بجد وعزيمة

للحصول على ما تسعون إليه،

وبذلك تضعون العراقيل

أمام عجلة الفشل
فتأمّنون من دورانها حولكم
والتفافها عليكم.
ما من شيء يمكن أن يجلب لكم السلام
سوى أنفسكم.
وما من شيء يمكن أن يمنحكم الطمأنينة وراحة النفس
غير انتصار مبادئكم.'

دخل أمرسون جامعة هارفارد عندما كان في الرابعة عشرة من عمره وتخرج منها بعد أربع سنين. وبعد مغادرته الجامعة علّم في المدارس ودرّس اللاهوت. وفي العام ١٨٢٩ تمت رسامته كأستاذ دين في المذهب التوحيدي (يونيتيريان). لقد كان ذا ميول روحية قوية وعميقة لكنه لم يكن ملتزما بالطقوس الكنسية التقليدية. وفي عام ١٨٣٢ ترك نشاطه الديني ورسم لذاته نهجاً جديداً ككاتب ومحاضر.

في العام ١٨٣٣ قام بأولى زياراته إلى أوروبا حيث التقى هناك بالفلاسفة والشعراء الأوروبيين من أمثال لاندور وكولريدج ووردزورث وكارليل الذي عقد معه صداقة وثيقة دامت مدى الحياة.

في عام ١٨٣٥ تزوج وانتقل إلى كونكورد حيث عاش بقية حياته قريباً من جيرانه الذين أصبحوا فيما بعد من مشاهير النهضة الأدبية في أمريكا مثل أسرة ألكوت وهاثورن وتلميذه الفيلسوف الكبير ثورو. وفي نفس السنة شرع بإلقاء سلسلة محاضرات أدبية وفسلفية في بوسطن استمرت حتى عام ١٨٣٧، وهي نفس السنة التي ألقى فيها خطبته الشهيرة (العلاّمة الأمريكي) التي وصفها أكبر أدباء أمريكا آنذاك أوليفر وندل هولمس بأنها إعلان استقلال العقل الأمريكي. وفي العام ١٨٣٦ نشر كتابه الأول بعنوان (الطبيعة) وهذا الكتاب يلخّص أكثر من أي كتاب آخر من كتبه نظراته وقناعاته بحرية الشخص الفردية التي اعتبرها قدس الأقداس.

أما سلسلة محاضراته فقد اشتملت على محاضرات رائعة مثل (الإعتماد على الذات) و (التعويض) و الذات العليا. وفي عام ١٨٤٤ نشر سلسلة ثانية من المحاضرات. وفي هذه الفترة ارتبط مع مجموعة من الأدباء في نيو إنغلاند عرفوا بأصحاب مذهب التسامي. ولفترة وجيزة تولى تحرير صحيفتهم (ذا دايل).

في العام ١٨٤٧ نشر أول ديوان شعر له وقد زار أوروبا ثانية حيث ألقى سلسلة من المحاضرات وألف كتابه الرائع (خاصيات الشعب الإنكليزي). ومن كتاباته النثرية الأخرى (سلوك الحياة) و(مجتمع العزلة). وظل يكتب ويحاضر حتى العام ١٨٧٠ حيث أخذت صحته بالتدهور، وقد أمضى آخر سنيه بهدوء وسكينة في كونكورد، ودفن في مقبرة (سليبي هولو) الجميلة بالقرب من ضريح ناثانيال هاثورن.

لقد كانت كتابات أمرسون أصيلة ومميزة بفضل سمو الأفكار والتطلعات البعيدة التي حوتها تلك الكتابات. وما زالت آراؤه بعيدة التأثير على كل محبي التفكير العميق والجاد. أما أشعاره فهي شبيهة بمقالاته من حيث العمق والرصانة والنظرة التأملية. ومع أنها لم تنل الشهرة التي نالتها أشعار لونغفلو أو ويتمَن، لكنها تحتوي على مقطوعات تعتبر من قمم الأدب الأمريكي.

لقد احتفظ أمرسون بمثله العليا وشجاعته وحريته حتى آخر أيام حياته، فعاش طبقاً للمبادئ التي نادى بها ومات على تلك المبادئ السامية فاستحق التكريم والتخليد كأحد أعظم الفلاسفة والأدباء الأمريكيين على الإطلاق.

عملاق سوري في أمريكا

نشرت في صحيفة تشرين

هذه ليست محاولة للتدليل على صلة القرابة بيني وبين الفنان القدير غسان مسعود، فأنا لم يحصل لي بعد شرف التعرف عليه شخصيا، وقد عرفت بوجوده لأول مرة من خلال (تل الرماد) وغيره من المسلسلات السورية الرائعة. وأستميح الفنانين والفنانات السورين المتألقين عذرا في التركيز هنا على غسان مسعود، مع أنني أكن للجميع تقديرا وإعجابا لارتقائهم بالفن العربي إلى هذا المستوى الرفيع من الإبداع المتواصل والفتوحات المدهشة وغير المتوقعة في دنيا الفن العجيبة.

طبيعي أن أرى غسان مسعود في الأفلام العربية وأن يكون له جمهور من المعجبين العرب. أما أن يمتلك فناننا الكبير حضوراً قوياً ومتميزاً على الساحة الأمريكية من خلال أحد أكثر أفلام هوليود شعبية وإثارة أعني (مملكة الجنة) فهذه مسألة غير عادية، بل وحدث استثنائي لم يكن في الحسبان، لا سيما في هذه الظروف غير العادية والتنميطات الآخذة

في الانطباع والترسّخ عن العرب والمسلمين.

وفجأة يظهر عملاق سوري على شاشات الآلاف من دور العرض في آن واحد. ترى كيف حدث هذا ومن هو هذا العبقري غسان مسعود الذي بهر الناس بقدرته الفائقة على تجسيد أحد أهم الشخصيات في تاريخ العالم: صلاح الدين الأيوبي؟

لا بد أن الكثير من الكتاب العرب قد تناولوا هذا الحدث بالشرح والتعليق، ولا بد أن السوريين – وأنا أحدهم – يشعرون جميعاً بالإعتزاز بهذا الإنجاز الضخم الذي أوصل أحد النجوم السوريين إلى مستوى العالمية، حيث دخل غسان مسعود هوليود من أوسع بواباتها وفرض حضوره وأداءه على المشاهد الأمريكي.

لقد بدا محاطاً بهالة من الوقار التي تليق بأعاظم الرجال، وكانت كلماته الرصينة بالإنكليزية التي لا غبار عليها، وحركاته الوئيدة ونظراته الثاقبة تتحدث بفصاحة وبلاغة عن المستوى الرفيع الذي وصل إليه الفن في البلاد العربية. ولا بد أن شيخ الفنانين غسان مسعود قد درس شخصية صلاح الدين دراسة متعمقة من كافة نواحيها حتى تمكن من تجسيدها بكل أبعادها، وكأننا رأينا صلاح الدين يوسف بن أيوب رأي العين في هذا القرن الواحد والعشرين.

ولو كان غسان مسعود متواجدا في أي من دور العرض الأمريكية لتهافت الناس عليه قصد مصافحته وتهنئته وأخذ توقيعه. وإنني أتمنى من كل قلبي أن يكون العرب كل العرب قد استقبلوا هذا النجاح الباهر لهذا الفنان السوري الكبير بالتهليل والترحاب لأنه إشعاع متألق في سماء الأمة العربية جمعاء.

كل طلعة قبالها نزلة

الأفراح والأحزان في الميزان

الإنسان هو أكثر المخلوقات بهجة على الإطلاق، لأن ما فوقه وما دونه من كائنات إما جادٌ أو واجمٌ.

الحزن يمشي بتثاقل على رمال الحياة، ويترك آثاراً لا يمكن ليد الزمن أن تمحوها بسهولة.

الفرح أكثر قدسية من الحزن، لأن الفرح خبز الحياة والحزن دواؤها.

الحزن يشبه طبقة من الصدأ على صفحة الروح وكل فكرة جديدة تساعد على حك

وفرك ذلك الصدأ وبالتالي حلحلته وإزالته.
إن أفراحي من أفراح أصدقائي فإذ يشرق نور الفرح على صديقي ينعكس شعاعه عليّ، وإن أضاء شمعته فبإمكاني إضاءة شمعتي من شعلتها.
الحزن يشوش العقل ويؤثر به تأثيراً بالغا، فيقلب الصباح مساء والظهيرة ليلا أسود.
الفرح العظيم – لا سيما بعد تغير مفاجئ في الأحداث – غالبا ما يكون فرحا صامتاً يسكن القلب بدل اللسان.
كلما كان الحزن عميقاً كلما صعُبَ التعبير عنه بالكلام.
سعادتنا لا تتوقف على مقدار ما نملكه من أشياء بل بقدر ما نستمتع بالأشياء التي نملكها.
كلما تحدثنا عن أحزاننا كلما ضاعفنا معاناتنا دون تعزيز قدرتنا على تحمل تلك الأحزان.
سعادتنا أو شقاؤنا يتوقفان على الطريقة التي نواجه بها تجارب الحياة أكثر من تأثرنا بتلك التجارب والأحداث.
أحيانا نبصر من خلال دمعة صافية صامتة أبعد مما يمكن للتلسكوبات أن تظهره لنا.
إن فتشنا عن السعادة طمعا بها فلن نعثر عليها، أما إن التمسناها محبة بالواجب فستتبعنا كالظل في يوم مشمس.
ملاك الحزن هو الذي ينزع عنا القيود التي تكبلنا بهذه الأرض التعيسة فتخف أعباؤنا ونصبح أكثر قدرة على الإنطلاق نحو الآفاق.
لا يحق للذين لم يُخضعوا ميولهم وأهواءهم لمبادئهم ومُثلهم أن يتحدثوا عن السعادة.
طريق الحزن هو الطريق الصحراوي الوحيد المؤدي إلى الواحة التي لا تعرف الأحزان.
وما من مسافر قطع ذلك الطريق إلاّ واعترضت سبيله الأشواك وأشجار العليق.
الشهم يتضاعف فرحه عندما يشارك الآخرين بأفراحه.
ما من حزن على هذه الأرض لا تقوى السماء على شفائه.
من يرغب في اكتساب الفرح فليعمل على إسعاد الآخرين.
العقل ينتفع من ركام الأحزان، والطريق إلى الحكمة يقاس بمدى ما عانيناه أثناء السفر.
السعادة هي كالفراشة التي إن نحن تعقبناها عجزنا عن الإمساك بها، ولكن إن جلسنا بهدوء فقد تقترب منا وتحط علينا.
من تغمره النعم ومع ذلك يبقى محباً للحزن والنكد يستحق أن يقضي سغباً وسط الخيرات وأن يشقى بالعيش وسط مسرات الحياة.

لو رغبنا في السعادة لحصلنا عليها، لكننا نرغب في أن نكون أسعد من غيرنا ولذلك يصعب علينا تحقيق السعادة لأننا نطلب ما لا سبيل لتحقيقه.

من يتعاطف مع الآخرين في أحزانهم ويشاركهم خواطرهم يتحرر تدريجياً من الحزن.

أما الذي يفرح بمصائب الناس ويستخف بأحزانهم فسوف تزوره المصائب والأحزان عاجلا أم آجلا وسيكون نصيبه منها وفراً.

السعادة تكمن في تحقيق رغباتنا ما دامت تلك الرغبات سليمة ومشروعة.

الإنسان المنتصر في معركة الحياة يحمل معاناته كوسام شرف على صدره.

سعادة الإنسان وقوته تكمنان في معرفة الطريق الصحيح الذي يريده له الله والسير في ذلك الطريق.

ذكرى الأحزان تمنح الأفراح الحاضرة حلاوة ونكهة فريدة.

لا يحتاج الحكيم للكثير كي يصبح سعيدا، أما الأحمق فلا شيء يسعده ولهذا السبب فإن معظم البشر تعساء!

سنيّ الأفراح تمر سريعة كالدقائق، أما الأحزان فتمر دقائقها متباطئة كالسنين.

السعادة تتوقف على الذوق لا على الأشياء. فسعادتنا تعتمد على رضائنا بما نملكه وليس على ما يعتبره الآخرون مناسباً لنا.

الإنغماس المفرط في الحزن حماقة، أما عدم الشعور بالحزن على الإطلاق فقلة إحساس أو لنقل بلادة.

السعادة هي كضوء الشمس الذي تحجبه الظلال مهما كانت صغيرة.

أما المصائب فكمطر الربيع الخفيف (الرهام) الذي يرطب جفاف النفس ويروي زرعها.

السعادة هي كقناع إيزيس الذي لم يتمكن إنسان بعد من رفعه عن ذلك الوجه الغامض.

أحزاننا تشبه غيوم العواصف الرعدية التي تبدو سوداء ربداء عن بُعد لكنها تفقد كثافتها ولونها القاتم مع اقترابها منا.

المجهود الذي نبذله لإقناع الآخرين بأننا سعداء يفوق ما نبذله من جهد لتحقيق السعادة.

الحزن الذي يطلب المواساة والعزاء من الآخرين ليس حزنا كبيرا ولا ينبع من أعماق القلب.

السعادة المزيفة كالعملة المزورة، قد ينخدع بها الناس لفترة ما وقد تخدم أغراضا معينة، ولكن عندما توضع على المحك ينكشف معدنها الوضيع.

ما من دمعة لا تجففها أنامل الصبر ومنديل الزمن.

السعادة هي محصول النفوس الغنية والقلوب الكبيرة.
أحزان النفوس النبيلة تشبه صقيع الربيع الذي يسبق الطقس الجميل المعتدل.
وليس آخرا، وقّاكم ووقانّا الله – أصدقائي – من الأحزان والمكدرات وجعل أيامكم وأيامنا أفراحاً ومسرات.

آفاقٌ وأعماق

لا أدري لماذا اخترت اليوم هذا العنوان قبل التفكير بالموضوع مع أنني غالباً ما أستوحي العنوان من مادة الموضوع نفسه. قد تكون تجربة ذاتية هي التي أوحت العنوان أو قد يكون العنوان هو الذي يدفع باتجاه ما يمكن استشرافه واستقصاؤه على المستويين الذاتي والموضوعي.
الآفاق التي نعرفها جيداً وتعوّدنا النظر إليها هي قريبة وبعيدة في آن، تبدو في المتناول لكن ما أن نحاول الاقتراب منها حتى نجدها دائمة التراجع والابتعاد كالسراب الذي دأبه الوعد والإخلاف والدنو والتقهقر إلى ما لا انتهاء.
هكذا تبدو الآفاق عندما نرنو إليها بعيون الرأس.. محدودة بمجال الرؤية ومتصلة بأبعاد مألوفة لفكر الإنسان وحواسه. وما ينطبق على الآفاق ينطبق أيضاً على الأعماق التي ترمز إليها البحار والمحيطات التي لا يستطيع الإنسان ارتيادها دون وسائل مُساعِدة. وحتى لو تسنى له بلوغها لا يمكنه معاينة سوى حيّز محدود من تلك المساحات الشاسعة المغمورة بالمياه والظلمة الأبدية.
لكن تلك الآفاق المرئية والأعماق المحجوبة ليست كل ما في الوجود من آفاق وأعماق. بل قد تكون هي المفتاح لما هو أبعد أفقاً وأكثر عمقاً وأنجع ارتياداً لكل من يطمح للوصول إلى غير المألوف ولا يرضى عن الريادة بديلا.
لقد تحدث بعض فلاسفة الروح النظريين عن أشواق الإنسان وطموحاته وإمكاناته اللا محدودة. ومنهم من تحدث للقارئ عن كيانه المطلق الذي يحوي في باطنه الزمان والمكان وكل ما فوق الأرض وفي السماوات وما بينهما.
هؤلاء أجادوا فيما كتبوه من الناحيتين النثرية والجمالية فجاءت كتاباتهم قصائدَ رائعة أو كما قيل في شعر البحتري كسلاسل الذهب.
نقرأ تلك الوجدانيات فتحرك خيالنا أكثر مما تلهب وتلهم أشواقنا لأنها في تقديري المتواضع مستوحاة من دنيا الخيال الرحبة التي لا تبخل على من يقصدها ويغرف من

أنهارها الرقراقة.
أما إن أردنا إعادة تشكيل تلك الأوصاف البديعة وترجمتها إلى أصولها الذاتية محاولين ملامسة جوهرها نكتشف أن الجوهر الذي حاولنا تحسسه لا وجود له أصلا إلا في فكر الكاتب، وندرك عندئذ أن تجربته هي فردية ولا يمكن تعميمها والتحقق منها. فهي قد تكون تجربة واقعية بالنسبة له لكنها ليس بالضرورة للذين كتب لهم وحاول إقناعهم.
وعدم التحقق من تجارب الآخرين الذاتية لا ينفي وجود الآفاق والأعماق لأنها موجودة أصلا بما ترمز إليه المظاهر الطبيعية التي ألمحنا إليها أعلاه.
وهنا يبرز التحدي وربما تسنح الفرصة أيضاً لتفعيل إمكاناتنا الذاتية ومحاولة النفاذ ولو بدرجة متواضعة من تلك الأبعاد التي تحيط بنا وتوعز لنا بالمحدودية والقيود.
لقد ارتاد الإنسان الآفاق التقليدية. فالذي وصل إلى القمر وأوصل مخترعاته إلى المريخ وما بعده هو رائد متفوق بكل المعايير، وكذلك الذي استطاع انتشال الكنوز الدفينة من قيعان البحار هو في الطليعة من بين الرواد. وهذا ينطبق أيضا على كل من يطرق أي بابٍ موصد أو طريق غير ممهد.
ومع ذلك، وبالرغم من كل تلك الريادات والفتوحات التي لا تكاد تقف عند حد يبقى قلب الإنسان دائم الشوق والحنين إلى شيء آخر قريب وبعيد، محسوس وأثيري، حقيقي وخيالي كونه صعب التحقيق، عسير المرتقى بالرغم من سهولة اليقين بوجوده.
ذلك الشيء نتطلع إليه شوقاً كأنه في الأفق البعيد وينتابنا الحنين لملاقاته والتفاعل معه كما لو كان في أعماقنا ولا يعوزنا سوى الاتصال به في لحظة خارج نطاق الزمن ولكن هيهات وما هو السبيل!؟
إن كنا نحس بذلك الشوق فلا بد من وجود ما نشتاق إليه. كيف لا وقد أحس به المطرب الراحل فهد بلان وقالها حارّة من الأعماق (مشتاق أنا والعليم الله) !!
إذاً ذلك العنصر اللازم لاكتمال وجودنا وتحقيق أمانينا موجود فعلا وتربطنا به صلة وثيقة. ففي كل ما نفكر به أو نفعله أو نسعى إليه أو نتحدث عنه نحاول دوماً امتلاك ذلك العنصر وجعْله خاصتنا بشتى الوسائل والطرق.
ذلك الشيء القريب البعيد يدغدغ أحلامنا فنحلم بما هو معقول، وأحياناً بما هو غير معقول، على أمل الوصول إلى تلك الآفاق التي تستنهضنا وكأنها تنادينا إلى ما هو أبعد من أبعاد هذه الدنيا..

ولعل تلك الآفاق المفقودة والأعماق الموءودة تحتاج إلينا مثلما نحتاج إليها! أجل تحتاج إلى بحثنا العميق وتنقيبنا الدقيق عن تلك الكنوز التي غالباً ما نحس أنها كانت وما زالت لنا ولا بد من العثور عليها حتى يصبح الفردوس مستعاداً، عندئذ يتوقف البحث عن الآفاق وينتهي التنقيب عن الأعماق!

ذكاء فرعوني بامتياز!

قبل الشروع في سرد هذه القصة التي لم أكن قد قرأتها من قبل، وربما لم يكن القراء الكرام أيضا، لا بد من وقفة عند مصدرها. منذ حوالي السنتين ذهبت إلى إحدى المكتبات المتخصصة في جمع وبيع الكتب القديمة في مدينة بيركلي هنا في ولاية ميشيغن، وفور دخولي المكتبة لاحظت كومة من الكتب من بينها موسوعة عليها غبار الزمن فاستقطبتْ انتباهي ورحت أتصفح أجزاءها الثلاثة. وعلى الفور أدركت أنها موسوعة غير عادية فسألت صاحب المكتبة عن ثمنها، فلما رآها قال: 'لم يتسنَ لي بعد تصفحها وتقييمها ولا بد أن تنتظر بضعة أسابيع، إنما أعدك بأن تكون لك الأولوية في شرائها في حال قررت بيعها.' غادرت المكتبة بعد أن اتفقنا على أن أعود في غضون أسابيع. ولدى عودتي قال لي صاحب المكتبة بحسب خبرته في المطبوعات: 'هذه الموسوعة هي بالفعل نادرة لم أكن قد سمعت بها أو رأيتها من قبل وهي طبعة أولى، وأحبذ الإحتفاظ بها لنفسي. ولكن بما أنك اشتريت العديد من الكتب مني، فأريدها أن تكون لك.' اقترح صديقنا بائع الكتب (ماك) سعراً معقولاً للموسوعة فاشتريتها منه بسرور. وبما أن تجليدها كان قد عبثت به يد الزمن فقد استبدلته بتجليد آخر فعادت تلك الأجزاء الثلاثة وكأنها جديدة لأنها مطبوعة على ورق جيد ما زال شبه ناصع. أما اللوحات الكثيرة والرسوم فبعضها بالألوان الطبيعية.

عنوان الموسوعة: عادات وتقاليد المصريين القدماء The Manners and Customs of the Ancient Egyptians تأليف عالم الآثار المصرية صموئيل بيرش قيّم العاديات الشرقية والفرعونية في المتحف البريطاني ورئيس مؤسسة الآثار الكتابية. تاريخ الطبعة ١٨٧٨ وتتناول تاريخ وحياة الفراعنة بأدق تفاصيلها بكيفية تبعث فعلا على الإعجاب وكأن المستر بيرش عايش هؤلاء القوم الذين طواهم الزمن منذ

آلاف السنين. وهناك رسوم توضيحية مستفيضة تدعم الشروح وتؤيد الاستنتاجات بما لا يدع مجالا للارتياب بصحة المعلومات الغزيرة التي تحويها الموسوعة. بقي أن أقول أنه من بين مائة مليون كتاب متوفرة على الإنترنت في ١٣٥٠٠ مكتبة في العالم لا يوجد (الآن) سوى تسع نسخ كاملة من هذه الموسوعة في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا.

والآن إلى القصة الواردة في الصفحة ٨١ وما بعدها من المجلد الأول: يؤكد الباحث والمؤرخ الإغريقي هيرودوتس أن الفرعون رحامسينتينس كان أغنى ملوك مصر على الإطلاق ممن حكموا قبله وبعده. ثروته كانت تقدر بأربعمائة ألف وحدة ذهبية talent وهذه (التالنت) الذهبية كانت عبارة عن وحدة قياس تعادل قدماً مكعبا واحدا. أي أن ذلك الفرعون كان يملك ٤٠٠٠٠٠ قدماً مكعباً من الذهب! ولعل هذا ما يشير إليه القرآن الكريم بالقناطير المقنطرة من الذهب. رحامسينتينس صرف ردحاً من الزمن في جمع تلك الثروة العريضة الهائلة. وقد أمر أحد المهندسين المعماريين كي يقوم بتصميم مبنى حجري ضخم لحفظ ثروته يدعى (الخزنة). أحد جوانب الخزنة كان ملاصقاً للقصر الملكي بحيث كان الملك يستطيع الدخول إلى الخزنة مباشرة من إحدى غرف القصر. لكن المهندس الذي استدعاه الفرعون للقيام بتلك المهمة كان لصاً ذكياً بحيث صمم أحد الأحجار في أحد المداميك السفلى للجدار الخارجي بكيفية يمكن معها لرجلين اثنين أو لرجل واحد قوي سحب الحجر من مكانه والدخول إلى خزينة الملك العامرة. وما أن اكتمل بناء الخزنة حتى وضع الملك كل ذهبه فيها على أساس أنها مكان آمن مأمون من الأيدي والعيون.وعندما شعر المهندس بدنو أجله استدعى ولديه الإثنين وأبلغهما أن مستقبلهما الذهبي مضمون بفعل حيلته وفضل خزينة الملك، وأخبرهما عن موضع الحجر السري وأبعاده وكيفية معالجته بغية الدخول إلى الخزنة. وقال لهما إن أنتما راعيتما الحيطة والحذر فسيكون لكما نصيب وافر في ثروة صاحب الجلالة. بعد وفاة والدهما، وعملاً بنصيحته الأبوية انطلق الأخوان ليلا باتجاه القصر فوجدا الحجر تماماً بحسب المواصفات التي ذكرها لهما المرحوم، فتمكنا من نزعه من مكانه بسهولة ودخلا الخزنة وعادا سالمين غانمين بعد أن أعادا الحجر إلى موضعه. في اليوم التالي، عندما دخل الملك إلى الخزنة لاحظ نقصاً في الذهب الموضوع في

الأواني الفخارية. وبما أنه لم يشك بأحد ولم يرَ منفذا واحدا يشي بدخول اللصوص، وبما أن للخزنة مفتاحاً واحداً هو بيده، فقد ازدادت حيرته ولعب الفأر في عبه. اللصان واصلا زيارتهما للخزنة واستمر تناقص الذهب الذي كان الملك يرصده يوما بعد يوم، فلم يعرف سر ذلك واحتار في أمره. أخيراً قرر أن يضع مصائدَ حول حاويات الذهب لعل وعسى! كالمعتاد تابع الأخوان غزواتهما الليلية، ولكن في هذه المرة ما أن اقترب أحدهما من إحدى الجرار حتى صادته المصيدة التي لم يكن بالإمكان الفكاك منها. فنادى أخاه قائلا ما معناه: (شوفة عينك يا خوي صادني الفخ) وطلب منه على الفور أن يقطع رأسه للتغطية على الجريمة وللحفاظ على حياة شقيقه. راقت الفكرة لشقيقه بالرغم من هولها. وبعد أن تغلب على عواطفه، قطع رأس أخيه وخرج من الطاقة ثم وضع الحجر مكانه وعاد إلى بيته يحمل الرأس بعد أن ترك الجثة داخل الخزنة. ومع طلوع الفجر دخل الملك إلى الخزنة فوجد جثة لإنسان دون رأس. وكالمعتاد لم يعثر على دليل يوحي بدخول أحد إلى الخزنة أو خروجه منها، فكاد يفقد عقله من شدة الذهول. مع ذلك صمم على حل هذا اللغز العجيب فأمر بتعليق الجثة على الحائط الخارجي للقصر وطلب من الحراس أن يتفرسوا في وجوه المارة وأن يلقوا القبض على من تبدو عليه آثار الحزن والانفعال لدى رؤية الجثة المقطوعة الرأس. وكانت أم ذلك الشاب (المقطوع الرأس) قد عرفت بمصيبته فراحت تلح وتلحف على شقيقه كي يفعل ما بوسعه لاسترجاع الجثة ودفنها دفناً لائقا. ومع تلكؤ ولدها في تلبية رغبتها هددته بأنه إن هو لم يفعل ما طلبته منه ستذهب بنفسها إلى الملك وتخبره بالقصة. حاول الابن الاعتذار وتبرير عجزه لكن أمه لم تقبل له عذرا. أخيراً تفتقت حيلته فأحضر عدة أزقاق (مصنوعة من الجلد) وملأها بالخمر ووضعها على ظهور الدواب وساقها إلى حيث الجثة والحراس. وما أن اقترب من الحراس حتى نزع رباط زقين أو ثلاثة، ومع تدفق الخمر راح يضرب رأسه ويولول ويقول بما معناه (راح الخمر يا ناس. يا خسارتي يا حسرتي!). وأخذ يتراكض بين الدواب ويتباكى كما لو كان في حيرة من أمره ولا يعرف ماذا يفعل. عندما رأى الحراس المشهد هرعوا بطاساتهم نحوه وبدلا من أن يساعدوه راحوا يتلقفوا الخمر المسكوب ويعبونه عباً. مبدئيا أخذ الشاب يشتمهم ويتظاهر بالغضب. أخيراً تصنع الهدوء وشكرهم على محاولاتهم في وقف إراقة الخمر، فأعطى لكل منهم

زقاً مكافأة له على مجهوده، ففرحوا بالهدية ودعوه لقضاء الأمسية والشرب معهم. قبلَ صاحبنا دعوة الحراس وأغدق عليهم المزيد من الخمر فشربوا حتى انتشوا وغابوا عن الوعي وغطوا في سبات عميق. وما أن حل الظلام حتى أنزل الشاب جثمان شقيقه ووضعه في كيس وتوجه إلى بيته بعد أن قص شوارب الحراس ولحاهم استخفافاً بهم. عندما سمع الملك بما حدث استشاط غضبا ولا نعرف ما حدث بعد ذلك لذوي اللحى والشوارب المقصوصة. لكن بما أن الملك كان مصمما على اكتشاف هوية السارق، استنبط حيلة جديدة ، إذ طلب من ابنته أن تستقبل في مقصورتها كل من عنده رواية غريبة عجيبة يقصها عليها. وقال لها: 'إن حدث وأتى ذلك اللص وأخبرك بما فعل فينبغي أن تمسكي به وتمنعيه من الهروب'. امتثلت البنت لأمر أبيها الملك. وما أن سمع اللص بالمخطط الملكي الجديد حتى صمم على إفشاله، فقام بقطع ذراع شخص ميت لم يتم دفنه بعد ووضعها تحت ردائه واتجه لمقابلة ابنة الملك.عندما سألته الأميرة عن أغرب شيء فعله في حياته، أجابها: ' إن أغرب ما فعلته يا سيدتي هو أنني قطعت رأس شقيقي الذي وقع في فخ داخل خزينة الملك. وإن أذكى حيلة قمت بها هي أنني سقيت الحراس خمراً حتى سكروا وناموا فأخذت الجثمان من وسطهم وقطعت شواربهم ولحاهم دون أن يشعروا بذلك.' ما أن سمعت الأميرة قصته حتى حاولت الإمساك به فمد نحوها الذراع الميتة فأمسكت بها وهرب صاحبنا تاركاً الذراع بيد الأميرة التي كاد يطير عقلها من شدة الفزع. عندما تناهت آخر الأنباء لجلالة الفرعون اشتعل فضولا لمعرفة هوية ذلك اللص الذي أقضّ مضجعه وسلبه لذة النوم.أخيراً أصدر الفرعون أمراً ملكياً مؤداه أنه إن أفصح ذلك الجاني عن هويته فلن يشمله العفو الملكي وحسب بل سيحصل أيضاً على مكافأة سخية. ما أن سمع اللص بهذا العفو حتى توجه إلى القصر فمثل أمام الملك وقد وثق بكلامه واعترف بأنه هو الجاني.سُر الملك جداً لجرأة الرجل وقد أعجب بذكائه أيما إعجاب إذ اعتبره أذكى إنسان في مملكته فزوجه ابنته وأطلق يده في الخزينة دون رقيب أو حسيب بعد أن أصبح (من عظم الرقبة) أي من أهل الدار!

المال معبود الملايين

اخترت هذا العنوان لما للمال من سطوة وجبروت على الكثير من البشر إن لم نقل على

معظمهم. وقد جسّد شاعرنا العربي القديم هذه الحقيقة بقوله:

رأيتُ الناسَ قد مالوا
إلى من عندهُ مالُ
رأيتُ الناسَ قد ذهبوا
إلى من عندهُ ذهبُ
رأيتُ الناسَ مُنفضّة
إلى من عندهُ فِضّة

ومن المدهش أن الناس على اختلاف مشاربهم ومعتقداتهم التي يعتبرونها ذات أولوية في حياتهم يدينون مع ذلك بالولاء التام لهذا السلطان ذي السطوة الطاغية على العقول والنفوس. وهذه السلعة العالمية تحظى بإقبال منقطع النظير في أي مكان وزمان .وهناك تعبير عامي لا أدري إن كان ما زال مستعملا حتى اليوم وهو (يا مالي) إشارة إلى أن معزّة ذلك الشخص المنعوت بعبارة يا ما لي تعادل أهمية المال في نفس قائلها. ما من شك أن للمال دوراً حيوياً يلعبه في حياة الإنسان والمجتمعات ككل، وأن من العسير تأمين أبسط متطلبات العيش بدونه. ولكن يجب إعطاؤه مكانه الصحيح في الحياة وأن لا يتم تقديمه على ما هو أهم من المال وبذلك أعني المبادئ التي وُجدت قبل المال ولا سطوة للمال على أصحابها المؤمنين بقدسيتها والعاملين بها. صحيح أن الحياة بدون مال صعبة، لكن الأصعب هو تضحية ما هو أغلى من المال في سبيل تحصيل المال. وقد يكون تعليل ذلك بسيطاً جدا. فالمال يأتي إلى اليد ويفارقها (اللهم إن كانت يداً قابضة كالكماشة لا يخرج الزئبق من بين أصابعها) ثم يعود إليها ويفارقها وهكذا دواليك. أما المبادئ التي هي بمثابة مقدسات لمن يعرف قيمتها ويتفانى في المحافظة عليها فإن تم بذلها في سبيل المال فلن يعوض عنها شيء وهيهات أن تعود. وقد أثبتت التجارب أن المتمسكين بتلك المبادئ لن يُحرموا المال ما داموا يبذلون مجهوداً معقولاً ولديهم الرغبة الصادقة في تحصيله بالطرق المشروعة. وكأن في الحياة قانوناً غير مكتوب يقضي بأن من يحترم القيم العليا ويطبقها عمليا في حياته تتحول إلى ما يشبه المغناطيس الذي يجلب إلى صاحبه الخير من حيث يدري ولا يدري. والآن لنقرأ ما يقوله الفلاسفة والأدباء والحكماء والمفكرون عن المال:

الحكيم هو من يضع المال في عقله لا في قلبه.إن جعلَ الإنسانُ المالَ إلهاً فسينقلب عليه شيطاناً.الحب يعمي، لا سيما حب المال!المال كالسماد، تكمن قيمته أكثر ما تكمن في بسطه وتوزيعه على مساحات أوسع.عندما يصرف الشخص ماله في منفعة الآخرين يضع بصمة الله عليه فيتحول إلى تأشيرة دخول إلى السماء.اجمعْ ما استطعت وادخرْ ما استطعت ووزعْ ما استطعت من المال على مستحقيه وستكون أنت الرابح.المال الذي يصرفه الشخص على نفسه دون مشاركة الآخرين به يتحول إلى حجر رُحى ثقيل في عنقه. أما المال الذي يصرفه على الآخرين فيمنحه أجنحة شبيهة بأجنحة الملائكة. الفلسفة التي تنصح الناس باحتقار المال لا تترك أثراً كبيراً في نفوسهم. أعوز الناس إلى المال من يتظاهر باحتقار المال.ما دام الإنسان يمتلك المال فبإمكانه صرفه وتصريفه في الأوجه الصحيحة. أما إن امتلك المالُ الإنسانَ (أي إن أصبح الإنسان مهووساً بالمال) فيتحول المال عندئذ إلى شيطان رجيم يطارد صاحبه في اليقظة والنوم ويسلبه لذة العيش. هناك فرق كبير في نظرتنا للرجل العصامي الذي صنع نفسه بنفسه وللشخص الذي حوّله المال إلى رجل، لأنه شتان ما بين هذا وذاك. أكثر الناس احتقاراً للمال أكثرهم تهافتاً على الأشياء التي لا يمكن تحصيلها بدون المال. المال هو أكبر تاجر للعبيد في العالم.

المال يفعل كل شيء: يعطي بيد ويأخذ بالأخرى. يجعل من الناس شرفاءً وأوغادا، فلاسفة حكماء ومتهورين طائشين ، والقائمة تطول. الثروة هي ورثة خطرة ما لم يكن وارثها راسخاً في الفضل والفضيلة. المال ستارة الأحمق التي تخفي عيوبه ونقائصه عن عيون الناس. مواردنا المالية هي كالأحذية التي ننتعلها. إن كانت ضيقة قرصتنا وضايقتنا. وإن كانت واسعة وكبيرة تسببت في تعثرنا ووقوعنا. عندما سئل الإسكندر المقدوني عن السبب في عدم جمعه وتكديسه للمال أجاب: لم أفعل ذلك خوفاً من أن يصيبني المال بعدوى الفساد.

الذاكرة: ماهيتها وآلياتها

قبل الشروع في الموضوع أود التنويه أن قوة الذاكرة ليست غريبة على شعرائنا وأدبائنا العرب الذين بفضل ذاكراتهم العملاقة حفظوا لنا ديوان العرب الضخم بكل دقائقه

وتفاصيله على مر الأجيال. ومن يحفظ القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة أو كتب الحكمة والمعرفة ينبغي الإحتفاء به والإشادة بذاكرته القوية اللاقطة. الشيخ ناصيف اليازجي والد العلامة الكبير الشيخ ابراهيم اليازجي كان مسيحياً ومع ذلك كان يردد من الذاكرة آيات القرآن الكريم آية فآية وكذلك ديوان المتنبي بيتاً بيتاً، بل وكان أيضاً عالماً بكل فنون الأدب ونظم في كل بحور الشعر وكان عالماً بالأصوات الموسيقية وألف كتاباً في المقامات يحتوي على ستين مقامة أسماه (مجمع البحرين) حاكى فيه مقامات الحريري ومقامات الهمذاني، ويقال بأنه تفوق على الإثنين في بعض المقامات. وجهينة الأخبار أيضاً لم يكن يستند إلى معلومات مكتوبة بل إلى ذاكرة موهوبة كانت تسجل وتستعيد بيسر وسهولة كل ما تلتقطه تماماً كآلات وأجهزة التسجيل العصرية. بين الحين والآخر نلتقي أو نسمع بشخص يملك ذاكرة غير عادية بل وتكاد تدخل ضمن نطاق الإعجاز. فالمؤرخ اللورد ماكولي كان قادراً على ترديد قصيدة طويلة بعد سماعها لمرة واحدة فقط. وكان كل من عرفه يؤكد أنه لو تم حرق قصيدة ملتون الملحمية الشهيرة (الفردوس المفقود) التي تقع في آلاف الأبيات لتمكن اللورد ماكولي من استعادتها بالكامل لأنه سبق وقرأها. وهناك أيضا عازف البيانو الضرير توم الذي كان لمجرد سماعه قطعة موسيقية معقدة يعيد عزفها على البيانو بكل تفاصيلها دون الإخلال بنوطة واحدة. الذاكرة هي القوة التي بواسطتها يقوم العقل بتنشيط اختبارات ماضية ويدرك أن تلك الاختبارات قد حدثت له فعلا. عندما تعمل الجملة العصبية بكيفية معينة تميل إلى تكرار تلك العملية. في بعض الحالات يفقد الإنسان ذاكرته بفعل صدمة عاطفية أو حادث غير عادي مما يؤدي إلى محو السجلات المختزنة في ذاكرته بالمرة. وبالرغم من مسح معلومات الذاكرة فقد تبقى الذاكرة نفسها سليمة ويبقى بإمكان صاحبها حفظ تفاصيل أو تخزين معلومات جديدة واستعادتها أو استذكارها كالمعتاد. دارسو العمليات العقلية الذين ندعوهم علماء نفس يعتقدون أن الذاكرة هي إحدى القوى العقلية وأن لها منطقة محددة في الدماغ. وقد أثبتت التجارب والدراسات أن الذاكرة متصلة بكل عملية من العمليات العقلية. فالشخص قد يتذكر مذاقاً ما أو رائحة من الروائح أو صوتاً من الأصوات أو لوناً من الألوان بمعزل عن الاختبارات الأخرى. هناك عاملان أساسيان متصلان بالذاكرة هما التصوّر أو الخيال والتمييز. الذاكرة والخيال قريبا الشبه لأنهما يتفاعلان مع أمور غير خاضعة للحواس. فالشيء الذي يكون الشخص قد

رآه البارحة لا يختلف كثيرا عن دنيا الخيال التي يرتادها اليوم بأفكاره ولا يدركها بحواسه. صور الذاكرة قد تكون أكثر وضوحاً في الذهن لكنها لا تختلف عن الخيال من حيث الجوهر. التركيز الذهني هو من أهم عوامل الذاكرة، إذ لا يمكن تنمية الذاكرة أو امتلاك ذاكرة جيدة دون تركيز أو حصر الذهن في مسألة ما بانتباه عميق. الذاكرة تعمل بصورة أفضل عند تفعيل أكثر من حاسة واحدة من الحواس. مثال على ذلك عند القراءة بصوت مرتفع تكون حاستا البصر والسمع عاملتين في نفس الوقت مما يجعل المادة المقروءة على هذا النحو أكثر رسوخا في الذاكرة. كما أن الرغبة أو الاهتمام بما يفعله الإنسان يساعد على تنمية الذاكرة. لأن الشخص الذي يقوم بشيء ما محبب إلى نفسه يفعل ذلك بانتباه عميق مما يضمن تخزين ذلك الشيء في الذاكرة بطريقة فعالة نظراً للنشاط العقلي الواعي المبذول في التعامل مع ذلك الشيء. بالإشارة إلى المؤرخ ماكولي المذكور أعلاه، فقد حفظ محتويات كل الكتب التي قرأها، وكان قارئاً نهماً. وعندما كان يحتاج إلى معلومة محددة ينبشها من ذاكرته بسرعة الكمبيوتر، بل وكان يذكر إسم الكتاب الموجودة فيه ورقم الصفحة وموقع السطر من الصفحة. وإن كان الغربيون يفخرون بمثل هذه القدرات الفذة يحق للناطقين بالضاد أن يفخروا بعبقرية وذاكرة عملاق الأدب عباس محمود العقاد الذي كان يمتلك ذاكرة أوقيانوسية، بحيث شهد كل من عرفه من الأدباء أنه لم يذكر اقتباساً واحداً إلا وحدد مصدره – من الذاكرة – بدقة متناهية تبعث فعلاً على الإكبار والدهشة. وهذا بكل تأكيد ينطبق على عميد الأدب العربي الأكبر الدكتور طه حسين الذي بفضل ذاكرته الجبارة أثبت بالفعل أنه كان شخصية استثنائية بكل المقاييس والمعايير.

المروءة

هذا المفهوم ليس جديداً على قارئنا العربي الكريم الذي ترتكز ثقافته على هذا الركن الأساسي من أركان الثقافة العربية العريقة.قاموس محيط المحيط يعرّف المروءة بأنها (النخوة وكمال الرجولية وآداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات. وقد تُقلب الهمزة واواً وتُدغم فيقال مُرُوّة.) والتاريخ العربي يحفل بالشواهد والأمثلة التي خلّدت الكثير من أبطال العرب لا سيما المعتصم الذي هب لنجدة تلك المرأة التي بلغه أنها استنجدت باسمه في صرختها الشهيرة

المدويّة (وا معتصماه!).

وكان لتلك الحادثة أبلغ الأثر على بعض الكتاب الغربيين مما حدا بأحد أكبر أدباء الإنكليز في القرن التاسع عشر السر أدوين آرنولد بنظم قصيدة مطولة تمجيداً لذلك الفارس العربي النبيل الذي (أقسم بأن لا يذوق عصير الرمان المثلج إلا بعد أن ينصف تلك المرأة من غريمها.) وهذا ما فعله بحسب الكاتب آرنولد. إذ ما أن انتهت معركة عمورية التي انتصر فيها المعتصم حتى تناول الكأس وراح يشرب العصير البارد مرددا: tab esharab (طاب الشراب!)

وهذا ينطبق أيضاً على سلطان باشا الأطرش الذي هب لنجدة أدهم خنجر الذي التجأ إلى جبل العرب ملتمساً الحماية من متعقبيه الفرنسيين فراح سلطان يزأر وينتخي قائلا، بحسب ترجمتنا لما ذكره أحد الرحّالة:

(حِنا بني معروف

وصخورنا ملجا الدخيل

بتحمي الملتجي ليها

ولما بتصدا رماحنا

بدم العدى منجليها)

فكانت الشرارة الأولى التي أشعلت الثورة ضد المحتل الفرنسي. ولعل الأوروبيين أخذوا فكرة المروءة عن الشرقيين وقرنوها بالفروسيةchivalry فطوروها وجعلوا منها مدرسة ذات صفوف يتدرب ويتدرج فيها الطالب حتى يستحق أخيراً عن جدارة مرتبة (فارس) التي تؤهله لأن يصبح نبيلا من النبلاء الفرسان. بعد هذه المقدمة المتواضعة فلنقرأ ما تقوله المراجع عن هذه الميزة النبيلة ذات الجذور العربية الأصيلة:هذه الكلمة تشير إلى ما كان يتمتع به الفرسان من روح الفروسية الفعلية الهادفة لنجدة الضعيف وحماية المرأة والإخلاص والأمانة في كل شيء.لقد كان تدريب الفارس في العصور الوسطى يسير على النحو التالي: ففي سن السابعة كان يتم إرساله إلى بلاط أحد البارونات أو الفرسان النبلاء بحيث يتدرب على استعمال السلاح وامتطاء صهوات الخيل وحماية النساء وخدمتهن باحتشام واحترام. وعندما يصبح مؤهلا لخوض المعارك كان يُخلع عليه لقب السيد المحترم فيرافق سيده إلى ميدان القتال.أما المرتبة الثالثة والأخيرة للمروءة فكانت (الفروسية)، والتي لم يكن ليحصل عليها التلميذ قبل سن الواحدة والعشرين.

أول ما كان يقوم به المؤهل لتلك المرتبة هو الإعتراف والصيام والسهر طوال الليل على سلاحه. وكانت تقام طقوس دينية احتفالا بنيله لتلك المرتبة. وبعد أن يقسم بالوفاء والإخلاص لمبادئه وعلى رأسها حماية النساء والأيتام وعدم التلفظ بالكذب أو السعي بالنميمة مدى عمره والعيش بوئام مع من حوله وحماية مقدساته، كان يحصل على التكريس وهو عبارة عن ضربة خفيفة على الرقبة بالجانب العريض لنصل (أي شفرة) السيف من الشخص الذي كان يرسمه فارساً. ذلك الطقس كان يتم عشية إحدى المعارك لتشجيع الفارس الجديد وبث العزيمة في نفسه واستنهاض همته للقيام بالأفعال الجريئة التي تليق بالفرسان أمثاله. وكمنهاج لتثقيف النبلاء فقد علمتهم الفروسية وغرست فيهم المروءة أفضل المثل الاجتماعية والخلقية التي تحفل صفحات التاريخ بالكثير منها. وكانت وما زالت بطولات الشجعان الأفذاذ (أمثال عنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي والزير سالم وخالد بن الوليد والمقداد وعبد القادر الجزائري وسلطان باشا الأطرش) يتم تمجيدها وتخليدها بالأهازيج والأناشيد والجوفيات الشعبية التي تطرب لها النفوس وتتحرك وترقص لكلماتها وأنغامها الدماء في العروق.

اطلبوا الحكمة ولو في الصين: وقفة مع كونفشيوس

وُلد الحكيم الصيني كونفشيوس سنة ٥٥١ قبل الميلاد وما زالت تعاليمه التي تتمحور حول الفضيلة والأخلاق الركيزة الأساسية للمبادئ الأدبية والدينية التي يؤمن بها مئات الملايين من الصينيين حتى هذا اليوم. لم يؤسس كونفشيوس ديناً بالمفهوم التقليدي بل كان معلماً أخلاقياً بالمعنى العملي وكان تأثيره بالغاً على الأجيال المتعاقبة. كان فيلسوفنا الكبير ابناً لمحارب ينتسب إلى سلالة ملكية. والده كان حاكماً لأحد أقاليم ولاية (لو) وتوفي وابنه ما زال في سن الثالثة. الأسرة لم تكن موسرة ومع ذلك فقد قامت والدة كونفشيوس بتثقيف ابنها طبقاً لأفضل أساليب التربية والتعليم المتاحة آنذاك. المأثور عن كونفشيوس أثناء طفولته أنه كان يرتدي ثياباً غريبة ويقوم بطقوس دينية طالباً من رفاقه الصغار التعبد أثناء قيامه بتلك الشعائر الساذجة. بعد ثلاث سنوات من زواجه استهل كونفشيوس عمله كمدرّس. ويقال بأنه انفصل عن

زوجته وأولاده خلال تلك الفترة. بعد ذلك عاش بقية حياته (لحوالي النصف قرن) متجولاً في ربوع الصين، محاولا تعليم أبناء قومه وغرس أفكار الخير في نفوسهم. ما أن بلغ سن الثلاثين حتى كان قد أكمل القسم الأكبر من تعاليمه التي تقترن دائماً باسمه. وبعد أربع سنوات من ذلك راح تلاميذه الكبار يتوافدون إليه طلباً لعلمه وطمعاً بكنوز حكمته. وكان خلال تلك الفترة قد التقى بالفيلسوف الصيني الشهير لاو تسي مؤسس ديانة الطاو . ذات مرة قام المفكر العملي كونفشيوس بزيارة المفكر الحالم لاو تسي فتأثر به أكثر مما تأثر هذا الأخير بفيلسوفنا الكبير. في العام ٥٠٠ ق.م. تم تنصيب كونفشيوس حاكما على مدينة تشونغ تو وبعد ذلك بقليل تم تعيينه وزيراً للشؤون الجنائية. وكقاض عادل أبدى فطنة غير عادية وقدرة عملية فائقة مما ألهب نيران الحسد في صدر حاكم ولاية تسي المجاورة. وقد أدى التدخل السافر لذلك الحاكم الحاسد الفاسد في شؤون كونفشيوس إلى نتائج سلبية مما اضطر كونفشيوس للاستقالة بعد أربع سنوات من تسلم منصبه. خلال الثلاثة عشر سنة التالية تنقل كونفشيوس من مكان إلى مكان ليعود أخيراً إلى موطنه الأصلي (لو) وقد ناهز السبعين من عمره فأمضى السنوات المتبقية من حياته في الخلوة والاعتزال. قام كونفشيوس قبل وفاته بجمع وتنقيح المأثورات الصينية المشمولة في الخوالد الكلاسيكية الخمس إضافة إلى الكتب الأربعة التي دونها تلاميذه. وهذه الكتب التسعة تعرف بكتب الحكمة الصينية .تعاليم كونفشيوس تدور في المقام الأول على محور الحياة الفاضلة التي ينبغي لكل إنسان أن يحياها إبان وجوده الوقتي في هذا العالم دون تطرّق إلى النفس وخلودها. فالخير في نظره يجب أن يكون ذا طابع عملي وعلى الإنسان أن يعمل الخير لا طمعاً في ثواب مستقبلي بل محبة في الخير. كان يشدد أكثر ما يشدد على واجب الإنسان نحو أخيه الإنسان وعلى التقوى والبر بالوالدين. ولهذا فقد أصبح احترام الوالدين الركيزة الأساسية في الثقافة الصينية. وفي تفاني الأبناء الصينيين نحو والديهم نلمس مدى تأثير تعاليم كونفشيوس على المجتمع الصيني. النصيحة الذهبية القائلة (عاملوا الناس كما تحبوا أن يعاملوكم) نادى بها كونفشيوس ولكن بصيغة مختلفة، إذ كان يعلّم تلاميذه قائلا: (لا تعاملوا الناس بطريقة لا تريدونهم أن يعاملوكم بمثلها.) جمع تلاميذه تعاليمَه التي تشتمل على أقوال وأمثال في منتهى الحكمة والمنطق والسداد، فهو القائل:

(من يرى الصواب ولا يفعله فهو جبان)

وهو أيضا القائل:

(عدم الرجوع عن الخطأ هو خطأ أكبر.)

عندما توفي كونفشيوس في عام ٤٧٨ ق.م حصل على تكريم فائق يليق بمشاهير الأبطال، وقد أقيمت طقوس خاصة لتخليد مبادئه والعمل بتعاليمه على مر الأجيال.

كوهي نور: أشهر جوهرة في التاريخ

هذه الألماسة التي يبلغ وزنها حوالي الـ ٢٢غراماً (والتي يعني إسمها جبل النور) كانت في زمن من الأزمان أكبر ألماسة عرفها العالم، وقد كانت من ضمن مقتنيات العديد من ملوك وأمراء الهند وبلاد العجم، ووقعت بسببها حروب طاحنة أريقت فيها دماء وتطايرت رؤوس وكان الإستيلاء عليها يعتبر غنيمة من غنائم الدهر. أخيراً أصبحت إحدى درر التاج البريطاني عندما أعلن رئيس وزراء الإنكليز بنيامين دزرائيلي الملكة فكتوريا إمبراطورة على الهند.

وكباقي الدرر والجواهر الثمينة فهناك أساطير وحكايا تتصل بالجوهرة كوهي نور. ويقال بأنها تجلب الحظ العاثر والموت الأحمر لكل من يلبسها أو يملكها من الرجال، مثلما تجلب الحظ السعيد والعمر المديد لمن تملكها من النساء.

لا توجد معلومات موثقة عن مصدر تلك الجوهرة بالرغم من أنه يعزى إلى بلاد السند والهند. وطبقاً لبعض المصادر فإن جوهرة كوهي نور تم العثور عليها للمرة الأولى منذ خمسة آلاف سنة وهي مذكورة في المخطوطات السنسكريتية القديمة باسم سياماتاكا. ويقول الهندوس أن هذه الجوهرة كان قد أعطاها صاحبها جامبافانتا للسيد كريشنا ثم سُرقت من كريشنا أثناء نومه. كما أن هناك حكاية أخرى تقول أنه تم العثور عليها في قاع أحد الأنهار في الألف الثالث قبل الميلاد. وهناك معلومات تقول أن كوهي وُجدت أول ما وجدت في مملكة غولكندا في حيدر أباد في الهند. ويؤكد سكان جنوب الهند أن الجوهرة هي في الأصل من منطقتهم. ما من شك أن الجوهرة تم العثور عليها في الهند لأنه لغاية القرن التاسع عشر كانت الهند المصدر الوحيد للألماس في العالم. لقد ذكر بابر مؤسس الأسرة المغولية في الهند كوهي نور في مذكراته التي تعود إلى سنة ١٥٢٦ للميلاد. ويؤكد بابر أن الجوهرة كانت ضمن مقتنيات الراجا مالوا في عام ١٢٩٤

وقدرّ قيمتها آنذاك بما يكفي لإطعام شعوب العالم ليومين كاملين. كما يذكر بابر أن الراجا ملوا اضطر للتخلي عن الجوهرة لعلاء الدين الخلجي. بعد ذلك دخلت ضمن مقتنيات سلاطين دلهي وأخيراً وقعت في يد بابر نفسه سنة ١٥٢٦ وأصبحت أثمن مقتنياته. انتقلت كوهي نور إلى الأمبراطور المغولي شاه جيهان الذي أمر ببناء التاج محل وكانت إحدى الجواهر التي ترصع عرش الطاووس المشهور. أما أورانزيب (ابن شاه جيهان) فقد وضع والده قيد الإقامة الجبرية في قلعة أكرا. ويقال بأن أورانزيب وضع الألماسة في إحدى النوافذ بحيث تمكن والده الحبيس من رؤية التاج محل بمجرد التحديق في الألماسة. وقد بقيت في تلك النافذة إلى أن غزا الأمبراطور الفارسي نادر شاه الهند في عام ١٧٣٩ ونهب أكرا ومعها دلهي. وكان من ضمن منهوباته عرش الطاووس ومعه الألماسة كوهي نور. ويقال أن نادر شاه عندما رآها صرخ (كوهي نور – أي جبل النور) ومنذ ذلك الوقت أصبحت تعرف بهذا الإسم.أما بخصوص تقييمها فيقال أنه لو تمكن رجل قوي من قذف خمسة حجارة: واحد باتجاه الشمال وآخر باتجاه الجنوب، وثالث باتجاه الشرق ورابع باتجاه الغرب والحجر الأخير إلى فوق وتم ملء الفراغ بين تلك الأحجار بالذهب والألماس لكان ذلك معادلا لقيمة كوهي نور. وقد تكون عبارة (جوهرة لا تقدر بثمنa gem of inestimable value) ذات صلة بكوهي نور. بعد اغتيال نادر شاه سنة ١٧٤٧ انتقلت الجوهرة ليد أحمد شاه عبدلي الأفغاني. في عام ١٨٣٠ تمكن شاه شجاع حاكم أفغانستان المخلوع من الهرب ومعه كوهي نور. وقد لجأ إلى لاهور الهندية عاصمة ملك السيخ المهراجا رانجيت سينغ وقدم الجوهرة هدية له. في عام ١٨٣٩ أوصى راجنيت سينغ بالجوهرة – وهو على فراش الموت – لمعبد جاغنات في ولاية أوريسا. ولكن حدث التباس حول كلماته الأخيرة ولم تنفذ وصيته. في عام ١٨٤٩ كان العلم البريطاني يرفرف على قلعة لاهور وأصبح البنجاب أحد الأقاليم الواقعة تحت التاج البريطاني. ومن ضمن بنود المعاهدة الرسمية للاحتلال وردت العبارة التالية: (أما بخصوص الجوهرة المعروفة باسم كوهي نور والتي أخذها المهراجا رانجيت سينغ من شاه شجاع المُلك فيجب وضعها تحت تصرف جلالة ملكة بريطانيا.) في عام ١٨٥١ تم عرض جواهر التاج البريطاني في لندن وقد ذكر مراسل التايمز ما يلي: (إن جوهرة كوهي نور هي بالتأكيد أروع المعروضات على الإطلاق وبلا منازع. إذ تدافعت الجماهير لمشاهدتها بحيث واجه رجال الأمن صعوبة بالغة في التعامل معهم.

وكان المئات ينتظرون لساعات طويلة لإلقاء نظرة على تلك الجوهرة الغريبة العجيبة..) وبالنظر إلى تاريخها الدموي الطويل فهناك العديد من البلدان التي طالبت وتطالب بها. ففي عام ١٩٧٦ طلب رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي بوتو من رئيس الوزراء البريطاني جِم كالاهان إعادة كوهي نور إلى باكستان، لكن المستر كالاهان أجابه بما معناه (رُح خيّط بغير هالمسلة.) كما أن الهند أيضا طالبت بها، مثلما طالب بها نظام طالبان في أفغانستان، وكذلك طالبت بها إيران دون جدوى، فجوهرة كوهي نور ما زالت محفوظة في برج لندن حتى هذه اللحظة.

الغني من أغناه الله

كان الإمبراطور أكبر (١٥٥٦-١٦٠٥م) أحد أباطرة المغول في الهند، وكان من أعظم ملوك القارة الآسيوية الذين عرفهم التاريخ على مر الأجيال. وقد استحق لقب راعي الإنسانية نظراً لما كان يتحلى به من عدل وإنصاف بين الناس واهتمام جدي بشؤونهم. كما عمل جاهداً على استعادة أراضي الهند السليبة وتوحيدها في دولة مركزية قوية. وكان أكبر من دعاة التسامح بين الأديان المختلفة في الهند. فأثناء حكمه ازدهرت الهندوسية والإسلام جنباً إلى جنب بتوافق وانسجام تامين. فالإمبراطور المسلم أكبر كان يتزيا أحياناً بالزي الإسلامي ويذهب للصلاة في المسجد، وأحياناً أخرى كان يرتدي اللباس الهندي ويقصد المعبد الهندوسي للتأمل والعبادة. هذا الإمبراطور الكبير القلب والواسع الصدر لم يتوقف يوماً واحداً عن إغداق الهبات والعطايا على المحتاجين والمؤسسات الإجتماعية في طول البلاد وعرضها. وكان من عادته أن يركب في عربة ملكية فاخرة يجرها ثمانية جياد مطهمة. وكان الحراس والمنادون يعلنون عن قدوم موكبه الفخم بالطبول والصنوج والأبواق في كافة أرجاء المدينة. وبالرغم من كل هذا المجد والأبهة، كانت هناك أوامر صارمة من أكبر نفسه لتوقيف الموكب في أي وقت وفي أي مكان إن أراد أحد الرعايا أن يرفع إليه طلباً أو يلتمس منه عوناً. ذات يوم وأثناء مرور الموكب الملكي المهيب في جادة عريضة تحفّ بها الأشجار من الجانبين، لاحظ الإمبراطور ضريرين جالسين على بُعد أمتار قليلة من بعضهما وهما يصيحان طلباً للعون والصدقة.

أمرَ أكبر توقيف العربة أمام الضرير الأول الذي كان يصيح:
"الغني من أغناه الإمبراطور".
وبعد أن استمع جيداً لتلك العبارة طلب من السائق أن يتقدم نحو الضرير الثاني الذي كان يصيح:
"الغني من أغناه الله."
على مدى شهر كامل، كان الإمبراطور يسمع نفس العبارتين كلما مر بجانب الضريرين اللذين كانا يطلبان الغنى منه ومن الله. أخيراً دبت النخوة في رأسه ورغب في مساعدة الرجل الأول الذي كان شعاره: الغني من أغناه الإمبراطور. وذات يوم طلب أكبر من خباز القصر أن يخبز له رغيفاً كبيراً (من نوع الكماج السميك) على أن يكون قلب الرغيف محشواً بالذهب الخالص. هذا الرغيف أعطاه أكبر للضرير الأول وتجاهل كلياً الضرير الثاني الذي كان يتأمل الغنى من الله وليس من الإمبراطور. بعد ذلك بقليل ذهب أكبر في رحلة صيد ولدى عودته مرّ في نفس الجادة فرأى الضرير الذي أعطاه رغيف الذهب ما زال في مكانه ويصيح كسابق عهده: 'الغني من أغناه الإمبراطور.' طلب أكبر توقيف العربة الملكية أمام الضرير وقال له: "ما الذي فعلته بالرغيف الذي أعطيته لك؟"
فأجاب الرجل:
'يا صاحب الجلالة، الرغيف الذي تكرمت به عليّ كان كبيراً ولم يكن جيد الخَبز لأنه كان ثقيلاً جداً، ولذلك بعته بعشرة دراهم للضرير الآخر وكنت ممنوناً للحصول على تلك الدراهم التي هي في الأصل من خيركم'.
تلفت أكبر حوله بحثاً عن الضرير الآخر فلم يجده. وبعد الإستفسار عنه علم أنه أعطى الرغيف لزوجته وما أن شقّته حتى عثرت على الذهب فاشتريا به بيتاً متواضعاً وقد تحسن حالهما بعد أن حقق الله أمنيتهما وأغناهما من واسع فضله. ما أن سمع الإمبراطور ذلك حتى أدرك المغزى العميق لتلك الحادثة. وبتواضع باطني لا مزيد عليه تظاهر أنه منفعل وغاضب وراح يؤنب الضرير الأول قائلا: 'ما الذي فعلته يا غبي؟ لقد أعطيتَ رغيفي المحشو بالذهب إلى صديقك الذي اتكل على الله وليس عليّ أنا من أجل الغنى. من الآن وصاعداً يجب أن تتبنى شعاره وتنادي مثلما كان ينادي:

"الغني من أغناه الله."
أو ما معناه:
من لهُ الوهّابُ يعطي وحدهُ يُدعى غنيا

الكذب يتناسل كالضفادع.. والحبل على الجرار!

عندما يتعود اللسان على الكذب يفلت من يد صاحبه ويصبح من الصعب بل من المستحيل استرداده والتحكم به. وهذا ما يفسر أن بعض الناس يكذبون – بالرغم من طيبتهم – لأن الكذب أصبح عادة مستحكمة في طبعهم. وهناك من يكذبون لا كرهاً للصدق بل محبة بالكذب! الكذاب ينسى ذاكرته، ومن يعتبر ذاكرته غير دقيقة ينبغي ألا يمتهن الكذب. الكذب ينمو في كل تربة ويثمر في كل مناخ، وهو رذيلة ممقوتة وملعونة. ما من رباط قوي يربطنا ببعضنا البعض ككلامنا. ولو عرفنا تداعيات الكذب وعواقبه الوخيمة لحاربناه بالسيف والنار أكثر من أية جريمة أخرى. يجب عدم تعقب الكذب في محاولة للإمساك به بل ينبغي تركه وشأنه، وعاجلاً أم آجلا سيصل إلى طريق مسدود فتنفد قواه ويفقد ما بجعبته من سموم وأضاليل. وليكن معلوماً أن الكذبة البيضاء هي مقدمة لكذبة سوداء. المبالغة لا تختلف كثيراً عن الكذب، وأسوأ الكذب هو قول نصف الحقيقة، وهذا ما يلجأ إليه المغرضون ذوو النوايا السيئة والضمائر الزائغة الذين يعرفون النصف الآخر للحقيقة فيتكتمون عليه ما دام ذلك التكتم يخدم مصالحهم الخسيسة حتى ولو أدى إلى إلحاق الأذى الأدبي والمعنوي والمادي بسواهم. الكذب علامة الجبناء المميزة فهم يكذبون على أنفسهم وعلى الناس وعلى رب الناس. وكل شجاع وشريف يأنف من الكذب ويتحاشاه أكثر مما يخشى ويتفادى الموت الأحمر. الكذب من أقبح الرذائل. لأن الكذاب يستخف بالله ويخاف الإنسان. وكل كذبة سواء كانت صغيرة أم كبيرة تضع الإنسان على شفير هاوية سحيقة لا يعلم عمقها ومخاطرها إلا الله. ما من عمل مشين يملأ الشخص بالخزي والعار كاكتشاف الناس لأكاذيبه. وفي هذا الصدد يقول أحد المفكرين: الكذاب يتجرأ على الله ويجبن أمام الناس ولكنه هو الخاسئ والخاسر في الحالتين .الكذب يشبه محاولة التخفي في الضباب الكثيف. وإن حاول الكذاب التنقل

هنا وهناك يعرّض رأسه للارتطام بالحقيقة الصلبة. وعلى أية حال ما أن يتلاشى الضباب حتى يختفي الكذاب .محترفو الكذب يبتدعون خرطات طويلة عريضة ليس بالضرورة لإحراز مكاسب معينة أو لمخادعة المتحدثين إليهم، بل لأنهم تعودوا على الكذب فاستسهلوه ولأن قول الصدق بالنسبة لهم أصبح أمراً صعباً يلزمه مجهود ليسوا مستعدين لبذله. إن نصف رذائل الدنيا منبعها الجبانة. والذي يخشى التلفظ بالكذب لا يخيفه شيء في الحياة. الحقيقة في تطابق وتناغم دائم مع ذاتها، ولا تحتاج لمن يعضدها فهي فطرية غير مصطنعة، وهي قوة لا تُقهر مثلما هي قريبة منا طوال الوقت وعلى أتم الاستعداد لتحريك شفاهنا فلا نتلفظ إلا بها. أما الكذب (الذي يعتبره البعض ملح الرجال) فهو صناعة مفبركة رديئة النوعية وموضوعة على الرفوف بانتظار الإعلان والتزويق والتسويق .إن كذبة واحدة يلزمها كذبات كثيرة للتستر عليها. وهي تشبه البناء المشيد على أساس مقلقل، الذي يحتاج دوما إلى دعامات ومساند خوفاً عليه من التهاوي والسقوط. وبالتالي تكون تكاليف صيانته وإسناده أكبر بكثير مما لو تم تشييده أصلا على أساس صحيح وسليم.

الكذبة المتعمدة هي كسيحة لا تقوى على النهوض والوقوف بمفردها بل تحتاج إلى كذبات أخرى كي تتوكأ عليها. ولذلك من السهل أن يكذب الإنسان إنما من الصعب أن يكذب كذبة واحدة فقط لا غير .عندما تتغلغل كذبة بين الناس يصبح من الصعب استئصال شروشها وشرورها. فقد تخبطها على رأسها حتى تظن أنها على وشك أن تلفظ نفسها الأخير وإذا بها في اليوم التالي تبدو قوية ومتعافية أكثر مما كانت عليه من قبل! لا يوجد في العالم أندر من كذبة منعزلة، لأن الكذب يتناسل كالضفادع. وما أن يتم إطلاق كذبة واحدة حتى تعود ووراءها شلة كبيرة من الكذب والحبل على الجرار. الكذبة الكبيرة تشبه سمكة كبيرة على اليابسة، فقد تنتفض وتنط وتتحرك بسرعة في محاولة منها لترويع من حولها، لكن إن لزمتَ الهدوء فستكف السمكة المحتضرة تدريجيا عن الحركة وبالتالي ستصبح جثة هامدة. قال أحد الحكماء لتلميذه: يا بني ليكن الكذب غريبا على شفتيك ولا تسمح له أن يحجب شفافيتك. ولا تدع لسانك يرضى عن الصدق بديلا لأن الكذب يدنس اللسان ويخزي الإنسان. ولتعلم يا بني – زادك الله علما – أن الكذابين لا يتصارعون مع الحق والحقيقة وحسب، بل مع بعضهم البعض أيضا، وأن الغرامة المفروضة على الكذاب هي ابتداع المزيد

من الكذب لتغطية كذبه المفضوح أصلا، فكن صادقاً مستقيماً في كل ما تقوله وتفعله لأن أقرب مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم.

الرجل الذي أنار العالم

في زاوية من إحدى عربات قطار غراند ترنك كان فتىً في الرابعة عشرة من عمره منهمكاً في عمل غير عادي. ما كان يقوم به في تلك اللحظة لم يكن عمله، فهو كان في الأصل بائع جرائد وفواكه في القطار، والعمل غير العادي الذي كان يفعله أثناء فترة استراحته كان عبارة عن تجربة كيماوية. ولعله كان أول شخص قام بتلك التجربة على متن قطار! ذلك الفتى كان غريب الأطوار وعميق وبعيد الأفكار. فهو لم يذهب إلى المدرسة لأكثر من ثلاثة شهور على بعضها، ومع ذلك فقد قرأ الكثير من الكتب العلمية، إذ كان يبدأ بقراءة صف الكتب على الرف وما أن ينتهي منه حتى يبدأ بقراءة الصف التالي وهكذا دواليك. وقد صرف السنوات الأخيرة من عمره محاولاً عمل شيء ما بالطرق الكيماوية. في سن الثانية عشرة أقنع ذلك الفتى والدته بالسماح له ببيع الجرائد داخل القطارات ليس لأنه كان بحاجة لذلك العمل بل لأنه كان يرغب به. وما أن شرع بعمله هذا حتى راح يقوم بتجاربه دون أن يعلم أحد بالضبط ما كان يفعله. في هذه المرة كان صديقنا الشاب الصغير يقوم بتجربة على العنصر الكيماوي الفوسفور. وبما أن الفوسفور شديد الاشتعال فقد تفاجأ الركاب والعاملون في القطار ذات يوم بنشوب حريق في إحدى القاطرات لكنهم تمكنوا من إخماده. وما أن بلغ القطار المحطة التالية حتى قام الموظف المسؤول عن قطع التذاكر بدفع الشاب خارج العربة بعنف – دون أن يقول له بلا مطرود – ورمى بأدواته وأجهزته على الرصيف، مع أن ذلك الشاب لم يكن سوى توماس أديسون بذاته – أشهر المخترعين على مر العصور! وُلِدَ توماس ألفا أديسون في مدينة ميلان بولاية أوهايو سنة ١٨٤٧ وبعد حادثة القطار تلك رغب في العمل في أحد مكاتب التلغراف. كانت الكهرباء آنذاك في مراحلها الأولى وتعمل الأعاجيب، لكن الشاب لم تكن لديه فكرة عن عمل التلغراف. وذات يوم رأى طفلا صغيرا أمام خطر داهم فتمكن من إنقاذه، وقد شعر والد الطفل بامتنان كبير لهذا الشاب النبيل وأراد أن يكافئه على صنيعه، ففسح أمامه

المجال لكي يتعلم مهنة الإبراق أي الإرسال التلغرافي فأتقنها في فترة زمنية قياسية. بعد ذلك اشتغل كعامل تلغراف، وكان يصرف الساعات الطوال منكبّاً على عمله بكل إخلاص وتفانٍ، يرسل ويستقبل الرسائل، وبين الحين والآخر يقوم بتفكيك الأجهزة وإعادة تركيبها ليرى ما إذا كان باستطاعته إدخال تحسينات عليها. ولم تمضِ فترة طويلة حتى أصبح مكتبه كومة من الأسلاك التي استخدمها لتجاربه. لم يرق ذلك الوضع لأصحاب المكتب الذين لم يختلفوا كثيراً عن قاطع التذاكر في القطار، إذ رأوا أن أديسون الشاب يضيع وقته ووقتهم سدى فطردوه ولم يعرفوا آنذاك أي عظيم طردوا من مكتبهم. تنقل صاحبنا المخترع الشاب من مدينة إلى أخرى وزاول أعمالاً عديدة وفقدها بنفس الكيفية، ليس لأنه لم يكن عامل تلغراف ناجحاً، بل لأنه كان يفعل ما يتعدى المهنة بكثير! وفي إحدى المكاتب طُلب منه إرسال أحرف محددة مرة كل نصف ساعة إلى المكتب الرئيسي ليتأكد أصحاب العمل أنه في المكتب. فما كان منه أن اخترع جهاز إرسال ذا توقيت خاص راح يرسل تلك الأحرف تلقائياً نيابة عنه فيما كان هو يقوم بتجاربه. لكن أصحاب العمل اكتشفوا حيلته فطلبوا منهم أن يريهم عرض أكتافه. بعد ذلك بفترة قصيرة لم يعد يحسب حساباً لأرباب العمل لأنه ابتكر اختراعاً جديداً راح يدر عليه ما يكفي من المال ليصرفه بالكيفية التي يريدها. ومنذ ذلك الحين أصبح مخترعاً بل أبا المخترعين وظل كذلك حتى آخر أيام حياته. فهو قد اخترع جهازاً يكرر عبر التلغراف الرسائل السريعة التي لم يتمكن من تدوينها لورودها السريع. كما اخترع جهازا آخر يحصي عدد الأصوات كهربائياً، لكن لم يرغب أحد باستعماله آنذاك. أخيراً تمكن من إرسال رسالتين بالتلغراف على نفس الخط فعرفت شركة التلغراف بذلك الحدث الجديد، وهذه المرة وجهت إليه دعوة وعرضت عليه راتباً جيداً كي يعمل في حقل التجارب فقط. وخلال فترة قصيرة علّم العاملين طريقة إرسال أربعة رسائل على نفس الخط مما وفر على الشركة مبلغ ٧٥ ألف دولار، وكان ذلك مبلغاً ضخماً في تلك الأيام. ثم اخترع آلة لطبع أسعار الأسهم في سوق البورصة فحصل على مكافأة مقدارها أربعون ألف دولار وكان عمره آنذاك لا يتجاوز السادسة والعشرين عاماً وقد لمع نجمه في طول أمريكا وعرضها كمخترع قدير.

ابتاع أديسون مبنى في نيو جيرسي وأقام فيه مختبراً وبقي في تلك المنطقة حتى آخر

سني عمره حيث توفى في عام ١٩٣١. وقد ظل مختبره ينمو ويزدهر حتى استقطب في آخر المطاف ثلاثمائة من المخترعين والعمال، وكان هو رئيسهم وأكثرهم عملاً. ما من شك أن أديسون كان عبقرياً نادر المثال، ومع ذلك فقد صرّح بنفسه أن العمل الدءوب هو سر النجاح وأن للعبقرية دورها، إنما تعب اليمين وعرق الجبين هما المفتاح لكل نجاح. لقد كان أديسون منصرفاً دائماً لعمله بتركيز تام بحيث كان يغفل أحيانا النوم وتناول الطعام. كان يمضي سنوات بطولها لا ينام سوى أربع أو خمس ساعات في اليوم. بل وكان أحياناً يمضي الثلاثة أو الأربعة أيام بطولها دون أن يعرف طعم النوم حتى يتمكن من إتمام تجاربه التي كانت تقتضي العمل المتواصل. وبالرغم من كل عبقريته، لم نكن لنحصل على جزء من مخترعاته الكثيرة لولا عمله الموصول وهمته العملاقة. لو أردنا أن نحصي كل ما قام به أديسون ومعاونوه من اختراعات لضاق بنا المقام لأنها كثيرة جدا. فهو حصل على أكثر من ألف براءة اختراع وساعد في الكثير من الاختراعات التي لم يحصل بها على سجل ببراءة الاختراع. لقد ساعد على تحسين الهاتف من خلال جهاز الإرسال الكربوني، كما اخترع كاميرا لالتقاط الصور المتحركة، وكان له السبق في نقل الصوت والصورة معا. لكن إنجازه الأعظم كان اختراعه للمصابيح الكهربائية التي أنارت العالم من أقصاه إلى أقصاه. ولا نغالي إن قلنا أن توماس أديسون هو بحق مبدد الظلام!

عصر النهضة : هل كان نتيجة طبيعية لسقوط القسطنطينية؟

إن كلمة renaissance التي تستعمل للدلالة على عصر النهضة هي في الأصل كلمة فرنسية تعني ولادة جديدة، أي إحياء الرغبة أو تجديد الإهتمام بالأمور العقلية، وتمثل نقطة التحول من العصر الوسيط إلى العصر الحالي من حيث طرق التفكير ومناهج الدراسة. بعض المفكرين يعزون عصر النهضة إلى سقوط القسطنطينية في العام ١٤٥٣ وحصول الأوروبيين – نتيجة لذلك – على مخطوطات يونانية نادرة وعلماء متبحرين في شتى العلوم والآداب والفنون .لقد كان لاستيلاء العثمانيين على المركز الشرقي للعلوم والثقافة الغربية أكبر الأثر في تحويل كنوز ذلك المركز باتجاه الغرب، ومع ذلك فقد كانت النهضة نتيجة طبيعية لتحوّل تدريجي في أساليب التعليم عمَّ القارة الأوروبية على مدى قرن من الزمن قبل سقوط القسطنطينية.

البعض يتحدث عن العصور الوسطى كما لو كانت عصوراً مظلمة تسودها الهمجية والجهل المطبق. لكن الأمر قد لا يكون على هذه الصورة. فتلك الفترة الزمنية من تاريخ أوروبا كانت تتميز بثقافة معينة، ولم يكن التغيير في طرق التفكير وأساليب الفن والأدب والعلم سوى نتيجة حتمية لازدياد عدد الطلاب الذين تفتحت عقولهم على المعرفة في الغرب. لقد كان العلم في أوروبا مقتصراً على رجال الدين وكان يتمحور في الدرجة الأولى حول تفسير الأسرار الدينية. وقد ساعد الفيض المتعاظم من المعرفة المعمقة القادمة من الشرق على فتح قنوات جديدة مما أعطى الدراسة بُعداً نقدياً وتحليلياً جديداً. وتدريجياً تخلى طلاب العلم عن أساليب الدراسة التقليدية ثم نبذوها ولم يعملوا بها ثانية. ونتيجة لذلك بزغ فجر عهد جديد من البحث والاستقراء العقلي. فعقول الناس أصبحت مستعدة لتقبل أفكار وانطباعات جديدة مما أعطى الراغبين في العلم والمعرفة دفعاً قوياً وتملكتهم رغبة جامحة لمعرفة المزيد .لقد تحررت عقول البشر من القيود الثقيلة ولم يعد الناس خاضعين لسلطة الكهنوت فراحوا يفكرون ويحاورون ويناقشون ويجاهرون بآرائهم ويبدعون في شتى مجالات الفكر والمعرفة دون عوائق ودون خوف من عقاب. ليس من السهل تعداد ثمار عصر النهضة لأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ والفن والأدب والعلم والفلسفة والشعر وحتى الدين. وقد حلت روح جديدة في كل مجال من مجالات الحياة. ولم يعد الناس قانعين بالحلول التقليدية للظواهر الطبيعية. فالعقل البشري الذي غط في سبات عميق لمئات السنين تيقظ الآن وراح يكتشف كل ما يحيط به ويستشرف حتى الآفاق البعيدة. ومن أعظم ثمار عصر النهضة أيضاً كرامة الإنسان بصفته كائناً عاقلاً ،مفكراً وذا إرادة حرة. وهذه الروح الجديدة أدخلت بعداً إنسانيا إلى حياة الإنسان ودمغت المعرفة بطابع إنساني مميز. لقد بلغت النهضة ذروتها في إيطاليا وأصبح الأقطاب والأساطين يدرسون ويتعاطون الفن محبة في الفن. أما في البلدان الشمالية مثل ألمانيا وهولندا وإنكلترا وحتى فرنسا فقد نما عصر النهضة بصورة طبيعية. ففي ألمانيا كانت النهضة تعني الإصلاح. وكذلك في إنكلترا وفرنسا اقترن تجديد التعليم بالإصلاح وانبثق إحساس وفهم جديدان بالجمال والحقيقة، وبلغت الآداب والفنون مستوى رفيعاً من الإبداع الذي كان بحق أحد أهم عناصر عصر النهضة الذهبي.

مارتن لوثر: المتهم البريء والمصلح الجريء

كان مارتن لوثر أكبر مصلح ألماني ديني عرفته القارة الأوروبية. ولد في مدينة آيزيلبن بألمانيا سنة ١٤٨٣ وإليه يعود الفضل في تأسيس الكنيسة البروتستانتية في القرن السادس عشر.نشأ مارتن في أسرة كبيرة وكان والده يعمل بتقطيع الرخام وألواح الأردواز الحجرية. وقد ظهرت على الإبن علامات النجابة والذكاء منذ طفولته المبكرة فأصر والده على تعليمه وتوفير أفضل الرعاية له.

العائلة ضحّت كثيرا في سبيل إرسال الإبن المحبوب مارتن إلى المدرسة في آيزيناخ. كان صوته جميلاً فقرر أن يستغل تلك الموهبة الطبيعية لتخفيف عبء مصاريفه عن كاهل والده، فراح يغني أمام بيوت الأغنياء الذين كانوا ينفحونه ببعض المال لقاء إطرابهم بصوته الرخيم. في عام ١٥٠١ التحق بجامعة أرفورت وبعد أربع سنوات من الدراسة حصل على شهادة الماجستير من تلك الجامعة.كان مارتن يطمح إلى مزاولة مهنة المحاماة، ولكن مع إكمال دراسته الجامعية أحس بتأثير النهضة الدينية التي راحت تكتسح بلدان أوروبا الغربية. وبعد حصوله على شهادته بقليل انخرط في سلك الرهبنة وانتسب لدير القديس أوغسطين. في عام ١٥٠٧ سيمَ كاهناً وفي السنة التالية أصبح أستاذا للفلسفة في جامعة ويتنبرغ. في سنة ١٥١٢ وإثر عودته من زيارة قام بها إلى روما نيابة عن رهبانيته حصل على شهادة دكتوراه في اللاهوت وتم تعيينه أستاذاً للعلوم الدينية في نفس الجامعة حيث شرع بسلسلة من المحاضرات عن الكتاب المقدس.لم تمض فترة طويلة حتى طبقت شهرته الآفاق، فتوافد الطلاب من كل البلدان الأوروبية إلى تلك الجامعة المغمورة لسماع محاضرات مارتن المتميزة في اللاهوت. وفي أوج شهرته أحس بضرورة التصدي لتجاوزات الكنيسة لا سيما منها التساهل غير المبرر أو المبرور في الثوابت الأساسية. في ذلك الحين كان الكهنة يمنحون صكوك غفران لكل من يتبرع للكنيسة بالمال أو بالأعمال. وفي عام ١٥١٧ حضر يوهان تتزل مبعوث البابا ليو العاشر إلى ويتنبرغ طالباً من الناس الحصول على صكوك الغفران تلك. وكان ريع تلك الصكوك سيخصص لبناء كاتدرائية القديس بطرس في روما.

عندما سمع مارتن بأن الناس يتوافدون زرافات ووحدانا ويتهافتون على شراء الصكوك اغتم وتضايق لأنه أدرك أن ما يقوم به الكاهن تتزل مخالفٌ لجوهر التعاليم الروحية. وبجرأة نادرة جاهر بمعارضته لتلك الصفقات بل وقام أيضاً بتثبيت لوحات تضم ٩٥ رأياً من آرائه على باب كنيسة كل القديسين. وتلك الحادثة

أحدثت شرخاً في الكنيسة الكاثوليكية العظمى وتصدعاً لم تقوَ الأيام على رأبه. وقد شُبهت تلك الآراء بضربات المطارق الكبرى (أي المهدّات) التي أحدثت عطباً بالغاً بمسألة الصكوك أذهلت الناس بمن فيهم مارتن لوثر نفسه. ومع أن تلك الآراء كانت مدونة أصلا باللاتينية لكنها ترجمت إلى باقي اللغات الأوروبية وتم توزيعها في كل بلدان أوروبا. خلال فترة قصيرة وجد مؤلف تلك الآراء نفسه في قلب العاصفة التي هزت الكنيسة هزاً عنيفا. لكنه بقي كالجبل الذي لا تهزه الريح بفضل معرفته العميقة بالكتاب المقدس والقانون وتاريخ الكنيسة. وعندما حاور الدكتور الشهير إيك في ليبزغ رفض علناً الاعتراف بسيادة البابا. في عام ١٥٢٠ صدر بحقه حِرْم كنسي من البابا نفسه، فما كان من مارتن إلا وأحرقه في الساحة العامة على رؤوس الأشهاد.

هذا التحدي من مارتن لوثر للبابا استدعى مثوله أمام هيئة إمبريالية اجتمعت في نيسان ١٥٢١ بناء على طلب الإمبراطور تشارلس الخامس وكانت تضم نبلاء وأمراء وكهنة ألمانيا على اختلافهم .طلبت الهيئة من مارتن العدول عن هرطقاته فكان جوابه كالآتي:

'لا يمكنني العدول أو التراجع عن كل ما كتبته أو قلته إلا بشرط واحد هو أن يبين لي أحدكم أن أقوالي وكتاباتي تناقض الكتب المقدسة أو تناهض مبادئ العقل والضمير، أو تثبتوا لي بأنها غير سليمة أو غير مستقيمة.' وأنهى كلمته بالقول:

"ما عدا ذلك لا يمكنني التراجع عن آرائي أو العمل بخلافها. والله على ما أقوله شهيد.'

في نفس اللحظة تم وضعه تحت الرقابة الإمبراطورية وسُمح له بالذهاب إلى منزله. لكن في طريقه إلى بيته وفي أحد الشوارع الضيقة انقضّت عليه مجموعة من الفرسان المقنعين فحملوه إلى قلعة ورتبورغ. هذا حدث بإيعاز من صديقه فردريك حاكم ساكسوني الذي كان يخشى على حياة صديقه مارتن ولم يتمكن علناً من توفير الحماية له، فقرر على الأقل اختطافه ووضعه في مكان آمن. خلال مدة العشرة شهور التي قضاها في القلعة قام مارتن لوثر بترجمة جديدة للكتاب المقدس من اليونانية إلى الألمانية فاعتبر ذلك العمل الضخم حجر الأساس في تاريخ الأدب الألماني.

في عام ١٥٢٢ عاد إلى ويتنبرغ وراح يعيد تنظيم كنيسته الجديدة، وقد اقترن إسمه وسيرة حياته بالإصلاح الديني .توفي مارتن لوثر سنة ١٥٤٦، ودفن في نفس الكنيسة التي قام بتثبيت آرائه الدينية على بابها.

في سنة ١٨٥٨ أمر الإمبراطور فريدريك وليام الرابع باستبدال أبواب الكنيسة القديمة بأبواب

برونزية جديدة تحمل آراء لوثر. وقد تم تشييد نصب تذكاري للمصلح الكبير مع العبارة التالية: 'إن كان هذا العمل من الله فسيكتب له البقاء، أما إن كان من صنع البشر فمآله الزوال.'

بيتهوفن: عبقرية يتيمة ونبوغ من عالم آخر

المعاناة والنجاح كلاهما لعبا دوراً بارزاً ومؤثراً في حياة الموسيقار الأعظم بيتهوفن.
الحكاية بدايتها دموع ومعاناة. فالطفل ابن الأربع سنوات اضطره أبوه الأناني كي يُمضي ساعات طويلة في البرد القارس والجوع القارص، يعزف على الكمان وعلى آلة موسيقية أخرى ذات لوحة مفاتيح تدعى الكلافيير. أما مأساته فقد اكتملت فصولها عندما اكتشف أنه فقد حاسة السمع وأصبح أصماً (لا يسمع حتى كلام المتنبي.)
ومع أن الأمة الألمانية تعتز بانتسابه إليها، لكنه كان ينتمي أيضاً إلى الشعب الهولندي. فجده قد انتقل مع أسرته من آنتورب إلى بون قبل ٣٢ عاما من ولادة هذا العبقري الكبير.
المآسي لازمت أسرة بيتهوفن على الدوام. فوالده كان مغنّياً لكن دخله كان محدودا وكان سكيراً من الدرجة الأولى يصرف معظم دخله على المشروب مما أبقى أسرته في حاجة دائمة.
لقد كان والده يطمح في أن يصبح ابنه طفلا موسيقيا مشهورا يدر على الأسرة المال الذي كانت في أمس الحاجة إليه. وبالرغم من كل عيوب ونقائص الوالد فقد وفّر أفضل المعلمين والمدربين لأبنه. ففي سن التاسعة أصبح بيتهوفن تلميذا لعازف أرغن البلاط في بون. وفي سن الحادية عشرة قام بأولى جولاته الموسيقية. وفي سن الثالثة عشرة أصبح مساعدا لعازف أرغن البلاط.
في سن الخامسة عشرة اضطر لإعالة جميع أفراد أسرته نظرا لعجز والده ومرض والدته. وبالرغم من تلك الظروف الصعبة والمريرة فقد خطا الشاب خطوات كبيرة في دنيا الفن. وقد أعجب أصدقاؤه كثيرا به لدرجة أنهم ساعدوه على العيش والبقاء في فيينا – مدينة ليالي الأنس التي كانت آنذاك قلب العالم الموسيقي حيث صرف بقية عمره.
لقد دخل بيتهوفن عالم الفن من أوسع أبوابه وأصبح محط الأنظار ومحور الاعتبار، فتهافتت دور النشر على ألحانه ومقطوعاته الأصيلة. ولم تمض فترة طويلة حتى أصبح الموسيقار الأشهر الذي لم يستطع أحد منافسته. وقد تمكن ذات مرة من جمع ملوك وأمراء ونبلاء وأعيان أوروبا في سهرة واحدة تحت سقف واحد وكان هو نجمها الساطع

الذي بهر الحضور بشخصه المتألق وفنه الساحر.

تلك كانت سنواته الذهبية من حيث النجاح الباهر، لكن سحابة قاتمة مكفهرة كانت تظلل إنجازاته الرائعة، إذ في أوج نجاحه فَقَدَ سمعه بالمرة. ومع هذه العاهة تناوبت عليه ظروف صعبة ومعاناة قاسية تضاعفت حدتها بفعل أمراض في الجهاز الهضمي وحالات من الهيجان العاطفي والانفعال النفساني الشديد.

في تلك الأوقات كان يعاني من حالات عصبية وتوتر متواصل مع إحساس من تبكيت الضمير والندم. وأخيراً انسحب بيتهوفن من المجتمع واعتزل الناس كليا. وقد حاول إخوته تصريف أعماله فأوقعوه في مسائل قضائية معقدة وأفسدوا العلاقة بينه وبين أصدقائه.

أما أسلوب حياته فكان شبيهاً بموسيقاه، لا ضوابط ولا هم يحزنون. عندما كان يؤلف مقطوعاته لم يسمح لأحد بمقاطعته. لقد عمل بطريقة فوضوية ولم يلاحظ مرور الوقت. وكثيرا ما كان يتشاجر مع أصحاب البيوت حيث كان يقيم فيضطر لتغيير سكنه، ولم يشعر يوماً أن له بيتاً يرتاح فيه وينعم بدفئه. لقد كان مغرما بالريف وكان يصرف أوقاتاً طويلة في الحقول متجولا، هامساً ومتمتماً أغانيه لنفسه.

كان معتدل القامة لكن أصدقاءه شهدوا له أنه في ذروة الإلهام كان يبدو عملاقاً تحاكي قامته عبقريته الفذة. وقد تضمنت وصيته رسالة إلى أصدقائه يرجوهم فيها كي يطلبوا من طبيبه أن يطلعهم على حالته النفسية والعصبية لعلهم بذلك يكونون أكثر تفهما تجاهه ويسامحونه على ما بدر منه تجاههم من تصرف لا يليق بالصداقة والأصدقاء. كما اعترف أن حالاته النفسية تلك كانت ناجمة عن حنين ميئوس منه للتواصل الاجتماعي والتعاطف الوجداني.

وبالرغم من عزلته شبه التامة فقد كان مصدر إلهام للكثيرين. إذ انسابت المقطوعات الموسيقية الرائعة من قلمه الواحدة تلو الأخرى بكافة أطيافها وألوانها وتنويعاتها.

لقد وضع بيتهوفن معايير العبقرية وحدد معالم النبوغ للأجيال. وكان ظاهرة فريدة لم يشهد لها تاريخ الفن نظيرا من قبل.. ظاهرة لا يمكن مقارنتها بسواها لأنها بحق كانت ولم تزل يتيمة الدهر.

وإنْ عُدَّ رجالُ الفنِ يوماً
فإنهُ واحدٌ بمقامِ ألفِ!

بلزاك: طاقات هادرة وحب حتى الموت!

كان أونوريه دو بلزاك من أكبر الروائيين الفرنسيين، وقد صورت رواياته المجتمع الفرنسي بكافة أطيافه وتشعباته تصويراً دقيقا وشاملا. لقد كان هذا الروائي الفذ كبيراً لا بفنه وحسب بل بجسمه الضخم والمكتنز أيضاً، مثلما كان حالماً ومليئاً بالحيوية والنشاط مما ساعده على إنتاج الرواية تلو الأخرى بسرعة فائقة، وكلها تعتبر أعمالا أدبية متميزة. وكأن رأسه كان مصنع إبداع دائم التشغيل، لا يكف عن إنتاج كل ما هو عالي الجودة، رفيع المستوى.

لم يعرف الأدب الفرنسي أدباء بوزنه (المعنوي والجسدي) وبموهبته ممن تمكنوا من تسليط الضوء بدقة وبراعة على بعض زوايا الحياة. وبالتأكيد لم يكن أحد يضارعه في إظهار الصورة كاملة على الطبيعة، دون زخرفة أو رتوش.

لقد كان أديبنا الفذ بلزاك أول من حاول أن يرسم على صفحات كتبه حياة الناس بكل ما تحويه من جيد ورديء وما بينهما، وما فيها من ضعف وقوة وسعادة ونضال ونبل ووضاعة.. كل ذلك جمعه في خلطة واحدة لا يقدر عليها سوى الشيخ بلزاك.

رواياته نابضة بالحياة وواقعية كما لو تم تصويرها سينمائياً فظهرت التفاصيل بكل دقة ووضوح. وتحصيل حاصل أن بلزاك كان يمتلك مقدرة فريدة على النفاذ إلى عقول وقلوب الناس، وتعليل الكيفية التي يمكن بواسطتها لحادثة ما أن تجر معها حادثة أخرى ثم أخرى وهلم جرّا.

ولقد امتلك عدسة عقلية صافية مكنته بفعل وفضل عبقريته وفهمه الغزير من اختراق سطح الأشياء والوصول إلى باطنها.

الفيلم السينمائي يرينا شارعاً يغص بالناس المتدافعين والذاهبين هنا وهناك ليس أكثر. لكن صديقنا بلزاك استطاع أن يرينا إلى أين هم ذاهبون، وما سيحدث لهم بعد الوصول إلى ذلك المكان، وما الذي يفكرون به أثناء سيرهم ، وما السر من كون عيونهم ذات بريق أو شفاههم ذابلة أو حلوقهم ناشفة. كما كان يتميز بقدرته على إظهار الناس كجزء من العالم بأسره لا ككائنات فريدة صغيرة مجزئة وبائسة. ولذلك قيل أنه كان يتمتع بحس شمولي وهذا ما يفسر الوضوح في كتبه بالرغم من التفاصيل المذهلة التي تحويها تلك الكتب. ولقد كان الغرض من سلسلة رواياته المشهورة (الكوميديا الإنسانية) إعطاء

صورة كاملة وشاملة عن الحياة المعاصرة.
خلال ٢٠ سنة من عمله الدؤوب أنتج بلزاك ٨٥ رواية أو أكثر مما يجعلنا نتساءل مندهشين عن سر ذلك النشاط العجيب الذي دفع هذا الرجل العاطفي البدين لإطلاق شلالات من النشاط غير العادي، في الوقت الذي كان يحب الحياة الهانئة والأكل الطيب ومسامرة الأصحاب وجمع قطع الأثاث القديمة، وغير ذلك.
وُلد بلزاك عام ١٧٩٩ في مدينة تور (التي حدثت بالقرب منها معركة بلاط الشهداء) وتلقى تعليمه فيها وفي باريس حيث كان قارئاً نهماً ولم يكن بالضرورة طالباً لامعاً. درس القانون ولم ينجح في ممارسة مهنته. في السنوات الأولى لم يكتب سوى بعض روايات خفيفة سخيفة (من مستوى الفيديو كليب هذه الأيام). ولكن عندما نشرت روايته Chouans كانت الحد الفاصل بين الجد واللعب.
في عام ١٨٣٤ قابل الحسناء البولندية الكونتيسة هانسكا فغرق في غرامها حتى أذنيه وراح يبعث إليها برسائل الحب الواحدة تلو الأخرى. لكن الفارق الكبير في الوضع الاجتماعي بينهما والثراء الذي كانت هانسكا معتادة عليه جعلاه يشمّر عن ساعد الجد ويتحدى نفسه والأقدار في استقطاب قوى الحظ السعيد، فراح يكدح كدح العبيد ويضرب أعصابه بسياط وقضبان من حديد، ويشفط فناجين القهوة السادة الواحد تلو الآخر وهو جالس إلى مكتبه يقلب فكره في مغامرات مالية محسوبة وغير محسوبة حتى يتمكن من الزواج من المحبوبة التي طار قلبه معها وجن عقله بحبها. وكان من هذه الناحية شبيها بالسر وولتر سكوت في عمله المتواصل لتسديد الديون المتراكمة عليه كالجبال.
وعندما لمع نجمه وارتقى السلم الإجتماعي بكل ثقة أصبح شخصية لامعة وبارزة في المجتمع الفرنسي بل وأصبح اجتماعياً من مستوى حبيبة قلبه الكونتيسة هانسكا. وما أن سمحت ظروفه المالية حتى تزوجها في عام ١٨٥٠، لكن للأسف كان زواجاً قصيراً لم يدم سوى بضعة شهور لأن أديبنا العاشق كان قد فجّر كل طاقاته في السنين القليلة السابقة للزواج مما أستنفد قواه فمات شهيد الوفا.. ومن الحب ما قتل!

الخُرافات: من هم المتحررون من سلطانها؟

الدين هو عبادة موجهة إلى الله أما الخُرافات فهي تدنيس لتلك العبادة.
ما نعنيه بالخُرافات هو التدليس والنفاق في محاولةٍ عقيمة لإرضاء الله والحصول على

هباته دون الامتثال لقوانينه أو العمل بأوامره ونواهيه.
الخُرافات تولّد فينا المشاعر المريرة المحزنة في حين يلهمنا الدين الحق اليقين والأفكار السامية. المؤمن بالخُرافات يرفع كائنات أحط منه إلى مستوى الآلهة.
الخُرافات هي خوف غير مبرر من الله أما الفهم الصحيح للدين فهو عبادة منطقية وحقيقية للرب.
الخُرافات هي طريقة العبادة الوحيدة التي تقدر عليها النفوس غير المستنيرة.
كلنا موسومون من المهد بعادات ومعتقدات قومنا. قد تبدو المؤثرات سطحية لكنها ضاربة في أعماق الوعي ولا يمكن اجتثاثها أو محوها بسهولة. ليس من السهل تحرير شخص من المخاوف المغروسة والمغروزة في خياله، مهما حاول عقله أن يلفظ تلك المخاوف من وعيه الباطن.
إن الطفل الذي يتم تلقينه الاعتقاد بأن بعض الأحداث هي بشيرُ خير وغيرها فألُ شر، أو بأن بعض أيام الأسبوع تجلب السعد أكثر من سواها ينمو بعقلية مثلومة وأسرته هي الملومة.
المناهضون للخُرافات غالبا ما يجدون أنفسهم في قبضتها. فلو أحببتُ كلَ الألوان ما عدا اللون الأسود لكنتُ مؤمناً بخُرافة اللون الأسود. وما ينطبق على الألوان والأيام ينطبق على الأرقام.
لو قرأتَ سيرة حياة الملحدين الجاحدين للدين لوجدتهم دون استثناء يؤمنون بالأشباح والكوابيس.
للخُرافات سلطان رهيب على عقل الإنسان، ولأنها تعمل من خلال خياله وأوهامه فإنه يبصر في كل شيء رسالة له بحيث أن نجوم السماء تهدده ودعوة الشحاذ له بالخير تضمن له استحقاقات ذات شأن والحظ يلعب دوراً كبيراً في حياته و(يا نصيب اضرب وصيب!).
الخُرافات متصلة اتصالاً وثيقاً بطبيعة الإنسان الفطرية والفكرية. وعندما نظن أننا أفلحنا في اجتثاث جذورها من تربة النفس تمتد بكيفية غريبة عجيبة إلى شقوق وزوايا خفية بحيث ما أن تشعر أنها آمنة مطمئنة إلا وتطل برأسها دفعة واحدة ولسان حالها يقول: (دايماً معاك دايماً..).
الأفكار الحرة منفتحة على القناعات وقادرة على التحسين والسعي نحو الأفضل لأنها غير مكبلة بأصفاد الخُرافات والأوهام الثقيلة.

عندما يحاول القرد تقليد الإنسان يزداد مسخا وتشويهاً، وهذا ينطبق أيضا على الخُرافات التي تحاول محاكاة الدين القويم.

الضعف والخوف والسوداوية، وفوقها الجهل، هي أصل ومنبع كل الخُرافات والمعتقدات الباطلة.

الخُرافات هي من أثقل الأعباء في العالم، والتحرر منها يجعل السير سهلا وسلساً على دروب الحياة.

المعتقدون بالخرافات هم مقامرون خاسرون، يدفعون شيئا ما فيحصلون على لا شيء (تشبهاً بالفطين ياسين الذي يبيع بالخسارة طمعاً بكسب الزبائن!)

الغرير وفرشاة حلاقة الأستاذ

أخبرنا الأستاذ ميخائيل نعيمة في إحدى كتبه بأنه حصل على فرشاة حلاقة مصنوعة من شعر الغرير، وكانت بحسب وصفه فرشاة مكلفة دفع ثمنها إثني عشر دولاراً عداً ونقداً منذ أكثر من سبعين عاماً، وكان يحبذها لنعومة الشعر المصنوعة منه.

ها قد بدأنا الحديث بشعر ذلك الحيوان والآن فلننتقل إلى الغرير نفسه أو (الغريري) كما يحبذ البعض:

المسافرون عبر براري وسهول كندا وولايات الغرب الأمريكي سيلاحظون الكثير من جحور الغرير. ولكن ما لم يسعفهم الحظ فلن يبصروا الغرير أبدا لأنه حيوان خجول يحبذ الإنجحار والإستتار، ونادرا ما يخرج من جحره إلا أثناء الليل.

وحتى لو تمكنتَ من إخراجه فجأة من جحره فقد لا تلاحظه نظراً لجسمه العريض والمسطح للغاية. وعندما يستولي عليه الفزع يبسط جسمه فوق الأرض كما لو كان حصيرة أو سلحفاة. ونظراً لشعره الحريري الرمادي الطويل الذي يفرده وسط الأعشاب يصبح مموهاً وقد يعتبره من يراه حجراً أملس أو قطعة من صلصال.

لكن هذا الحيوان الخجول يصول ويجول عندما ينحشر في زاوية وعندئذ يستميت في القتال كما لو كان قطيعاً من الذئاب الكاسرة. وفي تلك الحالات يستطيع الغرير الواحد أن يقف في وجه عدة كلاب وحشية ويمزق جلودها تمزيقاً. ففكاه مكوّنان بكيفية فريدة بحيث أن خلعهما أمر شبه مستحيل. وأية فريسة أو عدو يمسك به الغرير سيعاني الأمرّين من ذينك الفكين.

يتواجد الغرير في الأجزاء الشمالية من أوروبا وفي آسيا وأمريكا. رأسه مستدق عند الخطم والأقدام مجهزة بمخالب طويلة تستعمل في الحفر والدفاع عن النفس. أما فروه السميك فهو عالي القيمة، كما يستعمل شعره في صناعة فراشي الفنانين (أو الأدباء).
يبلغ طول الغرير حوالي القدمين. لونه رمادي مع شرائط سوداء غير منتظمة على الظهر، وهناك خط أبيض يصل الأنف بالجبهة. وأمام كل عين مشحة سوداء بلون السيقان والأقدام.
ونظراً لمخالبه القوية يقوم الغرير بنبش وتوسيع أوجار وأوكار الكلاب البرية وسنجاب الأرض وحيوانات الغوفر التي بحجم الجرذان، وفئران الحقول فيمسك بها ويفترسها كما يحب أيضاً لحم الطيور والضفادع والأفاعي والسحالي والعضاءات (الحراذين وأشباهها) والجنادب والجراد.
وللغرير أبناء عم منهم النمس والضربان والقضاعة (كلب الماء) والمِنك (ثعلب الماء) وابن عرس وحيوان الدَلَق (المارتن) ذو الفراء الكثيف والشرِه (الولفرين) والمرموط.
يتم اصطياد الغرير في العديد من البلدان إما كهواية أو لمنع انتشار الأمراض التي قد يحملها. كما يتم تدريب كلاب الصيد في بريطانيا وإرلندا بإطلاقها على الغرير فتحصل بينها معارك حامية الوطيس مع تمزيق للإهاب بالأنياب. وإن أثبت أحد الكلاب أنه قادر على تحدي الغرير وقهره يكون بذلك قد برهن عن جدارته بمهنة الصيد لا سيما صيد الثعالب الحمراء ذات الفراء وهي إحدى الهوايات المفضلة عند الإنكليز.

لا يمكنه العيش معها ولا بدونها!

هذه الأسطورة الهندية القديمة عن الكيفية التي خُلقت بها المرأة تم ترجمتها من اللغات الأصلية وتحليلها وتفسيرها مرات عديدة، وقد ظهرت في مجلة Critic and Guide في عام ١٩٠٣ بهذه الصيغة تقريباً. وقد عمدتُ هنا إلى حذف أو إعادة صياغة بعض الفقرات احتراماً للمرأة التي أعتبرها يداً مباركة وقلباً محباً لا يمكن لأي مجتمع سوي أي يقوم بدونهما.
الغرض من ترجمة هذه المقطوعة هو التعريف بثقافات أخرى وتقريب وجهات النظر أو معرفة وجهة نظر الآخر على الأقل.
عندما بزغ فجر الزمان قام تواشتري إله البركان بخلق العالم. ولكن عندما أراد أن يخلق

المرأة وجد لدهشته أنه استخدم كل المواد الصلبة المتوفرة لديه في خلق الرجل، ولم يبقَ من عنصر مادي واحد يمكنه استخدامه في خلق المرأة. فوقع صاحبنا تواشتري في حيص بيص واعتراه ارتباك لا يحسد عليه فغاص في تأمل عميق لمعرفة ما ينبغي أن يفعله. وما أن استيقظ من سياحته التأملية حتى شرع بالعمل على النحو التالي:

أخذ ضياء البدر وجماله ورشاقة الطير وخفته، و تمايل الأغصان والملمس الناعم لأوراق الورد، وخفة وخفقة النسيم ورقته ونظرة الظبي وبهجة أشعة الشمس ودموع الندى وتقلبات الريح وخشية الأرنب وزهو الطاووس ونعومة الريش من صدر السنونو، وصلابة الألماس وحلاوة العسل ونكهة الأفاويه (التوابل) الطيبة، ودفء النار في الشتاء، ورعشة الثلج وتغريد الهزار وهديل الحمام!

فمزج كل هذه العناصر اللامادية وصنع منها المرأة وقدمها هدية بل تحفة لا نظير لها للرجل. فكاد الرجل يفقد عقله من شدة فرحه بها، لكنه بعد أسبوع عاد إلى تواشتري وقال له:

'يا سيدي هذه المخلوقة التي أعطيتها لي غريبة عجيبة، فقد غيرت حياتي بكيفية لم أكن أتوقعها إطلاقاً. فهي تتكلم دون توقف، فتستهلك بذلك كل وقتي، وتئن وتعن وتتأوه مع أنها سلامة قلبها في أتم الصحة والعافية. فبالله عليك أن تستردها لأنني لا أستطيع بعد الآن العيش معها.'

أخذها تواشتري منه، لكن بعد أسبوع عاد الرجل مهرولا إلى تواشتري وراح يستعطفه قائلا:

'يا سيدي، منذ أعدتُ المرأة إليك وأنا أشعر بالوحشة والوحدة. إذ لا زلت أذكر كيف كانت ترقص وتغني لي وتدللني وتسحرني بنظراتها التي كانت تصوبها نحوي من عينيها الكحيلتين، وكيف كانت تناغيني وتناديني بنغمة في منتهى العذوبة. فأرجو أن تنعم عليَّ بإعادتها إليَّ في الحال!'

أعاد تواشتري المرأة إليه. ولكن بعد مضي ثلاثة أيام رجع حضرة جنابه مرة أخرى إلى تواشتري قائلا:

'يا مولاي، بصراحة لا أعرف ما الذي يحصل بالضبط، وبت مقتنعاً بأن المرأة تسبب لي من الإزعاج أكثر ما تمنحني من الراحة والإبتهاج. فأرجوك أن تعفيني منها.'

لكن إله البركان تواشتري صاح به قائلا: 'إذهب وتدبر أمرك بنفسك أيها الرجل!'

فقال الرجل متوسلا: 'ولكن يا سيدي لا أستطيع العيش معها!'
فأجاب تواشتري: 'ولا يمكنك العيش بدونها أيضا!'
فمضى الرجل مشتت الفكر يهمهم ويتمتم: ' الله يقدرني على الصبر! يا ويلتاه! لا يمكنني العيش معها ولا يمكنني العيش بدونها.'

الإيمان رفيقٌ دائم وحضور ملازم

الإيمان هو صورة من صور الخلود ويشمل كل الأشياء قديمها ومستقبلها. فهو يوحي بوجود حقائق عليا وأمور غير منظورة. ومن يمتلك الإيمان يعرف حدساً أن هناك أشياء مجيدة في انتظاره ما دام يواصل تأدية واجباته ويشكر الله على هباته.

الإيمان المطلق بوجود الله والتأمل في عظمته يوسّع مدارك العقل وينقي القلب من الشوائب، ويعزز الفهم بل ويخلق أبعاداً عقلية جديدة، مثلما يحدّ من الرغبات الجامحة ويحجّم الهموم والمخاوف.

الإيمان يتقدم مسيرة التقدم، وهو رفيق دائم وحضور ملازم لكل فلسفة عميقة وإنسانية نبيلة وحكومة نظيفة وقصيدة ملهمة.

يجب أن يقوم الإيمان على براهين مقنعة وإلا لتحول إلى خُرافات وأوهام.

الإيمان يرتقي بالنفوس وينقي العواطف ويحفظ الكرامة الإنسانية ويضفي على ظروف الحياة العادية لمسة مميزة من النبل والسمو.

لا يمكننا أن نعيش على ما هو ممكن ومحتمل. فالإيمان الذي يساعدنا على العيش بجرأة والموت براحة ضمير لا بد أن يكون حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى مزيد من البراهين والإثباتات.

الإيمان الصادق يشبه معبداً فخماً مزيناً بنوافذ ملونة ذات رسوم بديعة وتصميمات في غاية الدقة والإتقان. الناظر إلى ذلك المبنى من الخارج لا يتبيّن شيئاً يذكر من روعته. أما بالنسبة للذين داخل المعبد فإن كل شعاع يُظهر لهم روائعَ وتحفاً فنية يصعب التعبير عنها بالكلام.

تاريخ الإيمان الحق هو تاريخ مزهر ومثمر بكل عطاء، أما تاريخ الشك فهو تاريخ قاحل مجدب مهما بدا ناضراً ومتألقاً. وكل عمل عظيم يبدأ بخطوة أولى نحو الإيمان.

الإيمان يقطع بوجود أشياء كثيرة تلتزم الحواسُ الصمتَ حيالها دون أن تؤكد أو تنفي

وجودها، لأن تلك الأشياء على ما يبدو أسمى من الحواس ولذلك فهي ليست بحاجة لشهادتها نفياً أو أيجاباً.

الإيمان والأعمال هما مطلبان ضروريان للحياة الروحية. فالإيمان هو روح الدين والعمل جسمه. (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ).

لا يفتخر الإنسان بإيمانه بالله ما دام لا يحب جاره مهما كان معتقده. وليس بالإمكان أيضاً محبة الجار دون الإيمان بالله. فالإثنان: الإيمان والمحبة لا ينفصلان ولا يقوم أحدهما بغير الآخر.

الإيمان هو العين التي تبصر الله واليد التي تمسك به وقوة التقبّل التي تقدرّه حق قدره.

الإيمان الحق ينظر إلى أعلى ويصف أشياء بعيدة. أما القوة المفكرة فلا تكتشف إلا الأشياء القريبة منها ولا ترى شيئاً فوقها.

أقدام الإيمان تخطو وتخطر على ما يبدو فراغاً لكنها بالحقيقة تجد صخوراً صلبة تحتها تسندها فلا تسقط.

الإيمان يمنح العزم في حين الشك يوهن الفكر والأعصاب ويبدد منهما الطاقة والحيوية. ولذلك الإيمان قوة والشك ضعف. والقناعات القوية تسبق الأعمال العظيمة.

الإيمان هو الجذور الحية لكل الأعمال الطيبة، أما الجذور الميتة فلا تنبت أو تنتج شيئا.

الإيمان دون عمل كطائر مقصوص الجناحين. فهو قد ينط ويتقافز على الأرض ولكنه لن يتمكن من الطيران والتحليق في الجو. ولكن عند اقتران الإيمان بالعمل ترتفع النفس بثقة وقوة إلى أعلى عليين.

ما يبعث على الإعجاب في كولومبس ليس اكتشافه قارة جديدة بل مغامرته بحثاً عنها إيماناً منه بوجودها.

الإيمان هو ريشة النفس التي ترسم بها صوراً سماوية.

أخطاء الإيمان أفضل بكثير من يقينيات الشك.

في الوقت الذي يشغل الشكُ نفسه فيه بالأمور الغامضة يتمتع الإيمان بخبز الحياة بفكر منفتح وصدر منشرح.

لو تم تجريد البشر من عنصر الإيمان لتحولوا إلى قطعان من السائمة الهائمة على وجهها دون دليل يرشدها أو هدف تسعى إليه.

الإيمان الصحيح هو الأساس الأدبي والخلقي لكل مجتمع وكل أمة.

إننا نفقد الكثير من المعارف العليا عندما نفقد الإيمان. الإيمان هو ينبوع مسرة، والمؤمنون هم السعداء حقا في الحياة.

أقوال في الظلم والظالمين

إن ظلَمَكَ أحدهم فلا تجزع ، بل اعلم علم اليقين أنه سيدفع ثمن ظلمه شقاءً وتعاسة وعدم توفيق مهما طال الزمن (فالله يمهل ولا يهمل).

الظالم مهما كان جباراً عتيا، وحتى لو مشى الملايين في ركابه وقبّلوا أعتابه فهو الخاسر والمنكسر لأن قوات السماء له بالمرصاد ولن يفلت من ضرباتها المذلة وربما القاصمة.

الله رحيم وعادل وعينه لا تنام، وهو يعاقب الظالم بأن يجعله أكثر شقاءً وتألماً من المظلوم.

أشد أنواع الظلم هي التي تتم باسم القوانين الجائرة والإصرار على تطبيقها بالقوة.

ينجم الظلم إما عن هزيمة نفسية أو عن حقارة وصَغار أو عن الإثنين معا. وهو إما وليد التسرع أو وليد الخمول. فالمتعجلون والبطيئون نادرا ما يعْدلون. والظالم إما أنه لا ينتظر أبدا أو ينتظر طويلا حتى تسنح فرصته ويفعل فعلته الخسيسة.

الكسب الحرام الناجم عن الظلم يشبه السهم الذي ينبغي سحبه نحو الخلف لإخراجه من اللحم فيسبب ما يسبب من آلام شديدة وعذاب عظيم، وإلا فسيقضي على حياة الجريح إن بقي في جسمه.

إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا. (هكذا وردت هذه الآية القرآنية الكريمة بنصها الإنكليزي في الصفحة ٢٩٤ من موسوعة الأفكار).

كل من يمتلك قوة الإرادة يسيء استخدامها ما لم يكن محباً للحق والفضيلة، سواء كان أميراً أم واحداً من عامة الشعب.

الظلم بكل صوره وأشكاله مخالف للإرادة الإلهية، وعلى هذا الأساس لا يمكن للظالم المستبد أن يهنأ بعيشه أو يرتاح باله لأن الله وأولياؤه وملائكته خصومه.

الظالم عدو نفسه. ومع أن صوت بوق الدعاية وطبل الطموح ومزمار القوة قد يطغى على صوت الضمير، لكن ذلك الصوت الحق سيصرخ في أذنيه يوما ما فيرعبه ويحرمه لذة الراحة.

القوانين الجائرة هي أسوأ أنواع الظلم والاستبداد.
الظلم علامة واضحة من علامات الضعف البشري.
ما أتعس أولئك الذين يتلذذون بغرس الخوف والرهبة في الناس بدلا من استمالتهم بالحب والعدل.
الظلم يترنح لأنه في سبيله إلى التخاذل والتهاوي عاجلا أم آجلا.
﴿اتقوا الظلم فإن الظلم ظلامة يوم القيامة﴾ حديث شريف
الظالم المستبد لا يعرف طعم الصداقة ولا يعرف معنى الحرية لأنه عبد لأهوائه الوضيعة فلا يهتم بما هو نبيل وجليل في الحياة.
الظالمون يفقدون احترام الناس لأنهم دون مستوى الاحترام.
الحاكم العادل هو الذي يعمل لا لمنفعة قلة قليلة متطفلة ومستفيدة، بل لصالح كل أفراد الشعب دون استثناء.
الظلم لا يعرف ديناً ولا رباً، ومن يتعدى على حقوق الناس هو مغتصب وينبغي التصدي له.
وصدق من قال:

وما من يد إلا يد الله فوقها
ولا ظالم إلا سيُبلى بأظلمِ

مع أساطين وعمالقة الفن

ليوناردو دافينشي

وُلد ليوناردو دافينشي عام ١٤٥٢ للميلاد وكان واحداً من بين أربعة أعظم فنانين إيطاليين عرفهم عصر النهضة. أما الفنانون الثلاثة الآخرون فكانوا ميخائيل آنجيلو ورافائيل وكوريجيو.
كان ليوناردو عبقرياً عالمياً بكل المعايير والمقاييس. ففي الفنون الجميلة لم يتميّز في الرسم وحسب بل أيضا في النحت والهندسة المعمارية والموسيقى والنقد الأدبي. وكان أيضاً ميكانيكاً ومهندساً مدنياً وعسكرياً، وعالم تشريح وعالم نبات وعالم فلك وعالم جيولوجيا. وباختصار فقد كان متمرساً في كل العلوم الطبيعية والحسابية.
وُلد ليوناردو في مدينة فينشي بالقرب من فلورنسا وقد برهن عن براعة نادرة وعبقرية

متعددة المواهب في سن مبكرة مما جعله متميزاً حتى ضِمن فئة نوابغ عصره. ولم تمر فترة طويلة حتى تفوق على معلمه الرسام الذائع الصيت فيروكشيو.

في سن الثلاثين التحق في خدمة دوق ميلانو لودوفيكو إلمورو الذي طلب منه القيام برسم لوحة العشاء الأخير أو العشاء الرباني لدير سانتا ماريا في ميلانو. ومع أن هذه اللوحة النادرة قد بَهُت لونها وتضررت بفعل الدخان والرطوبة والإهمال، لكنها ما زالت إحدى أعاجيب الجمال الروحي وتحتل مكانة متميزة بين اللوحات الزيتية على مر العصور.

في ميلانو تمكن ليوناردو من تخليد آثاره وتأثيره بإنشائه أكاديمية ميلانو للفنون. وبعد احتلال الفرنسيين لتلك المدينة انتقل إلى فلورنسا حيث رسم أشهر صورة في تاريخ الفن وهي الصورة المعروفة بالمونا ليسا أو الجوكوندة لإحدى سيدات فلورنسا الشهيرات.

أما الإبتسامة الملغزة لتلك السيدة فقد شغلت الناس على مدى قرون، ودارت حولها حوارات وتحليلات لم تنته بعد. بعض النقاد يرى لا شيء وراء تلك الابتسامة المحيّرة، في حين يرى آخرون أن عالماً من المعاني والأسرار يكتنف تلك الابتسامة الغامضة التي تعصى على الوصف.

والمونا ليسا هي إحدى تحف اللوفر التي لا تقدر بثمن. في عام ١٩١١ اختفت من إطارها فأثارت ضجة عالمية كبرى. وبعد سنتين من فقدانها تم استعادتها من لص إيطالي سرقها لدوافع وطنية.

في العام ١٥٠٢ تم تعيين دافينشي رئيساً لمهندسي ومعماريي جيش البابا مما أعطاه الفرصة لزيارة المعاقل البابوية المحصنة . أما السنوات الأخيرة من حياته فقد أمضاها في خدمة فرنسا، إذ اهتم الملك فرانسوا الأول بعبقرية دافينشي المتعددة الجوانب والمواهب. وفي عام ١٥١٦ دعاه الملك إلى مدينة أمبوا وخصص له قصر كلوس لوسيه للعيش والسكن فحضر ليوناردو ومعه ثلاثة نماذج من عمله هي المونا ليسا وسانتا آنا والقديس يوحنا المعمدان. وقد أمضى ليوناردو الثلاث سنوات الأخيرة من حياته في قصر كلوس لوسيه حتى وافته المنية في عام ١٥١٩. وقد تم تشييد نصب تذكاري تخليدا له بالقرب من إحدى كاتدرائيات ميلانو.

تميزت لوحات ليوناردو بالواقعية وقد كان سابقاً لعصره لا سيما من حيث تفكيره ذي الصبغة العلمية – الصناعية. ففكرة طائرة الهليوكوبتر تعود له بالأساس، ومثلها الدبابة واستعمال الطاقة الشمسية والآلة الحاسبة. لم يتم وضع أفكاره قيد التنفيذ إبان حياته

لأن فنون وأساليب التصنيع العصرية كانت في مرحلة الطفولة المبكرة آنذاك ولم تكن الوسائل والأساليب المتوفرة قادرة على تجسيد عبقريته مثلما تصورها ورآها.
كما ساهم ليوناردو في وضع الأسس المنهجية لعلم التشريح وعلم الفلك والهندسة المعمارية وعلم البصريات وكذلك دراسة ديناميك الموائع (الهيدروديناميك).
لم يبق من أعماله سوى بضع لوحات مع بعض الدفاتر الخاصة التي تحتوي صفحاتها على رسومات وملاحظات وصور علمية. ومن بين أعماله المتأخرة عذراء الصخور وصورة يوحنا المعمدان في متحف اللوفر.

الغجر بين الهند والمجر

الغجر هم مجموعات متنقلة من البشر، يتواجدون في معظم أنحاء العالم، ويختلفون عن باقي الناس بدرجة تتراوح بين الزيادة والنقصان من حيث المظهر واللغة والعادات. لا أحد يعرف بالضبط منشأهم الأصلي، مع أنه يعتقد بأنهم يتحدرون من إحدى القبائل الهندية، وقد تواجدوا أول ما تواجدوا في أوروبا منذ مطلع القرن
السادس عشر وأكبر تجمع لهم هو في هنغاريا (المجر) حيث يعرفون بالرومانو والسيغانو. أجسامهم بوجه العموم صغيرة وتقاطيعهم جذابة. لونهم قريب من
الزيتوني، شعرهم أسود، عيونهم براقة، شديدة السواد، وأسنانهم ناصعة البياض. لقد حافظوا على استمرارية عرقهم على مدى قرون طويلة، والطاعنون منهم في السن من رجال ونساء يتمتعون بصحة جيدة وحيوية غير عادية. لا يعرف ما إذا كان لديهم أي نظام ديني ينتمون إليه، ولكن عاداتهم وتقاليدهم تدل على معتقدات يعتبرها البعض وثنية. كما يظنون أن الغابات والغدران والأنهار كلها مأهولة بكائنات غير مرئية ينبغي طلب رضاها واجتناب سخطها من خلال طقوس وتعويذات مختلفة. والغجر (المعروفون أيضا بالزُط أو النُوَر) يمتهنون حرفاً عديدة فالرجال يمارسون صناعة السلال والزمامير (الصلابات) والحدادة والبيطرة وصنع الغرابيل ويتاجرون بالخيول، أما النساء فيعملن بضرب الودع والرمل والتبصير وفتح البخت. كما يجيدون الغناء والعزف على الآلات الموسيقية على اختلافها، لا سيما العود والدف والصنوج. وهناك عدد كبير منهم ممن انخرط في المجتمعات الراقية ونجح في مزاولة الأعمال على اختلافها.

حضر أحدهم ذات مرة إلى قريتي الرحى فلاحظ أناساً يدخلون أحد البيوت ولم يكن يعرف أن المناسبة كانت مأتماً وأن الناس يذهبون لتقديم واجب العزاء لرب المنزل بمناسبة وفاة أخيه. قصدَ صديقنا الغجري ذلك البيت يحمل عوده وما أن وصل وجلس وسط الحضور حتى راح يعزف على العود ويغني (دخل عيونك حاكينا لولا عيونك ما جينا!) فأوعز له صاحب البيت بأدب أن لا حاجة لذلك. عندئذ فهم أن الجو غير ملائم للطرب فنهض وغادر المكان بصحبة عوده. يهتمون كثيرا بالروابط العائلية. الرجال والنساء يتزوجون في مرحلة مبكرة من العمر ويعرفون بحبهم الشديد لصغارهم وتدليلهم لهم.

ولهم مفهوم غريب في الشجاعة، فإن أراد أحد الغجر أن يتحدى غريما له، دعاه إلى نهر وراح يرمي الأوراق النقدية في النهر طالباً من غريمه أن يفعل نفس الشيء، فإن لم يفعل يكون قد تغلب عليه، ويعترف له غريمه بالغلبة .تعرض الغجر للاضطهاد في البلدان التي يعيشون فيها نظرا للمفهوم السائد عنهم بأنهم نشالون سراقون، وكذلك لعدم ذوبانهم في المجتمعات التي يتواجدون فيها. وقد عُرف الغجر بالذكاء وسعة الحيلة (حتى ولو اضطر أحدهم لأن يسلخ حماراً فطساناً – أجلكم – لكي يصنع منه أدوات يتكسب بعض القروش من بيعها.)

هؤلاء الغجر الذين يلقبون أحياناً بالطيور الغريبة يقال أنهم يرهبون ثلاثة أشياء هي المعبد والبحر والمحكمة، ويتحاشون التعامل مع الحكومات. أما عاداتهم فهي القانون الوحيد الذي يحترمونه ويعملون بموجبه، كما أن زعماءهم هم من يشرّع لهم الأنظمة وقواعد السلوك. ينتقلون من قرية إلى أخرى ويسافرون من بلد إلى آخر وينصبون خيامهم في الساحات وعلى جوانب الطرقات، لكنهم يرهبون المياه العميقة فلا يسافرون بحرا. ليس للغجر ديانة بالمفهوم التقليدي، إنما حسب مقتضى الحال يدّعون أحياناً أنهم يتبعون دين البلاد التي يتواجدون فيها ولكن الواقع بخلاف ذلك.

هناك حكايات قديمة تروي كيف أن الغجر حُكم عليهم بالتنقل والترحال مدى الآجال لأنهم غير مؤمنين ولذلك كُتب عليهم الهيام على وجه الأرض دون استقرار .زحفوا على أوروبا في نهاية القرن الرابع عشر. لم يعرف أحد آنذاك من أين أتى هؤلاء القوم. فهم متكتمون فلا يفصحون عن أصلهم، ويُعرفون بأسماء متعددة مثل (جيبسي) و(سيغانو) ولكنهم يسمون أنفسهم (روم) ويتكلمون لغة تسمى روماني .ومع أن الغجر يعيشون في بلدان وقارات مختلفة لكنهم بالإضافة إلى لغة البلاد التي يعيشون فيها يتكلمون لغة

خاصة بهم. وتلك اللغة هي التي أعطت بعض الإضاءات عن هوية هؤلاء القوم ومن أين أتوا، وقد أضافوا إلى لغتهم الأصلية كلمات من لغات الشعوب التي خالطوها .في منتصف القرن التاسع عشر تمكن أحد العلماء الألمان من معرفة الكثير عن تاريخ الغجر من خلال دراسته للغتهم. وبالرغم من الاعتقاد السائد قديما بأنهم هاجروا من مصر، لكن الدراسات الجادة لأصول الغجر تؤكد بما لا يتطرق إليه الشك أنهم هاجروا من الهند وليس من مصر .منذ حوالي الألف عام انطلقت مجموعة كبيرة من الناس من شمال غرب الهند. لم يتمكن أحد من تعليل هجرتهم. وكانوا – كما هم الآن- يحبون الخيل ويعرفون كل شيء عن الخيول، كما كانوا صناعاً مَهَرة يتقنون المشغولات اليدوية على اختلافها .لدى وصولهم بلاد فارس انقسموا إلى مجموعتين إحداهما ذهبت باتجاه سوريا ومصر وصولاً إلى شمال أفريقيا، أما المجموعة الثانية فتوجهت نحو آسيا الوسطى واليونان حيث عاشوا لحوالي أربعمائة عام. ويقال أنه كان لهم مَلِك في اليونان . وفي مطلع القرن الرابع عشر انطلقوا نحو الشمال عبر البلقان إلى منطقة قليلة السكان تناسب أسلوب معيشتهم. فمكثوا لسنين عديدة وأصبح عددهم كبيرا .من هناك توجهوا إلى سهول هنغاريا الغنية ومنها إلى أوروبا الغربية حيث لا يزال بعضهم مقيماً حتى اليوم .لقد ابتدع الغجر قصة طريفة جعلت الناس يستقبلونهم حيثما ذهبوا ويقدمون لهم ما يحتاجونه. فزعماء الفرع الذي انطلق من هنغاريا أو المجر حبكوا القصة وأتقنوا الأدوار. فقد لبسوا ثياباً فاخرة توحي بأنهم زعماء كبار وسبقوا مجموعاتهم ذات الثياب الرثة بمسافة لا بأس بها. وقد سمى هؤلاء (الزعماء) أنفسهم الدوق فلان والأمير فلان وراحوا يتبخترون في مدن ألمانيا الجنوبية على خيول مطهمة والناس ينظرون إليهم بإعجاب وافتتان وقد انبهروا بمظهرهم غير المألوف. أحد هؤلاء الزعماء أطلق على نفسه إسم ميخائيل دوق مصر وكان يذهب مع (حاشيته) إلى رئيس القضاة في كل مدينة ويناوله فرماناً امبراطوريا (مزوراً) من امبراطور المجر ويخبره بقصص من نسج خياله الخصب. بعد ذلك كان يطلب امتيازات له ولأتباعه الذين في طريقهم إلى المدينة وعلى وشك وصولها بعد بضعة أيام. وكان يقول لرئيس القضاة أنه وشعبه كانوا يتبعون الدين المسيحي لكنهم قصروا في حق الدين وأدركوا خطأهم فيما بعد ولذلك نذروا على أنفسهم أن لا يناموا على فراش لسبع سنين بكاملها وأن يحجّوا إلى روما مشيا على الأقدام طلباً للعفو والمغفرة من قداسة البابا نفسه.

وبالطبع كان الزعيم مضطراً لأن يطلب طعاما لجماعته (الحُجاج) وبعض المال أيضاً. كما كان يتوقع من سكان المدينة أن يسارعوا لتلبية طلباته. وبالفعل كان سكان المدن يقدمون لزعماء الغجر ما يطلبونه منهم ولم يتسنَ لأحد أن يتأكد من صحة تلك المقولات الغجرية أو الفرمانات الإمبراطورية فجازت الخدعة على الناس.

إضافة إلى ذلك كان الناس متشوقين لأية قصة يرويها لهم الحجاج لكنهم ذهلوا وأفاقوا من غفلتهم عندما دخل أتباع فخامة (الدوق) مدنهم بأعداد غفيرة. إذ كانوا معفرين، ممزقي الثياب، وحرامية بامتياز، فلم يرغبوا بأداء أي عمل باستثناء المتاجرة وقراءة البخت. وكانوا يحبون المساومة ويصرون على أن يأخذوا نصيبهم بالوافي من كل عملية بيع أو شراء. وقد تبين للسكان فيما بعد أنهم شلة لصوص ومتمرسون بالكذب من الوزن الثقيل. أما أولادهم فحدّث ولا حرج، إذ كانوا أشطر من أهلهم بالنصب والسرقة والغش والخداع. طلائع الزحف الغجري وصلت بالفعل إلى روما وقد قابل الغجر البابا وخدعوه كما خدعوا أمراء البلاد من قبله. ومن هناك تفرقوا في طول القارة الأوروبية وعرضها، وقبل مرور قرن من الزمن كانوا قد انتشروا في كل مدينة من مدن أوروبا. وبالرغم من معايشتهم للأوروبيين لكن عاداتهم المتأصلة لم تتغير. وما أن اكتشف الناس حيلهم وألاعيبهم حتى اتخذوا إجراءات صارمة ضدهم لحماية أنفسهم وممتلكاتهم من (أبناء الخالة). تم منعهم من دخول المدن الواحدة بعد الأخرى. وعند الإمساك بأحدهم كان يتم تقييد ساقيه بأداة الباستينادو المعروفة بالفلق ويضرب ضرباً مبرحاً على أخمصي قدميه. بل وكان بعضهم يوسم على جبينه بقطعة حديد حامية. ومنهم من تم شنقه أو حرقه حيا دون محاكمة. وقد تعرضوا لاضطهاد كبير في ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية. ويقال أن كل المشغولات المعدنية اليدوية في أوروبا الشرقية كانت حكراً على الغجر الذين طلبهم ذات مرة قيصر روسيا كي يرقصوا أمامه رقصتهم الشهيرة والمعروفة حتى اليوم برقصة الغجر.

أزاهير من مروج الفكر العالمي

آمنٌ كالسلحفاة تحت درعٍ من صدفْ.
آمنٌ كالطفلِ في حضن الحنونةْ.

آمنٌ كاللصِ أو كالفأر وسطَ المطحنة (حيث الطعام نعمة كريم بالنسبة للفأر الجائع وحيث الضوضاء لا تسترعي الإنتباه ولا تشي بالحرامي فيطلق يده بخيرات المطحنة).

آمنٌ كالبلبلِ إذ يشدو لحنا.

آمنٌ من كلِ همٍ كالوليدْ

مقدسٌ كقطط الفراعنة.

مقدسٌ في الهند مثل الآلهةْ.

مقدسٌ كما التمساحُ في مصر القديمةْ.

مقدسٌ مثلَ ابتهالٍ صامت.

مقدسٌ كالأنبياء، مثلَ مقام الأولياءْ، مثل المزارْ.

محزنٌ كالظلمةْ في قاع البحار.

محزنٌ كالندبِ على الميّت.

محزنٌ ومؤلمٌ كضرْبات القدرْ.

محزنٌ كتوديعْ الأحبةْ والصحابْ.

محزنٌ كالغربةِ عن الوطنْ.

محزنٌ كغصّات البراءة الضائعةْ.

محزنٌ مثلَ نحيب الريحِ في فصل الشتاءْ.

محزنٌ كالدمعِ في جَفن الشفقْ

محزنٌ مثل الوجوه اليائسةْ

محزنٌ كرؤيةِ قبر الحبيبْ.

محزنٌ كما تنهُد الريحِ بغابات السرو.

محزنٌ مثل افتراق العاشقين.

محزنٌ كأطيافٍ من الماضي البعيد.

محزنٌ كمرأى الغصنِ من فوق الضريحْ

محزنٌ كالشفقْ الباكي فوق المحيط.

واثقٌ كالطير في أجوائه.

واثقٌ كالسمكِ وسطَ المياه.

واثقٌ كالعدلِ في روعته .

واثقٌ لا يخشى غيرَ الخالق .

واثقٌ كالشمس لا ترهبُ شيئا.

واثقٌ كالصدقِ لا يخشى الزمانْ.

واثقٌ كمن رأى نور القدير.

صادقٌ مثل المرايا الصافية.

صادقٌ كالشمس في أفعاله .

صادقٌ مثل الطبيعة، مؤتمن على الوديعةْ.

الغربة وكيفية التعامل معها

طلب مني الصديق باسم منذر من ألمانيا كي أكتب موضوعاً عن الغربة عن الوطن وتأثيرها على الفرد والعائلة. وهذا موضوع حساس وذو أبعاد عاطفية واجتماعية لكل من فارق الوطن وحُتم عليه العيش بعيدا عن مرابع الأنس بين الأهل والأصحاب. ومَن مِن المغتربين – وأنا واحد منهم – لم يذق مرارة الاغتراب وكأنه ترك قطعة حية من

كيانه في الأرض التي نشأ وترعرع فيها، فشرب من مائها وتنسم هواءها واكتحلت عيناه بسهولها وتلالها واعتادت أذناه سماع أصوات أهله وأصدقائه بين ظهرانيها؟! لا أظن أنني مبالغ إن قلت أن فراق الأحبة أصعب – كما يقولون – من فراق الأموات. فالذين مضوا رحمة الله عليهم نعرف أن لا لقاء لنا معهم ثانية على هذه الأرض، أما الباقون فقد تمرّ الشهور والسنون ونحن نحس بوجودهم، نشتاق لقاءهم، نستعيد ذكريات الماضي معهم وندرك فيما بعد أن (العين بصيرة واليد قصيرة) فنعرب عن مشاعرنا الجياشة بطريقة أو بأخرى، وإن استمعنا لأغنية تشير من قريب أو بعيد إلى الوطن أو الأهل تحتدم العواطف ويلتهب الحنين وإن كنا لوحدنا فقد نسمح لأنفسنا بسماع صوت أشواقنا! الغربة واقع ينبغي التعامل معه من الناحيتين العاطفية والاجتماعية. ولعل لكل مغترب طريقته الخاصة في معالجة هذا الواقع بحسب ظروفه والإمكانات المتاحة. بالطبع الأسَر المهاجرة يكون شعورها أخف بوقع الغربة من الأفراد الذين يعيشون لوحدهم، لا يتكلمون لغتهم الأم على أساس يومي، ولا يسهرون ويسمرون مثلما كانوا يفعلون في أجواء شرقية حيث الناس تفهم بعضَها وتستأنس بصحبة بعضِها. وهذا الانتقال من جو مألوف إلى آخر غريب في لسانه وعاداته وطباع أهله وقوانينه ونمط معيشته يولّد تلك الصدمة الثقافية التي عانينا منها ولم يزل بعضنا يعاني حتى بعد مضي سنين طويلة. قد يعيش المغترب في وسط غربي راق، حيث ضرورات ومسرات الحياة متوفرة والفرص متاحة والحرية المفقودة في الوطن موجودة في المغترب بوفرة، غير أن شيئا ما يبقى مفقودا، وذلك الشيء هو الشعور بالانتماء لشريحة كبيرة من المجتمع تتكلم لغتك التي تحبها وتسمع فيها عبارات محببة للقلب مثل: (صباح الخير أو مساء الخير أو تفضل، أو أهلا وسهلا ، أو شرفونا أو شرفتونا) كل ذلك بعبارات ترتاح لها وتحرك شغاف القلب منك. المجتمعات الغربية تتميز بالكثير من الإيجابيات كاحترام النظام والتقيد بالمواعيد ومراعاة الخصوصية والإخلاص في العمل والتعامل وعدم الافتئات على الحقوق. لكن التقيد الزائد ببعض هذه النظم الاجتماعية لا يستسيغه الشرقيون ويصعب عليهم التأقلم مع بعض أو الكثير من العادات والتقاليد الغربية. هناك مثل معروف وهو (صبحك بالخير يا جاري إنت بدارك وأنا بداري.) قد تكون لهذا المثل منافع من حيث عدم التدخل بالشؤون الشخصية واحترام أسلوب حياة الفرد، إنما أن تعيش لعشر سنين أو عشرين سنة أو أكثر دون أن يزورك جارك أو تزوره، أو أن

يقتصر التعامل بينكما على تلويحة باليد أو كلمة (هاي أي مرحبا) تكون أحيانا رفع عتب، فهذا ما لم يتعود عليه الشرقيون ويستصعبون التأقلم معه لأنه غير طبيعي بالنسبة لهم. أرجو أن لا يُستدل من كلامي هذا توجيه الانتقاد للغربيين بسبب نمط حياتهم وأسلوبهم في التعامل، لأنه لا يحق لي أن أفعل ذلك سيما وأنني أعيش بينهم وأتعامل معهم بحسب مقتضى الحال. وبالرغم من الجو الغربي العام الغريب علينا وتحفظ الغربيين في تعاملهم معنا، لكن هنا وهناك نجد إنساناً منفتحا يبدى اهتماما صادقا ويعرض خدماته بإخلاص ويفعل ما بوسعه ليجلعنا نحسّ أنه يتعاطف معنا ويشعر بشعورنا. ولعل ما يخفف وطء الغربة وجود العرب في كل مدينة من مدن أمريكا وأوروبا. وبعض المدن فيها تواجد عربي كثيف بحيث لا يتكلم بعض المغتربين إلا اللغة العربية. تصوروا أن أناساً مضى عليهم ثلاثون عاما أو أكثر في أمريكا وهم ما زالوا لا يتكلمون الإنكليزية بشكل معقول، وأضطر أحيانا للذهاب معهم إلى المحاكم أو مكاتب المحامين أو شركات التأمين للترجمة. وهذه ناحية سلبية تحسب عليهم، إذ لا تساعد إطلاقا على التعامل منطقيا مع المجتمع الغربي خارج نطاق الجالية. إن تعلُّم اللغة في البلد الذي يعيش فيه الإنسان هو واجب مفروض من الواقع، ومن الخطأ أن يستخف المغترب بهذه الناحية. المدارس متوفرة والتسهيلات متاحة لكل من يريد أن يتعلم لا سيما لغة البلاد. والجمعيات والمؤسسات العربية ناشطة في مجال تقديم الخدمات الإجتماعية للمغتربين، وللعاملين فيها جهود تذكر وتشكر، وفيها الكثير من المتخصصين في شتى مجالات الرعاية الاجتماعية التي يحتاج لها المغتربون. ولا بد لي أن أحيي كل العاملين في مؤسساتنا العربية على اختلافها لأن بفضل جهودهم وتفانيهم يحصل المغتربون على تسهيلات كبيرة على كل صعيد. ذكرت إيجابيات هذا المجتمع وهناك من يستفيدون منها فتؤثر إيجابيا على نوعية حياتهم وتسهل لهم سبل التواصل مع المجتمع. ولا بد هنا من التشديد على أهمية احترام القانون ومراعاة المواعيد التي هي المحك لكل مغترب. فالغربيون لم تُفرض عليهم القوانين فرضا كما في الشرق، بل هم الذين اختاروا قوانينهم وهم مقتنعون بسلامتها وفعاليتها ولذلك يراعونها بدقة قدر المستطاع. طبعا هناك شواذ من حيث كسر تلك القوانين إنما الشواذ لا يقاس عليه. إضافة إلى احترام القانون ومراعاة المواعيد أود أن أضيف أن الصدق هو عنصر أساسي في التعامل مع الغربيين. فهم إن أعطوك كلمتهم لا بد أن يحققوا ما وعدوا به أو إذا تعذر ذلك يقدمون المبرر المنطقي

في حينه. إن فكرة احترام المواعيد بالنسبة للعرب غير متأصلة في وعيهم. كم من مرة ذهبت للترجمة في مكتب أحد المحامين، لكن الشخص أو الأشخاص العرب المفروض تواجدهم في نفس الوقت والمكان لم يأتوا ولم يتصلوا لإعطاء سبب تخلفهم عن الحضور. مثل هذا الإخلال في احترام المواعيد يعطي انطباعا سلبيا عن الجالية ويجب على كل مغترب يحترم نفسه أن يحترم مواعيده ويعمل قصارى جهده في المحافظة عليها. نعود إلى موضوع الغربة، فوسائل الاتصال هذه الأيام قد خففت الكثير عن المغتربين، حيث الفضائيات تنقل الصورة والصوت في نفس اللحظة، وحيث التواصل عن طريق الهاتف والإنترنت. لقد كنا في الماضي ننتظر الأسبوع تلو الأسبوع للحصول على رسالة من الأهل والأصدقاء، وكان لتلك الرسائل لذتها، فكنا نقرؤها أكثر من مرة، نتأمل الخط ونقرأ السطور وما بين السطور وإن أتت صورة ضمن الرسالة كان لها وقع خاص في النفس. وكل سبل التواصل العصرية لا تعوض عن تلك الرسالة التي كان القلب يخفق فرحا لمجرد رؤيتها في صندوق البريد. ولكن الحياة وظروفها في تغير متواصل وينبغي أن نتأقلم ما أمكننا مع واقعنا الجديد، وأن نستفيد من إيجابيات هذا العصر ومنها هذا التواصل عن طريق الإنترنت، وبالتحديد عن طريق موقع السويداء نت الذي دعانا إلى وليمة المحبة والصداقة والمشاركة القلبية التي نشعر بها في أعماقنا. فتحية للصديق باسم الذي اقترح الموضوع، وتحية لموقع السويداء نت الذي اختزل المسافات وخفف عنا ألم الإغتراب فجَمَعَ شملنا كأسرة واحدة ويا محلا لمّ الشمل! وعلى قدر التواصل نتغلب على آثار الغربة ونحس بدفء وأواصر القربى.

نبذة عن الأسينيين

ظهرت هذه الجماعة في القرن الثاني قبل الميلاد في عهد يوناثان المكابي، وقد يعود تاريخها إلى أبعد من ذلك بكثير .تميَّز الأسينيون بتنظيم خاص بهم يقوم على حياة النسك والبر والتقوى والمحبة نحو بعضهم البعض ونحو كل الناس. وكان لديهم قوانين وقواعد محددة تنتظم معيشتهم ويراعونها مراعاة تامة في أدق تفاصيل وشؤون حياتهم. كما كان كل أفرادها من الرجال، يحيون حياة التبتل، ويحرّمون الإختلاط بالجنس الآخر . وكانوا يستقطبون أعضاء جدد من خارج الجماعة لأن الزواج كان محظورا عليهم. لقد شجبوا العبودية من حيث النظرية والتطبيق. وعاشوا حياة جماعية متحابة، يخدم

بعضهم الآخر بحسب مبدأ الفرد في خدمة الجميع والكل في خدمة الفرد .وكانوا يختارون كهنتهم بأنفسهم وكذلك رؤساءهم وموظفيهم وقضاتهم. كما كانت لهم اجتهادات خاصة في التأمل بأسرار الكون ومعنى الحياة، بعيداً عن الطرق التقليدية المتبعة في المذاهب السائدة آنذاك، متماهين مع المفكرين الإغريق وربما مع الأفكار والمثل الشرقية أيضا. لا يُعرف بالضبط إلى أي مدى عزل الأسينيون أنفسهم عن المجتمع من حولهم. ويقول المؤرخون أنه لم يكن لهم مدينة خاصة بهم، لكنهم سكنوا في كل مدينة. ويقال بأنهم كانوا عموماً يتحاشون السكن في المدن الكبرى مفضلين عليها البلدات والقرى الصغيرة. كان عددهم بحسب بعض المؤرخين حوالي الأربعة آلاف. وكانت الزراعة المهنة المحببة إلى نفوسهم، كما كانوا ميّالين إلى اعتزال الناس وهمومهم وشواغلهم الاعتيادية، محبذين العيش ببساطة وسلام. أخيرا قرروا العيش في مستوطنة ملائمة لحياتهم النسكية عند شاطئ البحر الميت .لم يرفض الأسينيون الزواج لعدم إيمانهم بصحته أو بكيانه كركن من أركان المجتمع من حيث دوره في استمرارية الجنس البشري، بل لتحفظات شخصية واعتبارات تتصل بفلسفتهم ومعتقدهم. وكانوا يتبنون الأطفال في مرحلة مبكرة جدا من العمر ويشرّبوهم مبادئهم منذ نعومة أظفارهم. وكانوا لا يأبهون للثراء ولا يسعون لتكديس المال، بل يقال أن حياتهم كانت وسطاً بين الغنى والفقر. ولدى تكريس الفرد في تعاليمهم ومبادئهم كان يعطي كل ما لديه للجماعة، وكل من كان يكسب شيئا كان يقدمه للصندوق المشترك كي يكون في خدمة الجميع. لم يعتنوا بمظهرهم الشخصي، ولم يستبدلوا ثيابهم أو أحذيتهم بغيرها إلا بعد أن تكون قد أصبحت مهترئة وبالية تماما وغير صالحة للاستعمال. أما اللون الوحيد لثيابهم فكان الأبيض. ونشاطاتهم اليومية كانت تحدَّد بحسب برنامج صارم يلتزمون به دون إخلال. فقبل شروق الشمس لم ينطقوا بأي كلام دنيوي، بل كانوا يتوجهون إلى الشمس بدعاء خاص كما لو كانوا يستعطفون إشراقها عليهم. بعد ذلك كانوا ينصرفون إلى أعمالهم، كل منهم بحسب المهنة التي يزاولها حتى الظـُهر تقريباً، ثم يتوقفون ويغتسلون بالماء البارد. بعدئذ يجلسون صفوفاً في حجرة الطعام حيث كان الخباز يجلب لهم الخبز والطاهي يقدم لهم لوناً واحدا من الطعام. وكان الكاهن يرفع صلاة الشكر قبل تناول الطعام وعند الفراغ من تناوله. بعد ذلك كانوا يواصلون العمل حتى غروب الشمس. وفي المساء كانوا يتناولون عشاءهم بهدوء وسكينة بعيدا عن الضجة والضوضاء والكلام العقيم. وفي أوقات أخرى كان الحديث

متاحاً لكل منهم شرط أن لا يحتكر أحدهم الكلام ويأخذ حصة غيره منه. وكان الهدوء الشامل يبعث الرهبة والدهشة في نفوس الزائرين غير المعتادين على مثل تلك الأجواء. ولعل ذلك الانضباط التام كان له صلة وثيقة باعتدالهم في تناول الطعام والشراب. لقد كان محظوراً عليهم أن يحلفوا، فكلمتهم كانت بمثابة القسَم. وكانوا بعيدين عن الغضب، مالكين لأنفسهم، يحترمون ويطيعون كبار السن منهم ويتعاملون بمودة وصفاء نية نحو بعضهم البعض. كانت فترة التدريب للراغبين في الانتساب تمتد إلى ثلاث سنوات لمعرفة مدى أهلية المريد وصلاحيته. فإن نجح في هذه الفترة التحضيرية التدريبية كان يؤخذ عليه عهد بأنه سيقدّس الرب المعبود ويكون عادلا بين الناس، فلا يتعمّد إلحاق الأذية بأي إنسان، ويبتعد عن العنف ويكون مخلصا وفياً للجميع. كما كان يتعهد أيضا بأنه إن أصبح يوما ما حاكما فلن يستغل مركزه وسلطته وصلاحياته ليظلم العباد ويستبد بهم، ولن يباهي من هم دونه منصباً أو مؤهلات، ولن يشمخ أو يتعالى عليهم. بل سيحصر همه في تكريم الحق والحقيقة وفضح الكذابين المزيفين، وبأنه سيبقى نظيفا لا يلوث يديه بالسرقة أو الكسب غير المشروع، ولن يخفي شيئا عن إخوته في الجماعة، أو يفشي أسرارهم للغير، حتى ولو أدى ذلك إلى موته، وأن يحافظ على التعاليم دون تحريف أو تحوير لها... الأعضاء الذين كان يثبت تورطهم في أفعال خطيرة أو مشينة ومنافية لتعاليمهم ومبادئهم كانوا يُطردون من الجماعة، دون إمكانية قبولهم ثانية إلا بعد أن يصلوا إلى أسوأ حالات الفقر أو المرض. ونتيجة لاعتدالهم في المأكل والمشرب وانضباطهم في عاداتهم الشخصية الأخرى فقد عاشوا عمرا مديدا بمنأى عن الألم والخوف .وقد مروا خلال الحروب الرومانية بتجارب قاسية ومريرة، فاحتملوا آلامهم ببشاشة دون الإخلال بعهودهم التي قطعوها على أنفسهم. بل يقال أنهم بلغوا ذروة الفضيلة والأخلاق في العالم القديم. كانوا عادلين في أحكامهم، رحماء وكرماء في تعاملهم مع بعضهم ومع الناس، وذوي ميول روحية أكيدة. وكانوا يهتمون اهتماما خاصا بالمرضى وكبار السن ويحيطوهم بالرعاية والشفقة. كما كانوا ينددون بالعبودية على أنها افتئات على حقوق البشر الذين هم أخوة متساوون بالحقوق والواجبات أمام خالقهم... لقد كان التوجه العام للجماعة ذا طابع عملي من كل الوجوه. كما كانوا يرفضون المنطق كأحد الشروط الأساسية لكسب الفضيلة، مثلما كانوا يعتبرون أن في الطبيعة عقلا مدبراً يفوق كل الأفكار والتصورات البشرية. ومع ذلك كانت لهم آراؤهم الخاصة عن الله

وعنايته الإلهية وعن الروح ومستقبلها في عالم الغيب. وكانوا يرفضون ذبح الحيوانات والتضحية بها. أما كتبهم المقدسة فقد كانوا يختصونها باحترام بالغ وقدسية فريدة. وكانوا يقدسون الشمس على أنها مصدر الحياة والحيوية للأرض وما عليها. كما كانوا يؤمنون بخلود النفس وبأن وجودها في هذا العالم هو موقوت، وإنها عند الموت تتحرر من قيودها وارتباطاتها الأرضية وتنطلق ببهجة فائقة إلى آفاق النعيم العليا حيث لا حر ولا ثلج ولا مطر ولا غيوم ولا هموم ، بل نفحات نشوانية تهب على الروح فتنعشها وتملؤها بغبطة الوجود.

وقفة مع أحد ألمع وأنفع علماء الأرض

كان لوثر بربانك أحد عمالقة علوم الطبيعة وربما كان أول من امتلك معرفة دقيقة وعميقة بأسرارها فأحدث تغييرات عجيبة فيها واستحدث ألواناً وأنواعاً لا تحصى من الزهور والثمار والحبوب عمّ انتشارها كافة أقطار المعمورة. لقد أفلح هذا الرائد الفذ في استنبات فصائل جديدة من الخوخ والدراق والكرز والجوز واللوز والفستق والبطاطا والبنادورة لم يرها العالم من قبل.

وكان الناس قد جرّبوا قبله ولآلاف السنين طرقاً عديدة لتحقيق تلك الغاية فكانت النتائج ضئيلة لا تفي بالمأمول. كل مزارع كان يزرع أفضل ما لديه من بزور ليحصل على نوعية أفضل وأوفر من المحصول.

وقد تواصلت هذه العملية وتواصل تبادل الآراء والخبرات المحدودة بين المزارعين قبل أن ينزل علماء الزراعة إلى الساحة بكل ثقلهم، وأولهم كان الشهاب الثاقب لوثر بربانك الأكثر شهرة في هذا المجال في كل بلدان العالم، لأن ما من بلد إلا واستفاد من خبراته الغزيرة وتجاربه المثمرة.

لم يدرس بربانك قوانين الطبيعة ليكتشف أسرارها كما يفعل باقي العلماء، بل كان شخصاً بسيطا لكن خلاقا وعلى توافق تام مع القوى الطبيعية التي تناغم معها فجاءت فتوحاته عفوية وطبيعية كما لو كانت شيئا عاديا .كان صبوراً إلى أقصى الحدود، مثابراً كل المثابرة على عمله، دقيق الملاحظة لكل ما يدور حوله، ومؤمناً كل الإيمان بمبدع الطبيعة ومدبّرها. لقد عرف كيف يجعل الأشجار والنباتات تتعاون معه وتمتثل لإرادته، دون أن يعرف كثيراً عن كيفية حصول ذلك، وتلك هي المعجزة !تمكن بربانك من استحداث عدة فصائل من البطاطا، وكلها ذات نوعية جيدة . كما تمكن من استنبات أنواع جديدة من الذرة والطماطم

والبازلاء والخضروات الأخرى التي لم تكن معروفة من قبل. مثلما تمكن من استنبات نوع من البرقوق بدون بزور وآخر من الخوخ قابل للتجفيف وذي صلاحية تمتد إلى عدة شهور. كما تمكن من إنبات نوع من صبار كاليفورنيا بدون شوك.

(وقد شاهدت بنفسي ولمست بيدي شجيرة من هذا الصبار وهي سلالة ورقة صبار كان قد أعطاها لوثر بربانك لصديقه برمهنسا يوغانندا مؤسس جماعة معرفة الذات فغرسها في عام ١٩٢٤ وقد أصبحت الآن نبتة كبيرة وما زالت تنعم بالنور والحياة حتى يوم الناس هذا. أما طريقته في هذا الاستنبات اللا شوكي العجيب فكانت تتمثل في تأكيده المتواصل للصبار بأنه سيحميه ولا حاجة به لأشواك كي تدفع عنه غائلة الأذى، فوثق الصبار به وتخلى عن شوكه، وبذلك تحولت رقع من الصحراء إلى جنات غناء.) كما تمكن هذا العالم الفريد من تغيير العديد من ألوان وأحجام وأشكال الأزهار والورود الأمريكية. لقد كان معلماً بامتياز في مجال تعديل واستصلاح وابتكار الأنواع الجديدة من النبات والفواكه والخضروات على اختلافها. ولد لوثر بربانك في مدينة لانكستر بولاية ماساشوستس في العام ١٨٤٩ وعاش كصبي فقير في إحدى المزارع، ولم يحصل على تعليم مدرسي منتظم ومتقدم. دخل مجال العمل في سن مبكرة ووجد نفسه منجذباً للحقول والروابي والمروج بزهورها وأشجارها، وأحس كأن قوة خفية وضعت في يده المفتاح إلى قلب الطبيعة .وفي العام ١٨٧٢ استحدث أفضل نوع للبطاطا لم يكن أحد قد سبقه إليه من قبل في نيو إنغلند، وهذا ما يعرف اليوم ببطاطا بربانك. بعد ذلك انتقل إلى ولاية كاليفورنيا الأكثر ملاءمة لعمله. وهناك في مدينة سانتا روزا انكبَّ على العمل الجاد والمجدي لأكثر من نصف قرن يستنبت ثمارا ونباتا وحبوبا وزهورا في غاية الجودة والروعة .لقد طبقت شهرته الآفاق وتهافت علماء الزراعة والمزارعون عليه من كافة أنحاء العالم ليتعلموا شيئا جديدا من مخزون علمه الذي لا ينضب. وكثيرا ما كانت الحكومات توفد مبعوثيها للقائه والتعلم منه. وقد ساهم مساهمة فعالة بزيادة محاصيل ومداخيل المزارعين، وأهدى للمزارع والبيوت من الطيبات التي ما خطرت ببال الناس من قبل. وقد اعتبرته ولاية كاليفورنيا ابنها البار والمواطن الأول الذي تعتز وتفتخر به، فوافقها العالم بأسره على الاحتفاء به وتكريمه. وقد غادر هذه الدنيا في العام ١٩٢٦ بعد أن علّم الناس كيف يتعاملون مع الطبيعة ويحصلون على بركاتها بالتوافق معها وباحترام قوانينها.

قصة الخضر الحاضر الناظر..

جاء في قاموس محيط المحيط ما تلخيصه:

(الخضر هو صاحب النبي موسى (ع) ويكنى بأبي العباس، وقيل اسمه إليا وهو نبي..

ومنه قول أبي الطيب :إذا ما ذكرنا جودَهُ كانَ حاضراً

نأى أو دنا يسعى على قدم الخضرِ

و يقال أن الخضر لا يُذكر في مكان إلا حضر ولهذا يقال فلان كالخضر حاضر ناظر..)

لكن التاريخ لا ينبئنا كثيراً عن هذا القديس الغامض المقترن اسمه بالنجدة ودرء الأخطار ورفع الحيف. ومع ذلك يقال أن أحد أولياء الله استشهد في فلسطين في القرن الثالث الميلادي وقد شيّد معبدٌ له في نفس المكان الذي يقال أنه استشهد فيه. وكان الناس يذهبون بأعداد غفيرة للتبرك به والتماس شفاعته .هناك أساطير كثيرة حول الخضر ولكن أشهرها قصته مع التنين ذلك الوحش الخرافي الذي يشبه الزواحف وينفث النار والدخان، والتي تذهب على هذا النحو :في سالف الأزمان عاش سكان أحد المدن في رعب دائم بسبب تنين رهيب كان يخرج كل ليلة من مستنقعه ويلتهم قطعان الغنم. وكان نفَسه ساماً ونتناً بحيث لم يتمكن أحد من الاقتراب منه أو الوقوف في وجهه. وقد هرب سكان المدينة بعيداً عنه وكانوا يقدّمون له نعجتين كل يوم على أمل أن يتركهم وشأنهم. أخيراً افترس التنين كل الغنم وطلب من أهالي المدينة أن يقدّموا له كل يوم طفلين اثنين بدلا من النعجتين. وإذ وقع الناس في حيرة كبيرة واستولى عليهم الخوف فقد امتثلوا لطلبه، وراحوا يضربون قرعة كل يوم لمعرفة مَن مِن الأطفال سيكون الضحية التالية. أخيراً جاء دور ابنة الملك الأميرة كليودوليندا كي تُقدَم إلى التنين. شعر الملك بكرب شديد وآلام نفسية حادة نتيجة لذلك وعرض نصف مملكته كي يفتدي بها ابنته المحبوبة. لكن ذلك أثار حفيظة رعاياه إذ لم يرتاحوا لفكرة افتداء ابنة الملك في الوقت الذي كان أولادهم وبناتهم يلاقون حتفهم. لكن كليودوليندا واجهت قَدَرها بشجاعة ورباطة جأش، فلبست أحلى ثيابها وقبّلت يد أبيها وقالت للناس أنها ترحب بالموت فداءً لهم. ثم خرجت بمفردها وأغلقت بوابة المدينة خلفها. سارت الأميرة لوحدها على طريق الموت الرهيب حيث العظام المتناثرة للذين سبقوها. واصلت السير إنما غلب عليها الحزن فبكت بكاءً مراً وانسحق قلبها لمجرد التفكير بمحنتها القادمة.

ولكن فجأة أبصرت فارساً شاباً لم يقع بصرها من قبل على مخلوق أنبل منه وأكثر وسامة. وكان في كامل عدة الحرب الملكية .اقترب منها الهوينا وسألها قائلا: 'لماذا تبكين أيتها الفتاة؟' فأخبرته عن قدَرها المشؤوم، فما كان منه إلا أن طيّب خاطرها ووعدها بأنه سيقضي على التنين اللعين باسم الواحد القهار .حاولت الأميرة أن تثنيه عن نيته لأنها لم تطق أن ترى هكذا شاباً يقضي في معركة غير متكافئة مع وحش كاسر لا يقهر. لكن الشاب الذي لم يكن سوى الخضر بذاته، لم يتراجع بل واصل تقدمه. وفجأة ظهر الوحش المخيف، يشخر وينخر وينفث النار والدمار على جري عادته . فما كان من الشاب الجريء إلا أن استعان بالله وانتخى ثم هجم عليه بهمة لا تعرف الخذلان. وفي الوقت الذي كانت الأميرة تنظر إلى المشهد المروع ضرب الخضرُ التنينَ برمحه فنفذ منه ونشب في الأرض بحيث أصبح التنين عديم القدرة على المناورة. ونادى كليودوليندا قائلا: 'اقتربي ولا تخافي'. وعندما اقتربت قال لها قيديه بحزامك كالرسن حول رقبته. لا تخشي التنين فقد أصبح عديم الحول والحيلة. وكانت ثقة الأميرة كبيرة بذلك الغريب الجريء ففعلت ما طلبه منها، وزحف التنين بجانبها نحو أسوار المدينة كما لو كان كلباً مطيعاً .وما أن وصلوا إلى المدينة حتى خرج سكانها عن بكرة أبيهم وقد استولى عليهم الخوف واعترتهم الدهشة لهذا المنظر الغريب. لكن الخضر عليه السلام طمأنهم من خوف، وأكد لهم أنهم إن هم آمنوا صغيرهم وكبيرهم بالله الواحد الأحد فسيذبح التنين أمام أعينهم ولن يعودوا يخشون صولته أبدا. وما أن أعلن سكان المدينة إيمانهم حتى استل الخضر سيفه وفصل رأس التنين عن جثته فأخرجها الناس إلى الحقول مستخدمين أربع عربات تجرها الثيران، وهكذا كانت نهاية التنين. وقد رفض الخضر أن يأخذ أية مكافأة جزاء صنيعه، بل طلب من الملك أن يوزع المكافأة على الفقراء والمحتاجين من سكان المدينة. وإذ ذبح التنين وحرر المدينة امتطى الخضر جواده وانطلق في حال سبيله.

أسمهان: ما وراء الصورة والصوت

لا أعرف لماذا تختلج مشاعري وأحيانا تدمع عيني كلما استمعت لصوت أسمهان الذي لم ولن يعفو عليه الزمن ما دام في الناس ذائقة فنية تحسن التمييز وتتناغم مع كل ما هو نبيل وأصيل في الحياة .لقد حاولت كثيرا تحليل هذه التفاعلية العفوية مع صوت

لم تعد صاحبته بيننا بشخصها لكنها ما زالت موجودة على كل حال، نشعر بقربها ونحس رقة روحها وعذوبتها من خلال تلك المقاطع المقتطعة من فلذة وجدانها وهي تنشد بنشوة الصوفي ووجد المحب الولهان ولهفة الأم على وحيدها ونخوة الشهم الشجاع استجابة لنداء الواجب، ومن ذا الذي لا يتأثر بكل هذه الوجدانيات المتأججة!؟ ولقد استنتجت أخيراً أن صاحبة ذلك الصوت المتميز لم تكن مجرد مطربة بالمفهوم التقليدي بالرغم من طبيعة وكلمات أغانيها التي كُتبت ولُحنت لها كي تنشدها . لا أدّعي بأنني أعرف كل تفاصيل حياتها مع أنني قرأت الكثير عنها، لكني أحاول هنا تكوين استنتاجي الشخصي عن تلك الإنسانة الفريدة من خلال ما بقي لنا من شخصها، وبذلك أعني الصورة والصوت .أما صورتها فتعطي انطباعاً بأنها شخصية عالمية تضارع جمالا ونبلا شخصيات أشهر نساء الدنيا على مر التاريخ. والذي يتأمل في تقاطيع وجهها ونظرتها الساهمة البعيدة يبصر أطيافاً متلاحقة ويقرأ معانيَ كثيرة وكبيرة، بل وأن تلك الصورة توحي بأن صاحبتها أتت من شاطئ أثيري بعيد وظلت دائمة الشوق والتحنان إلى موطنها الأصلي، وقد جسدت ذلك الشوق العارم بتلك الأغاني الشجية النابعة من روح لم تتأقلم كلياً مع هذا المستوى الأرضي، ومن سخرية القدر أنها فارقته في بواكير العمر بعد أن تركت بصمة خالدة ولمسة صوتية مذيبة تتجاوب معها القلوب بتلقائية عجيبة. فبعيداً عن أحداث حياتها المعروفة للجميع وتقييمها الفني المستفيض من مفاتيح الرأي في هذا المجال، ترى من كانت تلك الإنسانة التي نعرفها باسم أسمهان؟ وما هي تلك المقومات الذاتية التي ساعدتها على الانتساب الطبيعي والتام لمصاف الخالدين الذين تحبهم الإنسانية وتقدرهم حق قدرهم؟ قد لا يكون من السهل معرفة الجواب الشافي لهذه التساؤلات، إنما ليس من الصعب تحديد ميول أسمهان الروحية وتناغمها مع مناطق شفافة من الوعي، وقد برهنت عن ذلك بقدرتها على حلحلة المشاعر البشرية وإراحتها ولو مؤقتا من هموم وأعباء الدنيا لمجرد الاستماع إلى صوتها السحري. لقد كتب الأساتذة المتخصصون في شؤون الروح عن العوالم الأخرى وكيف أفلح بعض العباقرة في نقل صورة ولو جزئية عن طبيعة تلك العوالم البعيدة القريبة من هذه الأرض. فهناك مايكل أنجلو يعبر عنها بمنحوتاته المتناهية الدقة، وكذلك دافنشي الذي جسد عبقريته في لوحاته الخالدة التي تبعث رؤيتها على الدهشة والتأمل الجاد. وهناك أيضا شكسبير الذي خلد عبقريته في أشعاره ومسرحياته. ولا ننسى شاعرنا العربي الشاب

أبا القاسم الشابي الذي بلغ ذروة العبقرية والمجد في ريعان الشباب، وبالطبع لم تكن أسمهان أقل روعة وإبداعا وعبقرية من تلك النيرات الساطعة في سماء الإنسانية من خلال صوتها المتألق النابض بالظمأ الروحي والمغلف بهالة من الوهج الأثيري الجذاب. وكل من يسمع (عليك صلاة الله وسلامه) أو (الورد) أو (يللي هواك شاغل بالي) أو (أيدي في أيدك) أو (أبات أسامر خياله والليل نسيمه عليل) يعرف أن أسمهان أتت من عالم روحي يزخر بالانطباعات الرقيقة وبدائع الفن السامي. ولا بد أنها كانت على دراية بذلك المنشأ العريق، وقد تركت لنا برهانا صوتياً قاطعا بأنها كانت نفحة من نفحات الأنس ونسمة من نسمات الفردوس تماوجت لفترة قصيرة بين ظهرانينا ثم عادت من حيث أتت، فبقينا نحنّ إليها ونتوجد عليها. ولعل شخصية وصوتاً بهذا الغنى والتنوع قد لا يظهرا ثانية على هذا المسرح الأرضي على المدى القريب وربما البعيد، لكنَّ صوتها سيتردد للأبد في مسمع الدهر. فتحية لكِ يا أسمهان أينما كنتِ في أفلاك الله اللامتناهية، وكذلك إلى شقيقك المحبوب فريد الذي له أيضاً معزّة خاصة في قلوبنا ووجداناتنا.

إضاءات لتقليم أظافر الفشل

الأعمال العظيمة يتم إنجازها لا بالقوة بل بالمثابرة. إن من يمشي بهمة لثلاث ساعات يوميا، يقطع في سبع سنوات مسافة تساوي محيط الكرة الأرضية .المثابر يقتطف ثمار النجاح من بساتين الحياة حتى ولو كانت محمية بحرّاس ونواطير ومحصّنة بجيوش جرارة كاملة العدة والعتاد .كان الشاعر جورج إليوت يقول: إنني أتمتع بحصانة دائمة ضد الفشل، وقد اكتشفتُ أن الفشلَ الوحيد الذي يجب أن يخشاه الإنسان هو عدم قدرته على مواصلة السعي نحو هدفه المنشود .إن جميع المخترعات والإنجازات والفنون البشرية على اختلافها التي ننظر إليها بإعجاب وتعجّب هي نتاج قوة المثابرة التي لا تُقهر. وبفضل تلك القوة تحولت مقالع الحجارة إلى أهرامات وتم وصل البلدان البعيدة ببعضها بقنوات مائية عملاقة. لو قارن الإنسان ضربة المعول أو الرفش بالنتيجة الختامية لتلك الأعمال لاعتراه اليأس ولتوقف عن بذل المجهود. لكن بفعل تلك الضربات المتواصلة لتلك الأدوات البسيطة تغلب الإنسان على عقبات كأداء وعوائق كثيرة وكبيرة. فهو قد مهد الجبال وحفر الأنفاق والمناجم بإرادة قوية ومثابَرة لم تعترف بالفشل. من يراقب الأمور بذهن متيقظ ويعقد العزم على مواصلة السير